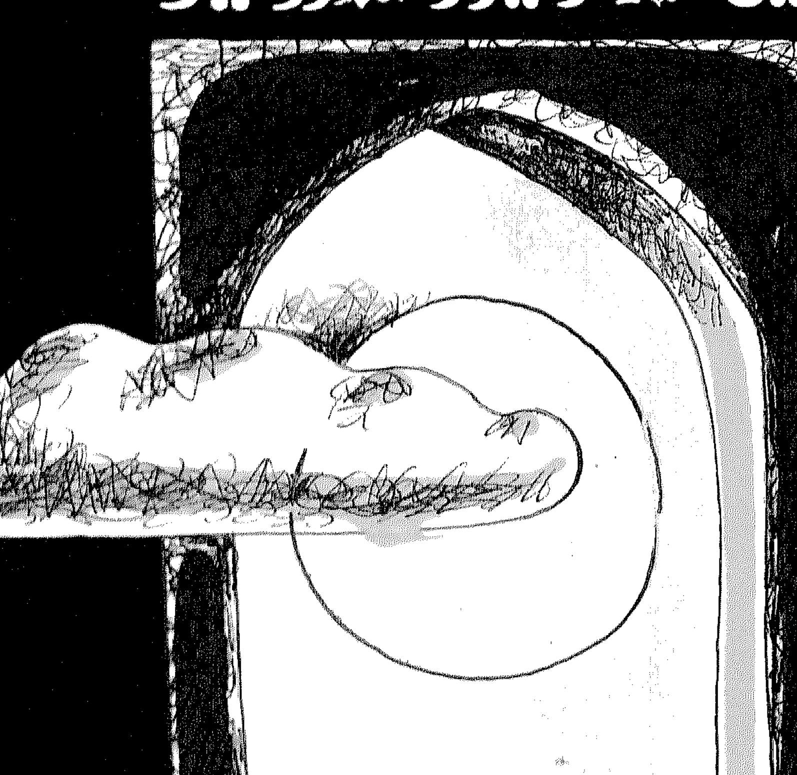
د. محمد عمارة

الإسلام بين التنوير والتزوير



دار الشروق



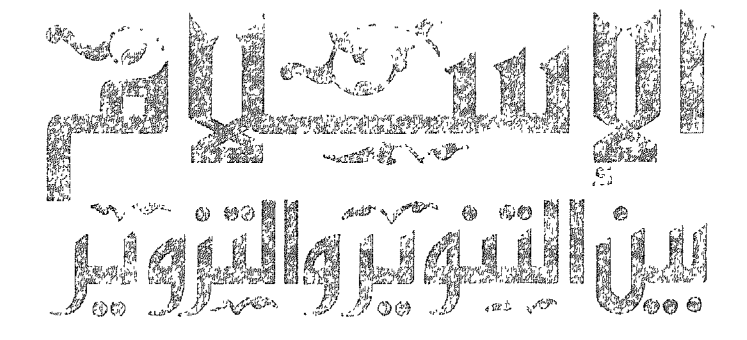

الإسلام
بين التنوير والتزوير

الطبعة الأولى
١٤١٦هـ - ١٩٩٥م
الطبعة الثانية
١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

© دار الشروق
أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى - رابعة العدوية - مدينة نصر
ص . ب : ٣٣ البانوراما - تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩
فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
البريد الإلكتروني: email: dar@shorouk.com

د. محمد عمارة




Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تمهيد

مع تصاعد ظاهرة الإحياء الإسلامى ، ونمو التيار الجماهيرى المنعطف للالتزام بكامل الإسلام، عقيدة وشريعة ومنهاجا شاملا لكل مناحى العمران الإنسانى . . ومع تراجع الأيديولوجيات الوضعية، ذات الجذور والأصول والمنابت الغربية، والتى استقطبت عقول قطاع كبير من النخبة والصفوة، فى حقبتى الاستعمار الغربى والهيمنة الغربية فى وطن العروبة وعالم الإسلام. . فى ظل هذه الظاهرة ـ تصاعد « الجامع الدينى » . . وتراجع «الأيديولوجيات الوضعية» ـ شهدت العقود الأخيرة فى حياتنا الفكرية حدة فى الاستقطاب الفكرى بين المفكرين والمثقفين حول « هوية المرجعية الفكرية» لمشروع النهضة المنشودة ، لم يسبق لها مثيل فى تاريخنا، القديم منه والحديث. .

صحيح أن تاريخنا القديم قد شهد انقساما فى العقل المسلم حول الموقف من « الوافد الفكرى» . . والوافد اليونانى على وجه الخصوص. . وصحيح أن مقولات الفلسفة اليونانية قد استنفرت الذين كتبوا عن [مقالات الإسلاميين] حتى غدت هذه العبارة عناوين مؤلفات عدة ـ للبلخى، أبوالقاسم، [٣١٩هـ ـ٩٣١م]، وللأشعرى [٢٦٠ـ ٣٢٤هـ، ٨٧٠ ـ ٩٣٦م]، وغيرهما . . لكن «الدولة» ومؤسساتها كانت يومئذ ملتزمة، مع الأمة ومذاهبها الكبرى ـ الكلامية . . والفقهية ـ بالمرجعية الإسلامية فى مختلف مناحى العمران، بينما ظلت الفلسفة اليونانية خيار نخبة من الفلاسفة محدودة العدد والتأثير. ذلك أن هذا « الوافد اليونانى» قد استدعته هذه النخبة

طواعية واختيارا، بل ووظفته ـ فى الأغلب الأعم ـ فى معركة الدفاع عن عقائد الإسلام ضد خطر « الباطنية الغنوصية » الفارسية، فلم يكن هذا الوافد سلاحا فى يد قوة غازية ومهيمنة تبتغى به إزاحة فكرية الأمة من الميدان! . . كذلك، لم تكن الأمة يومئذ فى حقبة «التراجع والاستضعاف»، وإنما كانت فى عنفوان حيويتها الحضارية، الأمر الذى جعل انفتاحها انفتاح صاحب «المعدة» القوية القادرة على تَمَثُّل المفيد من أى وافد، مع لفظ الضار والغريب! . . فكان تأثير الوافد المرفوض محدودا، حتى لقد وقفت سلبياته عند ما أثاره من ردود أفعال تمثلت فى تيارات الانغلاق والجمود والتقليد!! . .

لكن حالنا مع « الوافد الغربى»، الذى نعايشه منذ قرنين من الزمان، ليس على ذلك المنوال . . فلقد جاءنا فى ركاب غزوة استعمارية، جعلت منه سلاحا علقت عليه الآمال فى تأييد وتأبيد النهب الاقتصادى، والإلحاق العسكرى . . وكانت أمتنا فى حقبة التراجع والاستضعاف، الأمر الذى أعجزها، فى كثير من الأحيان، عن فرز وتمييز « النافع» من «الضار» و«الملائم» من « الغريب»، لأن « الهوية» و«المعايير» كانت قد تشوهت فى حقبة التراجع الحضارى، التى كرستها عسكرة الدولة فى حقبة المماليك والعثمانيين . .

فلما بدأت حقبة « الاستقلال الوطنى ـ القطرى»، ظلت الهيمنة الغربية تزكى تحكم هذا الوافد فى الواقع الحياتى وفى فكر المؤسسات التى قامت إبان الحقبة الاستعمارية، والتى سيطرت عليها الصفوة والنخبة التى تبنت المرجعية الغربية ـ ليبرالية . . أو شمولية ـ سبيلا للاستقلال والنهوض . .

لقد ظلت جماهير الأمة مع الموروث . . على حين انحازت « الصفوة المؤثرة» إلى المناهج الغربية الداعية إلى عزل الموروث عن أن يكون الحاكم لهوية النهضة المنشودة . . فلما استنفدت هذه « الصفوة» طاقاتها، وجربت فى الأمة كل مذاهب الغرب فى النهوض، دون أن تحدث تقدما حقيقيا على هذا الطريق، بل وضاع منها جوهر الاستقلال الوطنى، الذى بذلت الأمة فى

سبيله غالى الدماء، تبلورت للموروث « صفوته ونخبته»، وبدأت تتخلق فى الحياة الفكرية معالم مشروع بديل للاستقلال والنهوض، يتخذ من المرجعية الإسلامية هوية متميزة عن المرجعية الوضعية الغربية ، التى عجزت عن الفعل فى واقعنا. . والتى تصادف سقوط نماذج منها وتراجع نماذج أخرى على المستوى العالمى. . وكان من ثمرات هذه المتغيرات ـ الداخلية والعالمية ـ تزايد انعطاف الجماهير انعطافا واعيا ومتحركا نحو الالتزام بالمرجعية الإسلامية لمشروع النهضة . . ونمو حجم « النخبة الإسلامية» التى زاحمت وتزاحم « النخبة العلمانية» فى المؤسسات والنقابات والجمعيات والأحزاب الأهلية والطوعية. . فإلى جانب « الشارع الإسلامى» تخلق « عقل إسلامى»، على حين أصيبت المؤسسات والأحزاب العلمانية « بالجفاف الجماهيرى» ، حسب تعبير أحد المثقفين اليساريين العلمانيين ! ! . .

لكن هذه المتغيرات، التى بدلت موازين القوى فى « واقع الأوضاع الداخلية» بوطن العروبة وعالم الإسلام، لم تحسم الصراع الفكرى، بل ولم تقترب بنا من ساعة حسمه لحساب الإسلاميين. ذلك، لأن تصاعد هيمنة «الغرب ـ الشمال» على كل حضارات الجنوب، وعلى العالم الإسلامى بالدرجة الأولى والأخص والأشد، قد انتقل بـ «العامل الخارجى» و«التحديات الدولية» إلى قلب «الأوضاع الداخلية» فى وطن العروبة وعالم الإسلام. . فلم تعد « النخبة العلمانية» وحدها فى المواجهة مع المشروع الإسلامى ونخبته وجماهيره. . ولم تعد « مؤسسات الدولة القطرية» ـ التى صنعها الاستعمار وأورثها « للنخبة المتغربة» ـ هى التى تحمل وحدها عبء مواجهة « الحركات الإسلامية» ومؤسساتها الوليدة. . وإنما دخلت « التبعية» التى تشد الدول القطرية إلى الغرب، فى هذا الصراع، الأمر الذى زاد من حدة الاستقطاب بين « العلمانيين» وبين « الإسلاميين»، على نحو غير مسبوق، حتى أصبح التمييز بين « الداخلى» و«الخارجى»، فى كثير من الأحيان، صعبا، أو غير ميسور. فلم يعد الخلاف ـ كما كان فى أغلبه من قبل ـ بين خيارات ذاتية

داخلية واجتهادات محلية حول الأنفع والأصلح فى تحقيق « الاستقلال» و«النهضة» . . وذلك عندما خلط البعض ـ وهم ليسوا بالأكثرية والحمد لله ـ بين ماهو « داخلى» وماهو «خارجى» فى« غابة هذا الصراع »!! . .

لقد أصبحنا ـ وتلك حقيقة لا سبيل إلى تجاهلها ـ أمام درجة من حدة الاستقطاب فى حياتنا الفكرية والثقافية، تقترب من « الطائفية الثقافية »، ومن « الغلو» الذى تقطع أطرافه كل الحبال مع « الآخر» ، وتغلق فى وجه هذا الآخر كل القنوات ، الأمر الذى يهددنا جميعًا بنزيف داخلى شديد الإنهاك وطويل المدى، يحرسه « الخارج» ، الذى لا يرى إلا مصالحه وهيمنته ، ولايقنع بأقل من التبعية له والذوبان فيه!! . . أى أنه صراع ونزيف لاغالب فيه ولا مغلوب ، بمقاييس « استقلالنا الوطنى» و«وحدتنا القومية» و«نهضتنا الحضارية»، أيا كانت « هوية» هذا « الاستقلال» وتلك «الوحدة» وهذه «النهضة» . . الأمر الذى يستدعى وقفة مع « الذات» . . أى مع كل التيارات الفكرية المنتسبة حقا إلى هذه « الذات» الوطنية . . والقومية . . والإسلامية . . تتغيا « حوارا وطنيا وقوميا وإسلاميا» لاكتشاف معالم « عقد الاستقلال الوطنى والقومى والحضارى» . . فلابد من الاتفاق على تحقيق استقلال الوطن أولا، ليتمكن، بعد ذلك، كل صاحب أيديولوجية من التبشير بأيديولوجيته فى هذا الوطن المستقل ، إذ بدون « الزورق» غير المُخْتَرَق يكون عبثا التفكير فى « الرحيل» عليه نحو أى اتجاه!! . .

والأمر المؤكد ، أن الاجتماع على جعل معايير « الاتفاق . . والاختلاف» و«الولاء . . والبراء» ـ بين تيارات الفكر فى بلادنا ـ هى معايير «الاستقلال . . والتبعية»، سيقود فرقاء الفكر وتياراته إلى اكتشاف «أنواع» و«أحجام» و«أوزان» الفكر والمرجعية الفكرية الأقدر على دعم هذا الاستقلال وعلى تحريك الأمة فى مشروع النهوض، «موروثا» كان هذا الفكر أو «وافدا» . .

وإذا كان السبيل إلى هذه « الغاية» ـ التى هى المنطلق الحقيقى والوحيد إلى النهوض ـ هو حوارا فكريا « موضوعيا ـ وجادا ـ وصبورا» ، نعالج به هذا

الانقسام الفكرى غير المسبوق فى تاريخنا، من حيث « الحجم» و«الحدة»، ومن حيث « التحديات الخارجية» الفاعلة فيه، والمتربصة بالكثير من فرقائه!!.. فإن شرطا من شروط نجاح هذا الحوار هو تحرير المفاهيم والمضامين للمصطلحات المتداولة بين تياراتنا الفكرية، ليتحقق للمتحاورين ـ وكلهم عرب ـ الحديث «بلغة واحدة»!!.. إنقاذا لحوارنا المنشود من المصير البائس لـ «حوار الطرشان»!!..

لقد ورث هذا الجيل من مفكرينا ومثقفينا أيديولوجيات وثقافات وفلسفات لم يخترها بمحض إرادته الحرة.. ودرجنا فى الحياة الفكرية، وخضنا صراعاتها، ونحن نستخدم ونردد العديد من المصطلحات، التى تتحد ـ «كأوعية» ـ فى مختلف الأيديولوجيات والمرجعيات الفكرية التى قسمتنا وتوزعت عقولنا.. مع الاختلاف البين والشديد بين « مضامين ومفاهيم» هذه المصطلحات الواحدة فى كل نسق فكرى أو أيديولوجية من هذه الأنساق والأيديولوجيات.. وما لم نحرر مراد كل منا.. ومراد لغتنا ومواريثنا من هذه المصطلحات، فلن تكون لنا لغة فكرية واحدة تساعد على فهم مشترك للمراد، يمثل أولى شروط أى حوار ناجح بين مختلف الفرقاء..

وإذا كان كاتب هذه الدراسة قد عنى فى العديد من الكتب التى كتبها بهذه القضية.. قضية تحرير مضامين ومفاهيم المصطلحات.. من «الخلافة» و«الإمامة» و«الدولة المدنية» و«السلطة الدينية» و«الثورة» و«الإصلاح» و«التجديد» و«الاجتهاد» و«الجهاد» و«الحداثة» و«العقلانية» و«اليمين» و«اليسار» و«الملكية» و«الإقطاع» إلخ... إلخ. حتى لقد أخرج قاموسا لمصطلحات الحضارة الإسلامية ـ فى الميدان الاقتصادى والاجتماعى ـ تجاوزت مصطلحاته خمسة آلاف مصطلح...

وإذا كان هذا هو جهد كاتب هذه الدراسة ـ وقبله ومعه كانت جهود كثيرة فى هذا الميدان ـ فإن صفحات هذه الدراسة ستتركز على واحدة من مشكلات « صراعنا الفكرى» الذى يقوم على المفاهيم المتباينة لمصطلح واحد

يردده فرقاء هذا « الصراع » . . ذلكم هو مصطلح «التنوير»!! . .

فإذا استطاعت هذه الدراسة ، بتحريرها لمضمون مصطلح « التنوير » ، أن تكتشف حقيقته . . وحقيقة « الأرض المشتركة » بين الفرقاء « المتصارعين » باسمه وحوله!! . . وحجم « الخداع المفاهيمى » الذى يسببه استخدام المصطلح « الواحد » بمفاهيم وخلفيات ومضامين مختلفة ، بل ومتباينة ، وأحيانا متناقضة ! ! . .

إذا استطاعت هذه الدراسة أن تضع عقول مختلف الفرقاء أمام هذه الحقيقة ـ فى مصطلح « التنوير » ـ فإنها ستكون خطوة على هذا الطريق . . طريق الكلمة السواء . . التى ندعو إليها فرقاء الفكر فى وطن العروبة وعالم الإسلام ، لإنقاذ حياتنا الفكرية من تشرذم « الطائفية الثقافية » الذى يأخذ منا جميعا بالخناق . . والذى يهدد أحلامنا جميعا ، فى الاستقلال والنهوض ، بكارثة لا يعلم مداها إلا الله ! . .

تلك هى مهمة هذه الدراسة ، التى ندعو الله أن يجعلها إسهاما فى الدعوة ـ بالتى هى أحسن ـ إلى كلمة سواء .

التنوير: غربى؟.. أم عربى؟!

فى السنوات الأخيرة . . وعقب سقوط المنظومة الماركسية، وأحزابها ونظمها ودولها . . التحقت « الدول» التى كانت ماركسية بالليبرالية الغربية، فتبنت أيديولوجيتها، وطلبت عضوية مؤسساتها، وغدت « أصواتها» فى المؤسسات الدولية تابعة « للصوت الغربى» فى هذه المؤسسات. . ولقد عبرت هذه التحولات عن إعادة الغرب « ترتيب بيته الحضارى»، على النحو الذى أعاد له لونا من « الوحدة الحضارية» فى مواجهة حضارات الجنوب، وبخاصة الحضارة الإسلامية، التى تعالت وتتعالى الأصوات الغربية باتخاذها « خطرا أخضر» أحلته محل « الخطر الأحمر»، كالعدو الأول للحضارة الغربية فيما هو قائم وقادم من فصول الصراع بين الحضارات!! . .

وفى نفس الوقت الذى تحولت فيه الأممية الماركسية ودولها الغربية إلى الليبرالية الغربية ومعسكرها الرأسمالى، حدث نفس التحول لرموز المثقفين والمفكرين الماركسيين العرب، من موقع المعارضة للنظم والحكومات العربية ـ والغارقة منها فى مستنقع التبعية للغرب على وجه الخصوص ـ تحولت هذه الرموز الماركسية من موقع المعارضة إلى موقع التأييد، حتى لقد صنعوا صنيع الدول التى كانت ماركسية، فغدوا الركائز والعمد التى تناضل لتثبيت الواقع القائم ـ رغم بؤسه حتى بمقاييسها الماركسية!! ـ وأصبحوا « أفصح» ألسنة مؤسسات الإعلام والثقافة فى مواجهة المشروع الإسلامى، الذى أصبح أكثر مشروعات التغيير للواقع قبولا من الجماهير.

وكما تبنت الدول التى كانت ماركسية ليبرالية الغرب . . صنع الماركسيون العرب . .

فأصبحوا يتحدثون عن « الوطنية» ـ بدلا من الأممية ـ . . بعد أن كانت «تعصبا . . وضيق أفق . . وشيفونية» . . وبعد أن كان معيارها عندهم هو: الموقف من الاتحاد السوفيتى ! ! . .

وأصبحوا يتحدثون عن « الليبرالية» . . بعد أن كانت سُبَّة، لما تعنيه من رأسمالية فى الاقتصاد وعلاقات الإنتاج وبرجوازية فى السياسة والثقافة والفنون والآداب ! ! . .

وبعد أن كانوا يصورون رفضهم للدين والتدين بحسبانه من مقتضيات تحقيق المشروع الشيوعى فى الاقتصاد والاجتماع ـ وهو المشروع الذى قالوا إنه لابد من استناده إلى المادية الجدلية فى تفسير الكون والوجود، والمادية التاريخية فى تفسير الصيرورة والتاريخ ـ رأيناهم وقد تزايد نقدهم للدين حتى بعد سقوط المشروع ! ! . . فتصاعد احتضانهم «للآليات» و«الوسائل» حتى بعد سقوط « المقاصد» و«الغايات» ! ! . . حتى كأن لم يبق من «رسالتهم» إلا العداء للدين ! ! ! . .

وفى خضم هذه التحولات التى حدثت للمفكرين والمثقفين الماركسيين العرب، بعثوا شعار « التنوير» من مرقده القديم، ودعوا إليه باعتباره المظلة الفكرية والإطار الثقافى للقوى التى أرادوا لها مواجهة المشروع الإسلامى للتغيير . فلقد أطلقوا على الفكر الذى يريد بعث الحضارة الإسلامية وتجديدها . . واتخاذ الإسلام مرجعية لمشروع النهضة المنشودة . . واتخاذ الإسلام دينا ودولة ومنهاجا شاملا لكل مناحى العمران . . أطلقوا على هذا الفكر صفة **«الفكر الظلامى»** ، ودعوا إلى مواجهته بـ **«فكر التنوير»** ، الذى سبق لهم ـ كماركسيين ـ وعرفوه فى [الموسوعة الفلسفية] السوفيتية بأنه «**زعم مثالى يدعى أصحابه أن الوعى هو الذى يلعب الدور الحاسم فى تطور المجتمع . . ولم يكن مفكرو التنوير يضعون فى اعتبارهم الدلالة الحاسمة**

للشروط الاقتصادية للتطور، ومن ثم لم يستطيعوا كشف القوانين الموضوعية للمجتمع»!! . .

فجأة . . وفى خضم هذه التحولات ـ التى وضعت « الدول الماركسية» فى «جيب الغرب الاستعماري» . . ووضعت رموز الماركسية العربية فى «خندق النظم التابعة للغرب الاستعماري» ـ تعلق الماركسيون بشعار «التنوير» ـ الذى قالت [الموسوعة الفلسفية] السوفيتية : «**إنه لم يعد يمثل اتجاها مؤثرا فى التفكير الاجتماعى فى الوقت الحاضر**»[1] ـ داعين إلى مظلته، فى مواجهة المشروع الإسلامى، الذى نعتوه بـ« الفكر الظلامى»!! . .

هكذا شهدت حياتنا الفكرية والثقافية والإعلامية الحديث المتنامى عن «التنوير» كشعار « للمواجهة» ، مواجهة المشروع الإسلامى، كواحد من هذه التحولات التى أعادت توظيف الماركسيين العرب فى مؤسسات نظم «التبعية»، ضمن الظاهرة الأشمل، التى أعادت ترتيب « البيت الحضارى الغربى»، فوظفت المعسكر الذى كان ماركسيا فى المشروع الغربى، الذى أعلن ويعلن الحرب على حضارات الجنوب، وخاصة منها حضارة الإسلام!! . .

وفى هذا السياق ـ سياق « التنوير: المواجهة» ـ شهدت الساحة الفكرية المصرية ، على سبيل المثال، :

● انعقاد معرض القاهرة الدولى للكتاب سنة ١٩٩٠م تحت شعار : «مائة عام من التنوير» . .

● واحتفالات المثقفين العلمانيين بمئوية مجلة [الهلال] القاهرية سنة١٩٩٢م، تحت ذات الشعار : «مائة عام من التنوير» . .

---

(١) [الموسوعة الفلسفية] السوفيتية . . وضع لجنة من العلماء والأكاديميين السوفيتيين، بإشراف: م. روزنتال، ب. يودين . ترجمة : سمير كرم ، ومراجعة: د. صادق جلال العظم، وجورج طرابيشى. طبعة دار الطليعة ـ بيروت، سنة ١٩٧٤م.

● والحملة الفكرية التى نهضت بها وزارة الثقافة المصرية سنة ١٩٩٣م . . والتى أصدرت فيها قرابة الخمسين كتابا - فى كل يوم كتاب!! - لتحمل أغلفتها كلمتى « المواجهة» و« التنوير» . . معتبرة هذا « التنوير» سلاحها فى هذه « الحرب التى هى أشد ضراوة من أى حرب خاضتها مصر مع أعدائها الخارجيين فى هذا القرن»!! - كما جاء على أغلفة كتب « المواجهة» و«التنوير»!! . .

ولم تدع هذه الحملة الثقافية - بما فيها من القائمين عليها، ومعظم كتّابها، وأكثر كتاباتها - أى مجال للبس فى أن شعار « التنوير» قد استدعى «المواجهة الإسلاميين» . . حتى لقد كتبت الأوساط الثقافية عنها، تحت عنوان [رموز التنوير فى «المواجهة»]، فقالت :

« ينظم المثقفون فى مصر حملة إعلامية كبيرة، بالتعاون مع السلطات الرسمية، شعارها « المواجهة» . فيصدرون كتيبات تعيد النهضويين إلى دائرة الضوء، وينظمون مهرجانات فى سائر المحافظات، يعرّفون برموز النهضة ودعاتها فى القرن الماضى ومطالع القرن الحالى .

«رموز التنوير فى مواجهة الظلاميين» :

الطهطاوى . . ومحمد عبده . . والأفغانى . . وعلى عبد الرازق . . وطه حسين . . فى مواجهة « الحركة الإسلامية السياسية»[٢] !

وفى كتابين من الكتب التى صدرت فى هذه السلسلة للأستاذ الدكتور جابر عصفور - وهو من أبرز منظمى هذه الحملة - تحدث عن « التنوير» الذى طبع ثقافتنا منذ حملة بونابرت على مصر [١٢١٣هـ - ١٧٩٨م] وحتى [١٣٣٢هـ - ١٩١٤م] - وهو عنده عصر الإحياء التنويرى -. . وكيف «انتكس» هذا « التنوير» منذ عشرينيات هذا القرن العشرين، بظهور

---

(٢) مصطفى الزين - صحيفة [الحياة]- العدد ١١٠٤٥ ، فى ١٩ من ذى القعدة، سنة ١٤١٣هـ - ١٠ من مايو، سنة ١٩٩٣م .

«الحركات الإسلامية» الداعية إلى شمول الإسلام للسياسة والدولة . . حتى أفضى الأمر بالتنوير إلى « المحنة» على يد « المشروع القومى»، منذ الخمسينيات . . «والمشروع الإسلامى» الذى ساد الساحة منذ السبعينيات[٣]! ! . .

* * *

ولما كنا نريد « الحوار» بدلا من « المواجهة» . . فإن من شروط الحوار المجدى تحرير مفاهيم ومضامين هذا المصطلح . . مصطلح « التنوير» . . .

إن القرآن الكريم يعلمنا أن « التعمية» و«حجب الحقيقة» كانا منهاج المشركين الذين أرادوا مصادرة الحقائق، فكان **شعارهم** : «**لا تسمعوا**»! ! . . **﴿وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون﴾**[٤]! ! . . بينما كان شعار القرآن الكريم ورسوله، ﷺ ، ومنهاج أمته : **﴿ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾**[٥]، و**﴿ نبئونى بعلم إن كنتم صادقين﴾**[٦]، و**﴿قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا﴾**؟[٧]، و**﴿ ائتونى بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم﴾**[٨]! . .

وهذا المنهاج القرآنى هو الذى بينته وطبقته السنة النبوية، التى جعلت «الحكمة» ـ وهى « الإصابة فى غير النبوة» ـ بنص الحديث الذى يرويه البخارى ـ جعلت هذه « الحكمة» ضالة المؤمن . . « فالكلمة الحكمة ضالة المؤمن »[٩] أنَّى وجدها، ومن أى مصدر جاءت فالمؤمن أحق الناس بها . .

---

(٣) انظر كتابى د. جابر عصفور: [التنوير يواجه الإظلام]، و[محنة التنوير]، جـ١، الهيئة العامة للكتاب ـ القاهرة، سنة ١٩٩٣م.

(٤) فصلت : ٢٦ .

(٥) البقرة: ١١١، والنمل : ٦٤ .

(٦) الأنعام : ١٤٣ .

(٧) الأنعام: ١٤٨ .

(٨) الأحقاف : ٤ .

(٩) رواه الترمذى وابن ماجه .

وهو المنهاج الذى سار على دربه الكندى الفيلسوف [٢٦٠هـ-٨٧٣م] ، فقال : «خليق بنا ألا نخجل من الاعتراف بالحقيقة واستيعابها، مهما كان مصدرها» . . . وتابعه ابن رشد [٥٢٠ - ٥٩٥هـ ، ١١٢٦ - ١١٩٨م] ، فقال : « إنه يجب علينا أن نستعين على مانحن بسبيله بما قاله من تقدمنا فى ذلك . . سواء أكان مشاركا لنا فى الملة أو غير مشارك ، طالما كان صوابا» . . وعلى دربه سار الأفغانى [١٢٥٤ - ١٣١٤هـ، ١٨٣٨ - ١٨٩٧م] ، فقال : « إن أبا العلم وأمه هو الدليل. والدليل ليس أرسطو بالذات ولا جاليليو بالذات. . . والحقيقة تلتمس حيث يوجد الدليل» . .

بهذا المنهاج « القرآنى . . النبوى . . الإسلامى»، نريد أن نبحث عن حقيقة « التنوير» ، لنرى أنحن مدعوون إلى « تنوير: عربى - إسلامى» فنتفق مع الدعاة إليه على كلمة سواء؟! . . أم أننا مدعوون إلى « تنوير غربى»؟! . . وإذا كانوا يدعوننا إلى « تنوير غربى» ، فإننا لانريد رفضه لأنه غربى . . بل نريد عرض مضامينه ومفاهيمه على ثوابتنا الاعتقادية والحضارية ، لنرى مدى ما فى هذه المضامين التنويرية الغربية من « الصواب» و«الملاءمة» ، ومن ثم حظها من « القبول» فى عقل أمتنا ووجدانها ! ! . .

نريد أن نتحاكم إلى « البرهان» و«الحكمة» و«العلم» و«الحقيقة» فى تحرير مضامين ومفاهيم مصطلح « التنوير» ، لنميز فيها بين « الصدق» وبين «التزوير» ! ! . . سعيا منا إلى توحيد العقل المسلم بجمعه على كلمة سواء ! . .

وبعد هذا الفحص لحقيقة مضامين هذا المصطلح ، فى النسق الغربى . . وفى النسق العربى الإسلامى . . نريد أن نعرض مذاهب العلماء والأعلام الذين قدمتهم حملة « التنوير والمواجهة» ، من الطهطاوى إلى الأفغانى إلى محمد عبده إلى على عبد الرازق إلى طه حسين إلى سلامة موسى . . . إلخ . . إلخ . . نريد أن نعرض مذاهبهم ، من خلال نصوصهم . . وعبر تطورهم

الفكرى - إن كان لهم تطور فكرى - لنرى حقيقة « النسب الفكرى» لهذه المذاهب. . ألِى « التنوير» بمعانيه الغربية؟ . . أم إلى «التنوير» بمعانيه العربية الإسلامية؟ . . وذلك - مرة أخرى - حتى نتبين «الصدق» من «التزوير» فى سلسلة أعلام « التنوير»!! . .

* * *

سيدهش الكثيرون، وخاصة بعد أن أصبح مصطلح « التنوير» عنوانا لحملة ثقافية وإعلامية تصك الأسماع صباحا ومساء، إذا هم علموا أن هذا المصطلح لم تعرفه قواميس الفكر ولا معاجم الثقافة على امتداد تاريخنا العربى الإسلامى الطويل. . والمرة الوحيدة التى يطالعها الإنسان لمادة ومدخل فى معاجم الفكر والثقافة لكلمة «التنوير»، سيجدها إشارة إلى عنوان كتاب فى فقه المذهب الحنفى - عنوانه [تنوير الأبصار] لشمس الدين محمد بن عبد الله الغزى [١٠٠٤هـ-١٥٩٦م] - وهو الذى شرحه علاء الدين الحصكفى [١٠٢٥ - ١٠٨٨هـ، ١٦١٦ - ١٦٧٧م] فى كتاب سماه [الدر المختار فى شرح تنوير الأبصار] ، ووضع عليه ابن عابدين محمد الأمين حاشية سماها: [المختار على الدر المختار، شرح تنوير الأبصار، فى فقه مذهب الإمام أبى حنيفة النعمان]. . وعلى هذا الدرب سار العديد من المؤلفين باستخدام كلمة «تنوير» فى عناوين المؤلفات، من مثل: [تنوير الأذهان فى الصرف والنحو والبيان]، و[تنوير الأفهام فى تغذى الأجسام]، و[تنوير الأفئدة الزكية فى أدلة أذكار الوظيفة الزروقية]، و[تنوير البصائر بسيرة الشيخ طاهر]، و[تنوير الحلك فى إمكان رؤية النبى والملك]، و[التنوير فى إسقاط التدبير] ، و[التنوير الكافى فى التصوير الفوتوغرافى] . . . إلخ . . إلخ [١٠].

(١٠) انظر يوسف إليان سركيس: [معجم المطبوعات العربية والمعربة]، طبعة القاهرة، سنة ١٩٢٨م.

ولا أثر فى أى معجم من معاجمنا « الفكرية» ، ولا فى أى قاموس من قواميس وكشافات مصطلحات الفنون لمادة عنوانها « التنوير» ! ! (١١) .

وإذا كان القرآن الكريم قد خلا من هذا المصطلح، فإن المعاجم «اللغوية» ـ وليست «الفكرية» ـ قد عرفته، انطلاقا من الحديث النبوى، تعريفا لغويا، لاعلاقة له من قريب أو من بعيد بالمضامين والمفاهيم الغربية التى اشتهر بها هذا المصطلح فى الحضارة الأوربية، وهى المفاهيم والمضامين التى يعرض بها الآن على العقل العربى والمسلم، والتى نريد عرضها على ثوابت الاعتقاد الإسلامى ومناهج النظر فى حضارتنا الإسلامية، بل وعلى فكر الأعلام والعلماء الذين تُساق أسماؤهم فى «مواكب المواجهة والتنوير» ! ! . .

إن « التنوير» فى معاجمنا اللغوية، هو : وقت إسفار الصبح، أى وقت صلاة الصبح . . وفى الحديث الشريف ـ الذى يرويه الدارمى ـ يقول الرسول ، ﷺ : « نَوِّروا بصلاة الصبح» . . أى صلوها ساعة «التنوير» . . ساعة إسفار نور الصباح . . والحديث وارد فى « مواقيت الصلاة » ! ! (١٢).

فهل لهذا المضمون العربى الإسلامى علاقة ما بها لهذا المصطلح فى التراث الفكرى الغربى من مضامين محددة، ظهرت فى مرحلة تاريخية محددة، على يد تيار فكرى وفلسفى محدد؟ ! . .

لننظر . . حتى نعلم إلى أى تنوير نحن مدعوون؟ ! . .

* * *

---

(١١) انظر [الكليات] لأبى البقاء. طبعة دمشق، سنة ١٩٨١م. و[كشاف مصطلحات الفنون]للتهانوى. طبعة الهند، سنة ١٨٩٢م. و[دائرة المعارف الإسلامية] ـ لمجموعة من المستشرقين ـ طبعة دار الشعب، القاهرة. و[دائرة المعارف] للمعلم بطرس البستانى. طبعة القاهرة . و[القاموس الإسلامى] لأحمد عطيه الله. طبعة القاهرة، سنة ١٩٦٣م.

(١٢) انظر [لسان العرب] لابن منظور . طبعة دار المعارف. القاهرة.

عندما يذكر مصطلح « التنوير» Enlightenment فى الحياة الفكرية والثقافية، فإنه يستدعى إلى الذهن نسقا فكريا أوربى النشأة والمضمون والإيحاء . . بل لقد غدا عنوانا على نسق فكرى ساد فى مرحلة تاريخية محددة من مراحل تطور الفكر الغربى الحديث، حتى ليقال كثيرا ـ فى تقسيم مراحل هذا الفكر ـ : «عصر التنوير» . . وهذا مفكر من « عصر التنوير» . وهذه النظرية من نظريات « عصر التنوير» . . أو ضد نظريات ذلك العصر.

وإلى هذه الحقيقة ،أشار مجمع اللغة العربية فى تعريفه لـ « التنوير» فقال: إنه « حركة فلسفية، فى القرن الثامن عشر. . . . » . . ثم أكمل التعريف الذى يتحدث عن معالم نسق فكرى وفلسفى أوربى نشأ فى أوربا فى القرن الثامن عشر الميلادى (١٣) . .

وفى تعريف المجمع لهذه الحركة الفلسفية الأوربية، بيان لمعالمها ومميزاتها التى تميزت بها عن الفكر اللاهوتى الكنسى الذى كان سائدا فى أوربا يومئذ . . ففلسفة التنوير هذه « تعتد بالعقل، والاستقلال بالرأى، وتؤمن بأثر الأخلاق، وتقوم على فكرة التقدم والتحرر من السلطة والتقاليد» .

ولكى نفهم معنى هذه المعالم التى ميزت فلسفة التنوير، لابد من فهم الواقع الذى جابهته ورفضته، وفهم السياق الحضارى الذى أفضى بالحياة الفكرية الأوربية إلى فلسفة التنوير . .

لقد كان « التنوير» الأوربى رفضا للعصور « المظلمة» التى سادت أوربا عندما حكمتها البابوية باللاهوت الكنسى . . ولقد نظر هذا التنوير إلى «ظلام» تلك العصور باعتبارها « نازلة» و«كارثة» و«جملة معترضة» فى طريق أوربا الفكرى، فتقدَّم فلاسفته لطى هذه الصفحة، وإحلال التنوير محلها . . وعلى هذه الفلسفة التنويرية تأسس الإحياء الأوربى والنهضة الأوربية الحديثة . .

---

(١٣) [المعجم الفلسفى] . طبعة القاهرة، سنة ١٩٧٩م .

وهنا يثور السؤال عن وجه « الخصوصية» الذى جعل ويجعل هذا التنوير الأوربى شأنا أوربيا خاصا وخالصا، لا علاقة له بالسياق الحضارى لعالم الإسلام؟ . .

لقد تميزت الحضارة الغربية، منذ طورها اليونانى، بنزعة مادية خالصة سافرة، أو مشوبة بالفكر الإلهى، منذ ما قبل التدين بالنصرانية بعدة قرون . .

فمنذ ما قبل الميلاد، نجد تيارا ماديا متبلورا فى الفلسفة اليونانية، عند طاليس [٦٢٤ ـ ٥٤٧ق . م] وأنكسيماس [٥٨٨ ـ ٥٢٥ق . م] وهرقليطس [٥٤٤ ـ ٤٨٣ق . م]، الذين قالوا إن المادة مستكفية بنفسها، مستغنية عن خالق يوجدها . . واستمر هذا التيار المادى فى الفلسفة الغربية حتى القرن التاسع عشر، فبلغ ذروته فى المادية الجدلية والتاريخية عند كارل ماركس [١٨١٧ ـ ١٨٨٣م]، وفردريك أنجلز [١٨٢٠ ـ ١٨٩٥م] . .

أما التيار «الإلهى» فى الفلسفة الغربية، فلقد تبلور فى حقبتها اليونانية «دنيويا» . . بمعنى أنه وإن اعترف بإله خالق لهذا الكون، إلا أنه وقف بفعل هذا الإله عند حدود « الخلق» لهذا العالم، جاعلا تسيير وتدبير هذا العالم للأسباب المادية المودعة فى ظواهره وقواه ومخلوقاته، دون تدبير إلهى أو تدخل سماوى أو رعاية أو ضبط من وحى نازل من السماء . . فعلاقة الخالق بالوجود «علاقة منطقية»، كعلاقة المقدمة بالنتيجة، وليست علاقة الراعى المدبر لشئون هذا الوجود! . . نعم . . هى فلسفة « إلهية»، تؤمن بخالق لهذا العالم ، لكنها « دنيوية» تعزل السماء عن الأرض، وتوقف عمل الخالق فى الخلق، وتجعل تدبير العالم والدنيا والإنسان والمجتمع للمرجعية الدنيوية ـ نواميس الكون والأسباب المادية المركبة فى ظواهره، والعقل الإنسانى والتجارب التى تقوم بها وتدركها الحواس الخمس للإنسان ـ . .

وعندما دخلت النصرانية إلى الدولة الرومانية على عهد الإمبراطور قسطنطين الكبير [٢٧٤ ـ ٣٣٧م] ،فإنها طُوِّعت للنزعة الدنيوية فى

الفلسفة الأوربية . . لقد ناقضت النزعة المادية . . لكنها اتسقت مع النزعة الدنيوية ، لاختصاصها بخلاص الروح ومملكة السماء ، وتركها الدنيا ـ بكل شئون العمران فيها ـ لقيصر، انطلاقا من المقولة الإنجيلية : «دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله» . . حتى لقد عبر قاضى القضاة عبد الجبار بن أحمد الهمدانى [٤١٥هـ ـ ١٠٢٤م] عن هذا التحول الذى طُوّعت به النصرانية للحضارة الأوربية ، فقال : « إن النصرانية عندما دخلت روما ، لم تتنصّر روما ، ولكن النصرانية هى التى تَرَوَّمت»!! . .

ولقد ظل هذا الاتساق بين النصرانية وبين الفلسفة « الإلهية ـ الدنيوية» الأوربية ، إلى أن جاء عصر الحكم البابوى ، الذى جمعت فيه البابوية السلطة « الزمنية» إلى سلطتها « الإلهية» ، فكان فى ذلك تجاوز للمبدأ الإنجيلى ـ «دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله» ـ وعدوانا على « النزعة الدنيوية» التى ميزت الفلسفة الأوربية منذ طورها اليونانى القديم . .

ولما كانت النصرانية لا تمتلك « شريعة للعمران الدنيوى» ، بل تركزت تعاليمها ووصاياها على خلاص الروح . . وهى « ثوابت» ليس فيها المرونة التى تقتضيها « شريعة العمران المتطور دائما» . . فلقد « ثَبَّت» الحكم البابوى الكنسى « المتغيرات الدنيوية» ، بل وأضفى عليها « قدسية » الدين ، الأمر الذى أوقف التطور والتقدم والعلم والفلسفة ، فدخل الحكم البابوى الكهنوتى بالحضارة الأوربية إلى ظلمات عصورها الوسطى! . .

فى ضوء هذا السياق وهذه الخصوصية ، جاء التنوير الأوربى : فلسفة رافضة لتجاوز الكنيسة حدودها التى رسمها الإنجيل ـ خلاص الروح ومملكة السماء ـ . . ومدافعة عن « النزعة الدنيوية» ـ [العلمانية] ـ للفلسفة الأوربية . . وداعية إلى « العقل» الذى استبعدته الكنيسة ، و«الرأى» الذى قهره اللاهوت ، ومنادية بالتحرر من « سلطة التقاليد» الكنسية التى كانت «سوقا تجارية» راجت فيها مفاسد القساوسة والبابوات!! . . ففى مواجهة «الفعل» ـ الذى تمثل فى تحالف الكنيسة والإقطاع ـ كان «رد الفعل»

التنويرى، الذى أعلن رفضه لسلطان الدين على الدنيا، ولتدخل السماء فى العمران الأرضى، رافعا شعاره القائل: «لاسلطان على العقل إلا للعقل»! . .

وإذا كانت جذور التنوير - بهذا المعنى الأوربى - يمكن أن تعود إلى «فرنسيس بيكون» [١٥٦١ - ١٦٢٦م] - فى القرن السابع عشر - الذى رفض تدخل الدين فى المعرفة، لأن «الدين يحد من كل ألوان المعرفة» - وكان ذلك واقعا أوربيا خاصا يومئذ - فإن هذه الجذور التنويرية الأوربية قد تميزت، منذ بزوغ فجرها بتعليق الآمال على «العقل والعلم والفلسفة»، جاعلة منها بديلا عن الدين والتدين. . بل وبديلا عن «الله» - ومتخذة منها «آلهة للتنوير»!! . . فالعقل والعلم والفلسفة كانت مطرودة من المجتمع الأوربى الذى حكمته الكهانة البابوية باللاهوت. . ومن هنا كان استدعاء التنوير لها كبدائل عن دين الكهانة واللاهوت. .

أما القرن الثامن عشر الميلادى، فهو الذى شهد صعود موجة فلسفة التنوير، وتوالى أعلام هذه الفلسفة. . من مثل «فولتير» [١٧٣٤ - ١٧٧٨م]، و«روسو» [١٧١٢ - ١٧٧٨م]، و«مونتسكيو» [١٦٨٩ - ١٧٥٥م]، و«هيردر» و«ليسنج» [١٧٢٩ - ١٧٨١م]، و«شيلر [١٧٥٩ - ١٨٠٥م]، و«جوته» [١٧٤٩-١٨٣٢م]، و«كانت» [١٧٢٤ - ١٨٠٤م]. . إلخ. . إلخ. . حتى لقد سمى هذا القرن الثامن عشر بعصر التنوير.

وإذا كان القرن الثامن عشر هو عصر التنوير الأوربى، فلقد كان «فولتير» أبرز فلاسفة ومفكرى هذا التنوير. . فلقد دعا إلى تمجيد العقل، بديلا عن قداسة الدين، وشن حملة شعواء ضد الدين والكنيسة، وأنكر عالم الغيب، والبعث، والجزاء الأخروى. وقال إن النفس ليست إلا حياة الجسم، وأنها تفنى بفنائه. . وليس هناك وحى مقدس سوى الطبيعة نفسها. . وكتب كثيرا فى نقد الدين، الذى اتخذه رجال الكنيسة وسيلة لإرباك أذهان الناس، واستخدمه الملوك لسلب أموالهم. . وجعل مقاييس

الفضيلة فى مدى ماتحققه من الخير الاجتماعى، قاطعا العلاقة بينها وبين طاعة الله، أو الثواب والعقاب بعد الموت . .

وحتى فى قضية وجود الله فى هذا الكون، فإن تذبذب « فولتير» ـ عبر مراحل تطوره الفكرى ـ إزاء الإيمان بإله، قد ظل فى دائرة الإنكار الكامل والإلحاد التام، أو فى دائرة الاعتراف بوجوده من باب الضرورة لضبط سلوك «العامة». . فالدين مجرد منفعة عامة، و «إذا كانت لديك قرية واحدة، لتحكمها، فينبغى أن يكون لها دين»!! . . و«إذا لم يكن الإله موجودا ، فيجب علينا أن نبتدعه»!! . . و«قد يكون ثمة بعض النفع فى الدين، ولكن الرجل الأريب لا يحتاج إليه لتعزيز الفضيلة»!! . . ـ تلك هى عبارات «فولتير»، التى تصور موقف « التنوير الأوربى» من «الدين الأوربى» الذى حكّمته البابوية والكهانة الكنسية فى الدولة والمجتمع والعمران، فجاء التنوير ليرفضه من الأساس! . .

ولما مال « فولتير»، فى أخريات حياته، إلى التسليم بوجود إله، رآه مختلفا كل الاختلاف عن إله النصرانية . . فدعا إلى «دين : الله والتسامح . . لأن الطبيعة بأسرها تصيح فينا أنه موجود فعلا . . ». ثم أضاف : « أما بالنسبة للسيد الابن ـ [المسيح] ـ والسيدة أمه ـ [العذراء] ـ فتلك مسألة أخرى»!! . .

ولقد انتشر فكر التنوير ، بهذا المعنى ـ تمجيد العقل وحده، بل وعبادته، فى إنجلترا وفرنسا، ناشرًا معه الكفر والإلحاد والنزعة المادية فى الفلسفة ـ فقال «هوبز» [١٥٨٨ ـ ١٦٧٩ م] : «ليس فى الوجود إلا ذرات فى فراغ» . . وبلغ هذا المعنى للتنوير ذروته إبان الثورة الفرنسية ـ [١٧٨٩ م] ـ عندما اتخذ الباريسيون معبودة حسناء أطلقوا عليها : « إلهة العقل»! . . وقالوا : إنهم أنزلوا الله من ملكوته، مع إنزالهم أسرة البوربون عن عرشها! . .

تلك هى أبرز معالم فلسفة التنوير الأوربى . . وهكذا نشأ كرد فعل على الكهانة البابوية التى تجاوزت حدود الإنجيل والنصرانية، فتحكمت فى

الدولة والدنيا، وقدستها وجمدتها. . ثم غرقت فى الفساد والاستبداد، واضطهدت لا المخالفين فى الدين والملاحدة فقط، بل والمخالفين فى المذهب أيضا، حتى كانت عقوبة إقامة قداس بروتستانتى، فى مجتمع كاثوليكى: سجن النساء مدى الحياة، وإرسال الرجال للتجديف حتى الموت، وإعدام الكهنة!. . وكانت المواكب تسير فى ذكرى المذابح الدينية «شكرا لله»!!. . ناهيك عن الذى حدث للعلم والعلماء على أيدى الكهانة الكنسية فى تلك العصور (١٤)!. .

تلك كانت الملابسات الأوربية، التى أفرزت هذا المعنى الخاص للتنوير فى أوربا. . **لقد اعترض الحكم الكهنوتى مجرى وسياق « النزعة الدنيوية» لفكرية الحضارة الأوربية وفلسفتها، الأمر الذى أدخل تلك الحضارة عصورها المظلمة والرجعية. . فجاء التنوير الأوربى، ليزيح هذا الاعتراض، راجعا بالكنيسة إلى إطارها الإنجيلى ـ خلاص الروح والاقتصار على مملكة السماء ـ تاركة ما لقيصر لقيصر وما لله لله ـ ومواصلا مسار « النزعة الدنيوية» ـ[العلمانية]ـ للفكر والفلسفة الأوربية من جديد. .**

فهل يستطيع عاقل أن يزعم وجود شبه بين حضارتنا الإسلامية وتطورنا التاريخى ورؤية الإسلام لعلاقة الدين بالدنيا ـ دولة وعمرانا ـ. . ولعلاقة الشريعة بالحكمة والفلسفة . . ولعلاقة السماء بالأرض. . ولنطاق عمل الخالق وتدبيره ـ بالشريعة ـ لمختلف شئون الإنسان كخليفة لله فى استعمار الأرض. . إلخ . . . إلخ. . هل يستطيع عاقل أن يزعم وجود شبه بين النسق الفكرى الإسلامى وتطوره الحضارى، وبين هذا الذى حدث فى أوربا ـ «الفعل الكنسى» منه. . و«رد الفعل التنويرى»؟!ـ. . حتى يكون هناك مجال لاستدعاء هذا « التنوير الأوربى» ليكون تنويرا لنا نحن المسلمين؟!. .

---

(١٤) انظر ول ديورانت :[قصة الحضارة]، الطبعة العربية. القاهرة. وكتابنا [إسلامية المعرفة]، طبعة القاهرة، سنة ١٩٩١م. و[دائرة المعارف البريطانية].

لقد جمع الإسلام بين تصور الذات الإلهية الذى ﴿ له الخلق والأمر﴾ [١٥] - أى الخلق والتدبير للخلق كليهما - وبين تصور مكانة الإنسان فى الكون كخليفة لله، سبحانه وتعالى، محكومة خلافته ببنود عقد وعهد الاستخلاف ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة. . ﴾[١٦] . . فكانت وسطيته الجامعة بين الشريعة الإلهية وبين الشورى الإنسانية. . بين عالم الغيب وبين عالم الشهادة . . بين آيات الله فى كتابه المقروء - القرآن - وبين آياته فى كتابه المنظور - الكون - بين الدين وبين الدولة. . بين الدنيا وبين الآخرة . . بين الروح وبين الجسد. . بين الفرد والطبقة والأمة . . بين ملكية الله للرقبة فى الثروات والأموال وبين ملكية الإنسان للمنفعة فى هذه الثروات والأموال. . بين العقل والنقل والوجدان والتجربة، كسبل أربعة للمعرفة والهداية للإنسان. .

ولذلك نجا التطور التاريخى للحضارة الإسلامية من « النزعات المادية والدنيوية فى الفلسفة » نجاته من « النزعات الكهنوتية». . ونجا من «العلمانية» نجاته من « السلطة الدينية وحكومة الفقهاء». . ونجا من «الوضعية اللادينية» نجاته من « اللاعقلانية ». . فكان تاريخنا، على العكس من التاريخ الأوربى: اقترن فيه الازدهار الحضارى بالاحتكام إلى الشريعة الإلهية. . وارتبطت فيه العقلانية الفلسفية بالتوحيد والفقه والكلام. . حتى لقد تحدث القرآن الكريم عن « الحكمة»، التى هى : الإصابة فى غير النبوة - باعتبارها تنزيلا إلهيا ساقها الله سبحانه وتعالى إلى الإنسان سبيلا من سبل هدايته، كالتنزيل الحكيم ﴿ واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شىء عليم﴾[١٧] . . فلم تعرف حضارتنا « الفعل» الكهنوتى الذى جاء « التنوير اللادينى» نفيا له وردا عليه! . .

* * *

---

(١٥) الأعراف : ٥٤ .   (١٦) البقرة : ٣٠ .   (١٧) البقرة: ٢٣١ .

لكن . . ومع التسليم بذلك . . فهل هناك مايمنعنا من استخدام مصطلح « التنوير»؟ . .

إننا لاندعو إلى هذا الامتناع . . لكن شريطة أن نعى تميز وتغاير المضامين والمفاهيم التى يجب أن يحتويها هذا المصطلح ـ «التنوير» ـ عندما نستخدمه فى السياق الثقافى الإسلامى . . فكما تتحد المصطلحات ـ كأوعية ـ فى الأنساق الفكرية والحضارية المختلفة، مع تمايزها وتغايرها فى المضامين والمفاهيم، كذلك يكون الحال مع مصطلح « التنوير» . . فوجود «تنوير غربى »، له السمات الخاصة التى أشرنا إلى أهمها، لايمنع من الحديث عن **«تنوير عربى إسلامى»**، تتحدد مضامينه ومفاهيمه وفقا للمرجعية الحضارية الإسلامية المتميزة عن المرجعية الغربية . .

إن القرآن الكريم يحدثنا عن أن الله، سبحانه وتعالى: «نور » السموات والأرض **﴿ الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لاشرقية ولاغربية يكاد زيتها يضىء ولولم تمسسه نار نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شىء عليم﴾**[18] . .

والقرآن الكريم « نور» **﴿فآمنوا بالله ورسوله والنور الذى أنزلنا﴾**[19] . .

والإسلام « نور » **﴿ الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور﴾**[20] . .

والرسول، ﷺ «نور» **﴿ قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين﴾**[21] . .

والحكمة ـ التى هى « الإصابة فى غير النبوة ـ «نور» . . وفى الحديث الشريف: « . . فإن الله يحيى القلوب بنور الحكمة» [22] . .

---

(١٨) النور : ٣٥ .　(١٩) التغابن : ٨ .　(٢٠) البقرة : ٢٥٧ .
(٢١) المائدة : ١٥ .　(٢٢) رواه الإمام مالك فى [الموطأ] .

والصلاة « نور » . . وفى الحديث الشريف : « الصلاة نور المؤمن »[٢٣] . .

فالمستنير بنور الله والقرآن والإسلام والرسول والحكمة والصلاة ، له « تنويره الإسلامى» الجامع بين مصادر « معرفة تنويرية» متميزة . . فهو « تنوير مؤمن» بالله ورسوله ودينه وكتابه ، وجامع إلى هذه المصادر الإلهية للتنوير الإسلامى المؤمن « نور الحكمة» ـ التى هى الإصابة فى غير النبوة ـ أى الصواب البشرى القائم على العقل الإنسانى والتجربة الإنسانية ، وعلى «البصيرة» التى توقد مصابيحها فى القلب الإنسانى عبادة الحكيم لأحكم الحاكمين ! . .

فنحن ، إذن ، أمام « تنوير إسلامى» متميز . . لتميز الإسلام . . ونسقه الفكرى . . وتطور حضارته . . إنه ثمرة إسلامية خالصة وخاصة . . وليس ، كالتنوير الغربى ، رد فعل ناقد وناقض للدين ! . .

* * *

لكن . . وحتى لا تكون هناك شبهة ظلم منا لإخواننا العلمانيين ، الذين يبشرون فينا « بالتنوير» سبيلا « لمواجهة» المشروع الإسلامى والصحوة الإسلامية . . لنسأل :

أليس محتملا أن « التنوير» الذى يدعون إليه « عربى ـ إسلامى» ، لا ينقض ديننا ـ كما نقض « التنوير الأوربى» نصرانية الكنيسة الأوربية؟ ! . .

وحتى نجيب على هذا السؤال ، لابد لنا من استحضار صورة وعناصر الفرقاء الذين دار ويدور بينهم الجدل والحوار وأحيانا الصراع حول هذا الموضوع . .

● موقف الكنيسة الأوربية ، إبان سلطانها على الدولة وتسلطها على الفكر

(٢٣) رواه مسلم .

والعلم وميادين الاجتماع البشرى كافة . . وهو الموقف الذى جعل النصرانية ـ وفق لاهوت الكنيسة ـ نقيضا، وليس فقط بديلا، « للعقل» و«العلم» و«الفلسفة». . فلقد أقامت نصرانيتها على « الخوارق» لنواميس الكون وقوانين الاجتماع وحقائق العلم. . وجعلت الكهانة والعصمة لرؤساء الدين بابا للنجاة والإفلات من قواعد وضوابط وقوانين العلم والعقل والناس. . ودعت الناس إلى الزهد فى الدنيا، بينما امتلكت كنيستها مع أمراء الإقطاع الأرض والأموال ورقاب العباد. . وقدمت الكتاب المقدس بديلا للعلوم جميعها، بما فيها العلوم الطبيعية والإنسانية .. وبعبارة « تيرتورليان» Terturllianus [١٦٠ ـ ٢٢٠م] : « فإن عقائد المسيحية أسست على الكتب السماوية، ودليل صحة هذه الكتب قِدَمُها . . . **وأساس كل علم هو الكتاب المقدس وتقاليد الكنيسة. وإن الله لم يقصر تعليمنا بالوحى على الهداية إلى الدين فقط، بل علّمنا بالوحى كل ما أراد أن نعلمه من الكون. والكتاب المقدس يحتوى من العرفان على المقدار الذى قُدِّر للبشر أن ينالوه**»[٢٤]! . .

ففى هذا النص، الذى كتبه أفضل من فهم النصرانية الأوربية وأقوى من دافع عنها، **نجد « الدين» بديلا عن « العلم»، و«الوحى» بديلا عن «الكون» ، و«قِدَم» النص بديلا عن «العقل»!!** . . فكل شئون وعلوم المعاش والمعاد، الدنيا والآخرة، قد جمعت فى الكتاب المقدس . . وهى تُؤخذ منه بالتسليم، ودون حاجة إلى مراجعة أو فحص من العقول! . .

أما القديس « أنسلم» Anselme [١٠٣٣ ـ ١١٠٩م] ـ رئيس أساقفة «كنتربرى»، وأحد مؤسسى الفلسفة المدرسية ـ فإنه يؤكد هذا الموقف النصرانى الكنسى . . موقف **«غناء العقيدة واستغنائها، ابتداء، عن العقل والفهم»** . . وذلك عندما يقول : «**يجب أن تعتقد أولا بما يعرض على قلبك**

---

(٢٤) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده]، جـ ٣ ، ص٢٦٣. دراسة وتحقيق : د. محمد عمارة. طبعة بيروت، سنة ١٩٧٢ .

بدون نظر، ثم اجتهد بعد ذلك فى فهم ما اعتقدت. فليس الإيمان ، وهو الوسيلة المفردة إلى النجاة، فى حاجة إلى نظر العقل. والكون وما فيه لايهم المؤمن أن يجيل فيه نظره »[٢٥] !! . .

هذا هو موقف الكنيسة الأوربية، الذى وضعته فى التطبيق، فأدخلت بسببه أوربا عصورها المظلمة. . الدين: نقيض وبديل للعقل والعلم والفلسفة والكون. .

فلما وضعت الكنيسة دعاة النهضة والإحياء أمام هذا الموقف، اختاروا النقيض. . اختاروا العقل والعلم والفلسفة والكون ،بدلا من الدين والله والسماء، بل وجعلوها آلهة التنوير التى أحلوها محل الله والدين واللاهوت! . .

هكذا كان الخيار على جبهة التطور الحضارى فى « النصرانية الغربية» . . وعلى هذا النحو، عرضت « الثنائية»، وتم الاختيار الذى افترقت به السبل بين « أهل الدين» و« أهل التنوير» . .

● فهل هناك وجه شبه بين « الحالة الأوربية» هذه، وبين « الحالة الإسلامية»، حتى يكون هناك مبرر لاستدعاء « التنوير الغربى»، بآلهته المعروفة، بديلا عن الإسلام وإلهه وقرآنه؟؟ . . لننظر. .

إن الإسلام لم يعرف ثنائية التقابل، فضلا عن التناقض، بين « العقل» و«النقل» . . بل هو يقدم «العقل» على «النقل»، تقديم ترتيب لا تقديم تشريف. . ذلك أن سبيل معرفة الله فيه هو العقل. . وبعد الإيمان العقلى بالله، تأتى مرحلة التصديق بالرسل ـ بواسطة الأعلام والمعجزات ـ . . ثم تأتى بعد الإيمان بالرسول مرحلة الإيمان « بالنقل» . . فحجية « النقل» متوقفة على صدق «الرسول» . . وصدق « الرسول» متوقف على وجود « الله»، الذى أرسل الرسول. . ووجود « الله» سبيل الإيمان به « العقل» . . فكأنما الإيمان والدين والإسلام بكامله مؤسس على « العقل» !! . .

---

(٢٥) المصدر السابق. جـ٣، ص ٢٦٢ .

والإسلام لم يعرف المقابلة، فضلا عن التناقض، بين « وحى السماء ونبأ الغيب» وبين «الكون وآياته وعلومه» . . فقرآنه الكريم قد أقام المعرفة على مصدرين: آيات الله فى الكون المنظور . . وآياته فى القرآن المقروء . . وجعل «العقل» و«النقل» .و«التجربة المحسوسة» و«الوجدان القلبى» سبلا أربعة للمعرفة والهداية، تتكامل فى تحصيل معارف وحقائق وعلوم « الوحى» و«الكون» جميعا . .

وهذا القرآن الكريم هو الذى دعا الناس جميعا إلى العقلانية والتعقل فى تسع وأربعين آية من آياته . . ودعا إلى «فقه القلوب» فى مائة واثنين وثلاثين موضعا . . وزكى أولى الألباب ـ العقول، لأن العقل هو لب الإنسان، أى جوهره ـ فى ستة عشر موضعا . . وعبر عن العقل بالنُّهى ـ لأنه يُنْتَهَى إلى ما أمر به ولا يُعْدَى أمره [(٢٦)] ـ فى آيتين . . ودعا إلى التفكر فى آيات الله المتلوة بالقرآن، والمنظورة فى الأنفس والآفاق، فى ثمانية عشر موضعا . . واستنفر الناس أن يفقهوا فى عشرين آية من آياته . . ودعا إلى التدبر فى أربع آيات . . وإلى الاعتبار فى سبع آيات . . وإلى الحكمة فى تسعة عشر موضعا . . فكأنه قدم للعقلانية الإسلامية ـ بالنص والتصريح ـ « ديوانا» يبلغ تعداد آياته فى سوره مائتين وسبعًا وستين آية من آيات هذا القرآن الكريم ! !

وغير المعتزلة ـ فرسان العقلانية الإسلامية ـ نجد السلفى شيخ الإسلام ابن تيمية [٦٦١ ـ ٧٢٨هـ ، ١٢٦٣ ـ ١٣٢٨م] يجعل من عبارة : «درء تعارض صريح المعقول مع صحيح المنقول» عنوانا لأحد كتبه ! ! والغزالى الأشعرى ، حجة الإسلام [٤٥٠ ـ ٥٠٥هـ، ١٠٥٨ ـ ١١١١م] هو الذى جعل العقل « أساسا» والشرع «بناء» ، ولا يصلح بناء لا أساس له . . وجعلهما نورين لا تتأتى المعرفة الحقة إلا إذا اجتمعا ، « فمثال العقل : البصر السليم عن الآفات والآذاء، ومثال القرآن : الشمس المنتشرة الضياء ، فأخلق

---

(٢٦) انظر (لسان العرب) ، لابن منظور.

بأن يكون طالب الاهتداء، المستغنى بأحدهما عن الآخر، فى غمار الأغبياء. فالمعرض عن العقل مكتفيا بنور القرآن، مثاله: المتعرض لنور الشمس مغمضا للأجفان، فلا فرق بينه وبين العميان. فالعقل مع الشرع نور على نور»[٢٧]!! . . .

والإمام محمد عبده، المجدد [١٢٦٥ - ١٣٢٣هـ، ١٨٤٩ - ١٩٠٥م] هو القائل عن أصول الإسلام: «إن أول أساس وضع عليه الإسلام هو النظر العقلى. والنظر عنده - [عند الإسلام] - هو وسيلة الإيمان الصحيح، فقد أقامك منه على سبيل الحجة، وقاضاك إلى العقل. ومن قاضاك إلى حاكم، فقد أذعن إلى سلطته، فكيف يمكنه بعد ذلك أن يجور أو يثور عليه؟!.. ولقد اتفق أهل الملة الإسلامية - إلا قليلا ممن لا ينظر إليه - على أنه إذا تعارض العقل والنقل أخذ بما دل عليه العقل. وبقى فى النقل طريقان: طريق التسليم بصحة المنقول، مع الاعتراف بالعجز عن فهمه، وتفويض الأمر إلى الله فى علمه. والطريق الثانية: تأويل النقل، مع المحافظة على قوانين اللغة، حتى يتفق معناه مع ما أثبته العقل. وبهذا الأصل، الذى قام على الكتاب وصحيح السنة وعمل النبى ﷺ، مُهِّدَت بين يدى العقل كل سبيل، وأزيلت من سبيله جميع العقبات، واتسع له المجال إلى غير حد..»[٢٨].

وعن جعل الإسلام الاعتبار بسنن الله فى الكون أصلا من أصول الإسلام، يسوق آيات القرآن الكريم. ﴿قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾[٢٩]. ﴿سنةَ مَن قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلا﴾[٣٠]. ﴿فهل ينظرون إلا سنة الأولين فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا﴾[٣١]. ﴿أولم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم﴾؟[٣٢].. ثم يقول: «فى هذا

---

(٢٧) [الاقتصاد فى الاعتقاد] ص ٢، ٣. طبعة القاهرة، المكتبة المحمودية التجارية - محمود على صبيح - بدون تاريخ.

(٢٨) [الأعمال الكاملة]، جـ٣، ص ٢٨٢. (٢٩) آل عمران: ١٣٧.

(٣٠) الإسراء: ٧٧. (٣١) فاطر: ٤٣. (٣٢) الروم: ٩.

يصرح الكتاب أن لله فى الأمم والأكوان سننا لاتتبدل ، والسنن : الطرائق الثابتة التى تجرى عليها الشئون، وعلى حسبها تكون الآثار، وهى التى تسمى شرائع أو نواميس، ويعبر عنها بالقوانين . . إن نظام الجمعية البشرية ، ومايحدث فيها هو نظام واحد لا يتغير ولايتبدل ، وعلى من يطلب السعادة فى هذا الاجتماع أن ينظر فى أصول هذا النظام حتى يرد إليها أعماله ، ويبنى عليها سيرته وما يأخذ به نفسه . فإن غفل عن ذلك غافل ، فلا ينتظر إلا الشقاء ، وإن ارتفع إلى الصالحين نسبه ، أو اتصل بالمقربين سببه . فمهما بحث الناظر وفكر، وكشف وقرر ، أتى بأحكام تلك السنن ، فهو يجرى مع طبيعة الدين ، وطبيعة الدين لا تتجافى عنه ، ولا تنفر منه . . »[٣٣] .

والإمام حسن البنا [١٣٢٤ ـ ١٣٦٨هـ ، ١٩٠٦ ـ ١٩٤٩م] ، الذى انتقل باليقظة الإسلامية من إطار « الصفوة» إلى « الجماهير» ، هو القائل : «قد يتناول كل من النظر الشرعى والنظر العقلى ما لا يدخل فى دائرة الآخر، **ولكنهما لن يختلفا فى القطعى ، فلن تصطدم حقيقة علمية بقاعدة شرعية ثابتة** ، ويؤول الظنى منهما ليتفق مع القطعى ، فإن كانا ظنيين فالنظر الشرعى أولى بالاتباع حتى يثبت العقلى أو ينهار. . . والإسلام لم يحجر على الأفكار ولم يحبس العقول . . بل جاء **يحرر العقل ، ويحث على النظر فى الكون** ، ويرفع قدر العلم والعلماء ، ويرحب بالصالح النافع من كل شىء ، «والحكمة ضالة المؤمن أنَّى وجدها فهو أحق الناس بها» [٣٤] . . وإذا كان العقل البشرى قد تذبذب بين :

١ ـ طور الخرافة والبساطة والتسليم المطلق للغيب . .

٢ ـ وطور الجمود والمادية والتنكر لهذا الغيب المجهول . .

فإن هذين اللونين من ألوان التفكير خطأ صريح ، وغلو فاحش ، وجهالة من الإنسان بما يحيط بالإنسان . فلقد جاء الإسلام الحنيف يفصل

---

(٣٣) [الأعمال الكاملة] ، جـ ٣ ، ص ٢٨٣ ـ ٢٨٤ .

(٣٤) حديث نبوى ، رواه الترمذى وابن ماجه .

القضية فصلا حقا . . **فجمع بين الإيمان بالغيب والانتفاع بالعقل . . إن المجتمع الإنسانى لن يصلحه إلا اعتقاد روحى يبعث فى النفوس مراقبة الله . . فى الوقت الذى يجب على الناس فيه أن يطلقوا لعقولهم العنان لتعلم** وتعرف وتخترع وتكتشف وتسخر هذه المادة الصماء، وتنتفع بما فى الوجود من خيرات وميزات . . **فإلى هذا اللون من التفكير، الذى يجمع بين العقليتين: الغيبية والعلمية، ندعو الناس . .**»[٣٥] !

ذلك هو الموقف على الجبهة الإسلامية . . موقف الإسلام من « العلم» و«العقل» و«الفلسفة» . . وهو الذى جعل « النظر» و«التفكر» و«التدبر» و«التعقل» و«الاعتبار» : أولى الفرائض الإلهية على الإنسان . . ولهذا الموقف، المغاير تماما ـ بل والمناقض ـ لموقف النصرانية الغربية، كان للمسلمين «تنوير إسلامى» ،عبد أعلامه الله ، سبحانه وتعالى، وآمنوا برسوله، ﷺ، وانطلقوا، مسلحين بالعقل والعلم والحكمة ينظرون فى آيات الله المتلوة، فى كتابه المقروء، وفى آياته المنظورة، فى الأنفس والكون والآفاق . .

فهل إلى هذا «التنوير الإسلامى» يدعونا إخواننا الذين جعلوا من «التنوير» شعارا «للمواجهة» مع المشروع الإسلامى؟! . .

أم أنهم ، لإلمامهم بمذاهب الغرب، وحسن ظنهم بها، ولضعف مداركهم بالعلم القومى والتراث الإسلامى ، وسوء ظنهم بهما ـ جهلا أو تأثرا بكتابات الخصوم ـ . . أم أنهم، لهذه الأسباب ـ وماشابهها ـ قد حسبوا إسلامنا هو « النصرانية الغربية»، فرأوه « المشكلة» التى لا حل لها إلا باستدعاء «التنوير الغربى» كى «يواجهها»؟! . .

فى الإجابة عن هذا السؤال . . عن طبيعة ونسب « التنوير العلمانى» الذى يقرع أسماعنا هذه الأيام، لا نريد أن نظلم أحدا، ولا أن نبخس الناس أشياءهم . . ولذلك، فنحن نحتكم إلى نصوصهم هم . . نصوص الأساتذة الرواد، ونصوص التلامذة المقلدين، لنرى أى «تنوير» هذا الذى يدعوننا إليه؟! . .

---

(٣٥)[مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا]، ص ٢٧١، ٢٩٤، ٢٧٠، ١١٠ ـ ١١٢. طبعة القاهرة ـ دار الشهاب . بدون تاريخ .

التنوير العلمانى: فى جيل "الرّوّاد"

لن يكون استخدام المفكر لمصطلح « التنوير» ـ قبولا أو رفضا ـ ولا رفعه لشعاره ـ محبذا له أو مفندا إياه ـ هو معيار تصنيفنا لهذا المفكر من حيث الموقف من هذا التنوير. . فالمصطلح ـ كما سبق وأشرنا ـ تختلف مضامينه، وإن اتحد لفظه، باختلاف الحضارات. . . وإنما سيكون معيار الحكم على هذا المفكر أو ذاك بأنه من دعاة « التنوير»، بالمعنى الغربى، أو من دعاة «التجديد» ، الذى يمكن تسميته « تنويرا عربيا إسلاميا». سيكون المعيار هو موقف المفكر من المضامين والمفاهيم والمقاصد التى تغياها فلاسفة التنوير الغربى، والتيار الفكرى الذى تبلور وساد فى النهضة الغربية منذ القرن الثامن عشر الميلادى. . وهى المضامين والمقاصد التى طبعت التنوير الغربى بالعلمانية، التى أصبحت أهم مايفرق بين تلك الحضارة وحضارة الإسلام. .

وهذه المفاهيم « التنويرية العلمانية» ، التى ميزت « التنوير الغربى» ، يأتى فى مقدمتها :

١ ـ نزع القداسة عن المقدسات الدينية. . ومنها الوحى والكتب المقدسة. . وإخضاعها فى الدرس لمعايير دراسة النصوص البشرية الخالصة فى بشريتها. .

٢ ـ النظر إلى الدين باعتباره شأنا فرديا خاصا، قد يفيد فى تقويم الأخلاق الفردية. . مع عزله عن كل ميادين العمران الاجتماعى، سواء فى

المعارف والعلوم أو فى التطبيقات المدنية والثقافية لهذه المعارف والعلوم . . وجعل المرجعية فى شئون العمران البشرى للواقع والدنيا، التى تدرك نواميسها وتعرف حقائقها وعلومها ببراهين العقل وتجارب الحواس وحدهما . .

٣ ـ النظرة التاريخية إلى الدين . . أى اعتبار علاقته بالعلم، وتوافقه معه، مرحلة تجاوزها التاريخ . . ومن ثم رفض تعايش العلم والدين تعايش وحدة وتآزر ـ وليس تعايش مجاورة وانفصال ـ . . أى رؤية الإسلام وكأنه نصرانية الغرب، التى تدع ما لقيصر لقيصر وما لله لله . . والتى ناقضت العلم وخاضت ضده المعارك الشرسة. . مع معاملة القرآن كما عامل فلاسفة التنوير الغربيون كتابى النصرانية واليهودية: العهد الجديد . . والعهد القديم . .

٤ ـ وتأسيسا على هذه المقولات، التى تجعل الإسلام نصرانية غربية . . وتجعل تطورنا الحضارى هو ذات التطور الحضارى الغربى. . يدعو «التنويريون العلمانيون» العربَ والمسلمين إلى تبنى نموذج الغرب فى التقدم والنهضة والإحياء . . فطالما كانت « مشكلات التخلف» واحدة، أو متشابهة، فلابد وأن تتوحد الحلول . . حلول النهضة بيننا وبين الغربيين . . وتحت هذه الدعوى، أنكر وينكر « التنويريون العلمانيون» « التعددية فى الحضارات الإنسانية»، وغضوا من شأن «الخصوصيات الحضارية» التى ميزت وتميز بين « الهويات» الحضارية المختلفة . . ووقفوا عند التمايز فى درجات سلم التحضر، داعين العرب والمسلمين إلى « اللحاق» بالغرب، بذات الآليات والوسائط، لتحقيق ذات المقاصد ونفس الغايات . .

تلك هى أبرز مضامين « التنوير العلمانى»، كما بشر بها دعاته ومفكروه فى بلادنا . . وتلك هى مقولات رواده، التى لايزال تلامذتهم متعلقين بها حتى الآن . . وبها سيكون تمييزنا بين أنصارها وخصومها، فرزا للأوراق،

وتمييزا للصدق عن الكذب، وللتجديد الإسلامى عن التغريب العلمانى فى هذا الميدان! . .

وإذا كانت حياتنا الفكرية، فى المائة عام الماضية، قد شهدت ـ وخاصة فى عقود الانبهار بالحضارة الغربية ـ العديد من رواد الفكر والثقافة الذين بشروا فى أمتنا بهذا «التنوير ـ الغربى ـ العلمانى»، محاولين بذر بذوره فى أرضنا الفكرية، وغرس مقولاته فى عقول الأمة. . فإننا سنختار ـ تجنبا للإطالة ـ ثلاثة من جيل هؤلاء الرواد. . اتفقوا فى المقولات والمقاصد. . وتمايزوا فى النوايا والأسلوب. . سنختار نموذج « علمنة الإسلام» ـ كما تمثل فى كتاب [الإسلام وأصول الحكم]، للشيخ على عبد الرازق [١٣٠٥ ـ ١٣٨٦هـ ، ١٨٨٧ ـ ١٩٦٦م] ـ مع عرض للجدل الدائر حول المؤلف الحقيقى لهذا الكتاب. . وهل هو على عبد الرازق؟ أم الدكتور طه حسين [١٣٠٦ ـ ١٣٩٣هـ ، ١٨٨٩ ـ ١٩٧٣م]؟ . . ونموذج سلامة موسى [١٣٠٥ ـ١٣٧٧هـ، ١٨٨٨ ـ١٩٥٨م]. . ونموذج الدكتور طه حسين. .

لنعرض لهذه المقولات « التنويرية ـ الغربية ـ العلمانية» فى المشروع الفكرى لكل منهم. . وذلك تمهيدا لسبر غور دعوة « تلاميذ» هؤلاء « الرواد»، من الذين يستدعون هذا « التنوير ـ العلمانى» لمواجهة المشروع الإسلامى، وذلك حتى نتبين حقيقة دعوة هؤلاء « التلاميذ». . وهل هى « مواجهة للإسلام» ومشروعه النهضوى الحضارى المتميز، كما كان الحال مع روادهم «التنويريين ـ المتغربين ـ العلمانيين»؟ . . أم أنهم دعاة مواجهة للجانب المتخلف والجامد والمظلم من الطرح الفكرى الذى يقدمه فصيل أو أكثر من الرافعين لرايات وشعارات الإسلام؟ . .

فسبر الغور لحقيقة « تنوير» التلاميذ، سيحدد مكان دعوتهم ، وحقيقة روادهم وأساتذتهم، ومن ثم ماهية مرجعيتهم الحقيقية فى الدعوة إلى «التنوير»: هل هى المرجعية الغربية، التى جاءتهم عبر أعلام، مثل طه

حسين وسلامة موسى؟! . . أم هى المرجعية الإسلامية، التى جاءت عبر رفاعة الطهطاوى [١٢١٦ ـ ١٢٩٠هـ، ١٨٠١ ـ ١٨٧٣م]، وجمال الدين الأفغانى [١٢٥٤ ـ ١٣١٤هـ، ١٨٣٨ ـ ١٨٩٧م]، والإمام محمد عبده [١٢٦٥ ـ ١٣٢٣هـ، ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥م]؟ ذلك أن هؤلاء التلاميذ قد وضعوا ـ فى خضم « حملتهم التنويرية » ـ كل هذه الأسماء فى « سلة واحدة »، الأمر الذى جعل « تنويرهم » ـ كما ستثبت صفحات هذه الدراسة ـ «تزويرا» لاعلاقة له بما نفهمه نحن العرب والمسلمين من مصطلح « التنوير » !! . .

١ ـ علمنة الإسلام .. والعمران

فى سنة ١٩٢٣م، عقدت معاهدة « لوزان» بين تركيا والحلفاء الغربيين ـ حلفاء الحرب الاستعمارية العالمية الأولى ـ واليونان . . وهى المعاهدة التى قننت وضع تركيا ـ ما لها وما عليها ـ بعد هزيمتها فى الحرب العالمية الأولى . . وكانت « تسوية» أوضاع ولايات الدولة العثمانية قد تمت باتفاقية « سيكس ـ بيكو» سنة ١٩١٦م، و«وعد بلفور» سنة ١٩١٧م. . فسقطت كل أقاليم دولة الخلافة الإسلامية فى قبضة الاستعمار الغربى. . وجاءت معاهدة «لوزان» لتحدد وضع « تركيا» ، بعد توزيع أقاليم خلافة العثمانيين . .

وإذا كانت « العبرة» فى المعاهدات كثيرا ماتتجاوز « المنصوص عليه» فيها إلى « الخطوط الحمراء» التى لا توضع عادة فى «مواد النصوص» ، فإن العام التالى لتوقيع المعاهدة ـ سنة ١٩٢٤م ـ قد شهد إلغاء الخلافة ، وطى صفحة الوعاء التوحيدى ورمز الجامعة الإسلامية ، لأول مرة فى تاريخ الإسلام والمسلمين! . . والأمر الذى لا شك فيه أن هذا الحدث قد حقق حلما غربيا سعى إليه الغرب منذ عهد هرقل [٦١٠ ـ٦٤١م] وأبى بكر الصديق ! ! . .

صحيح أن الخلافة كانت قد تهرأت ، حتى غدت « وعاء» بلا مضمون فاعل ، و«رمزا» لا يحقق « فعلا» فى أرض الواقع . . لكن الغرب ، الذى حرس ضعفها ، وزاد فى أمراضها ، لم يكن ليرضى ـ بعد انتصاره فى الحرب العالمية الأولى ـ بأقل من تحطيم « الوعاء» وإزالة «الرمز» ، حتى لا يبقى للمسلمين أمل فى ترميم الوعاء وملئه بالمضامين الفاعلة ، فيتحول « الرمز» إلى

راية جامعة للأمة فى صراعها الحضارى والتاريخى مع الغرب من جديد!! . .

لقد حقق الغرب، على أرض « الواقع العملى» هذا «الحلم التاريخى» . . وكان لا بد من « تبرير الواقع بالفكر»، واستبدال « علمانية الدولة» بـ «إسلاميتها»، وخلق وفاق بين الثقافة الإسلامية « العصرية» وبين «الدول القطرية العلمانية » التى أقامها الاستعمار على أنقاض الخلافة التى عَرَّفها علماء الإسلام، على مر تاريخهم، بأنها السلطة والدولة الجامعة بين سياسة الدنيا وحراسة الدين، والتى تسوس الدولة بالسياسة الشرعية. . كان مطلوبا - بعد إلغاء الخلافة سنة ١٩٢٤م - فك الارتباط بين « الحكومة» و«الشريعة» . . بين «الدولة» و «الدين» . . طالما أن أحدا لم ولن يستطيع - فى الواقع الإسلامى - إلغاء «الشريعة . . والدين»!! . . كان مطلوبا استدعاء «التنوير - الغربى - العلمانى» لعزل دين الإسلام عن دنيا المسلمين، وجعله شأنا عقديا وشعائريا خاصا بين الفرد وخالقه، وإنهاء مرجعيته لنظامات العمران البشرى، وجعل المرجعية فى النظامات العمرانية - سياسة واجتماعا واقتصادا وعلوما ومناهج بحث . . إلخ . . إلخ . . - فقط « للعقل . . والتجريب»، دون إشراك « للنقل والوحى ونبأ الغيب وأحكام السماء» مع العقل والتجريب فى مرجعية الحياة الدنيا . . وباختصار، كان مطلوبا استدعاء «التنوير - الغربى - العلمانى» إلى الواقع الفكرى الإسلامى، ليصنع مع الإسلام ماصنعه - فى أوربا - مع النصرانية الأوربية، عندما ردها إلى الكنيسة، واحتبسها فيها، و«حرر» العمران والنهضة من المرجعية الدينية!! . .

ولقد كان كتاب الشيخ على عبد الرازق [١٣٠٥ - ١٣٨٦هـ، ١٨٨٧ - ١٩٦٦م] [الإسلام وأصول الحكم] التجسيد لهذا الموقف الفكرى «التنويرى - الغربى - العلمانى» ، غير المسبوق فى فكر المسلمين وتاريخهم الطويل! . .

ففى هذا الكتاب ، الذى صدر سنة ١٩٢٥م - فى العام التالى لإلغاء

الخلافة ـ صور الرجل الإسلام نصرانية، يدع ما لقيصر لقيصر وما لله . . وتصوره دينا لا دولة، ورسالة دينية وروحية خالصة ومبرأة من معانى الملك والسياسة والحكم . . حتى لقد جعل محور كتابه ذلك الباب الذى جعل عنوانه: «**رسالة لا حكم، ودين لا دولة**»! . .

وتصور الخلافة الإسلامية، منذ نشأتها، «كهانة ـ استبدادية»، حتى لكأنها الدولة البابوية الأوربية، التى حكمت بالحق والتفويض الإلهيين! . .

وأنكر أن يكون رسول الإسلام، ﷺ، قد أقام دولة أو أنشأ حكومة، أو ساس مجتمعا، أو طبق شريعة فى أمة . . فتصوره مجرد مبلغ، كالخالين من الرسل! . .

وبعد أن وضع إسلامنا وخلافتنا وتاريخنا فى قوالب الغرب النصرانى ودولته البابوية . . فنقل « المشكلة الغربية» إلى « واقعنا» ـ كما تصوره ـ . . تقدم « بالحل الغربى» ـ الحل « التنوير ـ العلمانى» ، باعتباره الحل الطبيعى لواقع المسلمين . . فطالما أن « المشكلة» واحدة، فلم لا يكون «الحل» واحدا؟ . . وهو «التنوير ـ الغربى ـ العلمانى»، الذى يرد الإسلام إلى إطار العلاقة الفردية الخاصة بين الإنسان وخالقه، والذى يعزله عن كل ميادين العمران البشرى، التى جعل مرجعيتها ـ كما صنع التنويريون الغربيون ـ «للعقل والتجريب» وحدهما ، دون « نقل أو وحى أو شريعة أو دين» . . !

تلك كانت محاور هذا الكتاب، ورسالته . . من أول فقرة فيه إلى آخر ما فى صفحاته من فقرات[1]!

● فلا دخل للمرجعية الإسلامية فى تحديد سياسة الحكومة وطبيعتها وهويتها . . وإنما المرجعية للعقل والتجريب . « فى أى صورة كانت الحكومة، ومن أى نوع، مطلقة أو مقيدة، فردية أو جمهورية، استبدادية أو

---

(١) انظر [الإسلام وأصول الحكم] ، الفقرة (١٢)، ص ١٠٣ . الطبعة الأولى، سنة ١٩٢٥م .

شورية، ديمقراطية أو اشتراكية أو بلشفية . . »[٢] . . فكل المرجعيات غير الإسلامية واردة . . والمرجعية الوحيدة المرفوضة هى المرجعية الإسلامية . . وكل الحكومات مقبولة ـ بالعقل والتجريب ـ إلا الحكومة الإسلامية ، لأن الإسلام مستبعد من مرجعية الحكم وشئون الدنيا وتنظيم العمران البشرى ! ! . .

● وانطلاقا من هذه الدعوى المحورية . . مضى الشيخ على عبد الرازق ـ كما صنع «التنويريون ـ الغربيون» مع « اللاهوت ـ النصرانى» ـ فأدان فكر علماء الإسلام القائل بوجوب «الخلافة والإمامة» وجوبا دينيا . . وصور فكرهم وكأنه « لاهوت الحكم بالحق الإلهى» . . وزعم «أن الخليفة عندهم يقوم فى منصبه مقام الرسول، ﷺ . . وينزل من أمته بمنزلة الرسول من المؤمنين . . فولايته كولاية الله تعالى وولاية رسوله الكريم . . بل لقد رفعوه فوق صف البشر، ووضعوه غير بعيد من مقام العزة الإلهية»[٣] ! ! . .

هكذا صور الخلافة الإسلامية «بابوية ـ نصرانية» لها عصمة إلهية، تتحدث باسم السماء، وتجلس غير بعيد من مقام العزة الإلهية ! . . ليخلص إلى القول بأن هذه الخلافة ـ على مر تاريخها، وحتى فى عهدها الراشد ـ «لم ترتكز إلا على أساس القوة الرهيبة» ! ![٤].

● وفى الباب الذى عقده الشيخ تحت عنوان « رسالة لا حكم ، ودين لا دولة» . . صور رسول الإسلام ، ﷺ ، مجرد مُبَلِّغ لرسالة روحية ، لا علاقة لها بالسياسية . . ولا علاقة له بالحكم والدولة . . فمحمد ﷺ « ما كان إلا رسولا لدعوة دينية خالصة للدين ، لا تشوبها نزعة ملك ولا حكومة . . ولم

---

(٢) المصدر السابق . ص ٣٥ . (٣) المصدر السابق . ص ٢ ـ ٨ .

(٤) المصدر السابق . ص ٢٥ .

يقم بتأسيس مملكة ، بالمعنى الذى يفهم سياسة من هذه الكلمة ومرادفاتها . ما كـان إلا رسولا كإخـوانه الخالين من الـرسل ، ومـا كان ملكا ولا مـؤسس دولة ، ولا داعيا إلى ملك» !

وعن علاقـة الإسلام بالسياسة ، تصوره نصرانيـة ، يدع ما لقيصر لقيصر وما لله لله . . ورفع شعارا قال فيه : « يا بعد ما بين السياسة والدين» ! ! . .

● وبعد أن أنكـر إقامـة الرسـول ، ﷺ ، لدولـة أو حكومـة ، وسياستـه لمجتمع وأمة ، وإقامتـه لنظام وحكم . . ذهب فأتى بـآيات القرآن الواردة فى «الاعتقاد الدينى القلبى» ـ أى الإيمان القلبـى ـ وهى الآيـات التى ألحت على أنه لا إكراه فى الدين . . وعلى أن الرسول مـا عليه إلا البلاغ . . فليس بوكيل ولا مسيطر ولاحفيظ : ﴿ لست عليكم بوكيل﴾[5]. ﴿ فما أرسلناك عليهم حفيظا إن عليـك إلا البلاغ﴾[6] . ﴿ لست عليهـم بمسيطر﴾[7] . . أتى بهذه الآيات ليستدل بها على عدم وجود سلطة إسلامية فى الدولة والسياسة ، متجاهـلا آيات « الحكـم» . . ومتجاهـلا وجود « الشريعـة» ـ مـع العقيدة ـ والتى يقتضى تشريعها وجوب سلطـة تقيمها ، وإلا كان تشريعها عبثا ! ! . . ومتجاهـلا واقع إقـامة الـرسول لهذه الشريعة قـانونـا للدولـة والأمة والـرعية والمجتمع الـذى قام فى المدينـة بعد الهجرة . . متجـاهلا الـواقع الـذى تلقته الدنيا ــ مسلمة وغير مسلمة ـ بـالتصديق والقبول . . والفكـر الذى أجمعت عليه الدنيا ــ مسلمة وغير مسلمة ـ من أن الإسلام ديـن ودولة . . وأن رسوله قد تميز عن الخالين من الرسل بإقامته للدولة ! ! . .

تجاهل الكتـاب كل ذلك ــ ولا نقول جهله ــ ! ! وقال فى «ثقة» غـريبة ، و«ادعاء» أكثر غرابة : « ظواهر القرآن المجيـد تؤيد القول بأن النبى لم يكن له شأن فى الملـك السياسى ، وآياتـه متضافرة على أن عملـه السماوى لم يتجاوز

---

(٥) الأنعام : ٦٦ . (٦) الشورى : ٤٨ . (٧) الغاشية : ٢٢ .

حدود البلاغ المجرد من كل معانى السلطان . . لم يكن إلا رسولا قد خلت من قبله الرسل . . ولم يكن من عمله شىء غير إبلاغ رسالة الله تعالى إلى الناس . . وليس عليه أن يأخذ الناس بما جاءهم به ، ولا أن يحملهم عليه . . كانت ولاية محمد على المؤمنين ولاية الرسالة غير مشوبة بشىء من الحكم . هيهات هيهات ، لم يكن ثمة حكومة ، ولا دولة ، ولاشىء من نزعات السياسة ولا أغراض الملوك والأمراء»[٨]!! . .

● ولقد ذهب صاحب [الإسلام وأصول الحكم] إلى الواقع التاريخى ، الذى صنعه الإسلام فى أرض الواقع ، على عهد رسول الله ﷺ . . واقع «الوحدة» التى أقامها الإسلام ورسوله . . فعاند هذا الواقع ، وأنكر حقائقه الصلبة والعنيدة ، وادعى عليه نقيضه وضده . .

فالإسلام قد أقام دولته التى **«توحدت رعيتها السياسية»** ، و«تعددت دياناتها» ، عندما ضمت : « الجماعة ــ الأمة ـ المسلمة» و«الجماعة ـ الأمة ـ العربية المتهودة» ، ضمتها فى «جماعة ــ أمة ــ سياسية واحدة» ، فأنجز الإسلام وحدة الدولة ، ووحدة أمة الدولة ، مع الاحتفاظ بالتعددية فى الجماعات الدينية داخل الرعية السياسية الواحدة ، فجمع بذلك بين «الوحدة» و«التعدد» على النحو الأرقى الذى تصبو إليه الدول الراقية حتى فى هذا العصر الذى نعيش فيه . .

وسجل هذه الحقيقة « الدستور الواحد» لـ « الدولة الواحدة . . والأمة الواحدة» ــ وهو الذى اشتهر فى وثائق عصر النبوة بـ « الصحيفة» . . و«الكتاب» . . فجاء فى « مواده» :

«المؤمنون والمسلمون من قريش وأهل يثرب ، ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم أمة واحدة من دون الناس» .

---

(٨) [الإسلام وأصول الحكم] ، ص ٦٤ ـ ٨٠ .

« وأن يهود أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم » .

فسجل هذا « الدستور » ، بهاتين المادتين «وحدة الأمة ـ كرعية سياسية واحدة ـ للدولة الإسلامية الواحدة» . . مع احتفاظ الجماعات الدينية المتميزة بدياناتها المختلفة . .

ثم تحدث هذا « الدستور » ـ ضمن حديثه عن الحقوق والواجبات بالنسبة لقبائل وطوائف الرعية ـ عن التمايز فى إطار الوحدة بين اليهود والمسلمين ، فنصت مواده على :

« وأن يهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين . وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم . وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه «الصحيفة» . وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم » .

ثم نص الدستور على وحدة الدولة والسلطة والمرجعية لهذه الرعية الواحدة ، فقال :

«وأنه ما كان بين أهل هذه « الصحيفة» من حدث ، أو اشتجار يخاف فساده ، فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله . . »[٩] .

ذلك هو الدستور ، الذى جسد وحدة الأمة ، وقيام الدولة ، وتحدثت مواده عن : حدود الوطن . . والرعية . . والحقوق والواجبات . . والمرجعية . . بل وطبيعة السلطة فى الدولة . . فكون « المرد» و«المرجع » هو الله ورسوله ، يعنى إسلامية الدولة ، مع تعدد الديانات فى رعيتها ، وذلك إعمالا للنص القرآنى المحكم : ﴿ يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا﴾[١٠] .

---

(٩) [مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة] ، ص ١٥ ـ ٢١ . جمع وتحقيق : د . محمد حميد الله الحيدر آبادى ـ طبعة القاهرة ، سنة ١٩٥٦م .

(١٠) النساء : ٥٩ .

ذلك هو واقع التاريخ ، الذى سجلت « وثائقه » ـ وليست آراء مؤرخيه ! ! ـ قيام « الدولة الواحدة » ، وتبلور « الأمة الواحدة » . .

لكن صاحب [الإسلام وأصول الحكم] يقفز على حقائق هذا الواقع التاريخى ، ليدعى أن الإسلام أقام « أمة دينية » و« وحدة دينية » ، لكنه لم يقم « دولة » ولا « أمة سياسية » . فلقد ظل العرب « **أمما شتى ، ودولا متباينة** » ، من حيث السياسة والحكم والقانون والإدارة والسلطان ! . . فيقول : إن « تلك الوحدة العربية التى وجدت زمن النبى عليه السلام لم تكن وحدة سياسية بأى وجه من الوجوه ، ولا كان فيها معنى من معانى الدولة والحكومة ، بل لم تَعْدُ أبدا أن تكون وحدة دينية خالصة من شوائب السياسة ؛ وحدة الإيمان والمذهب الدينى ، لا وحدة الدولة ومذاهب الملك . يدلك على هذا سيرة النبى ، ﷺ . **فما عرفنا أنه تعرض لشىء من سياسة تلك الأمم الشتيتة ، ولا غير شيئا من أساليب الحكم عندهم ، ولا مما كان لكل قبيلة منهم من نظام إدارى أو قضائى . . ولا سمعنا أنه عزل واليا ، ولا عين قاضيا** . . إنهم كانوا دولا شتى ، على قدر ما تسمح به حياة العرب ، يومئذ من معنى الدولة والحكومة . تلك حال العرب يوم لحق عليه السلام بالرفيق الأعلى . **وحدة دينية عامة من تحتها دول تامة التباين إلا قليلا** . . »[11] .

وإذا كنا قد أشرنا إلى بعض مواد الدستور ـ الكتاب . . الصحيفة ـ الذى وضعه الرسول ، ﷺ ، ليحدد حدود الوطن ، وقبائل الرعية ، ودياناتها ، وحقوقها وواجباتها ، فى السلم والحرب ، وليحدد لها المرجعية والسلطة ، وطبيعتها . . وهو الدستور الذى بدأ بعبارة : « هذا كتاب من محمد النبى ، بين المؤمنين والمسلمين من قريش وأهل يثرب ، ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم . » . . أى أنه « **تعاقد دستورى** » ، بكل ما لهذه الكلمة من معنى ، حتى فى عصرنا الراهن ! ! . . فإننا أمام هذه الدعوى العريضة ،

---

(١١) [الإسلام وأصول الحكم] ، ص ٨٣ ـ ٨٥ .

لصاحب [الإسلام وأصول الحكم] ندعو، مرة أخرى، إلى الاحتكام إلى واقع ووقائع التاريخ . . والتاريخ الذى بقيت لنا « وثائقه» ـ من المعاهدات . . والمكاتبات ـ وليس إلى « آراء» المؤرخين ! . .

فصاحب [الإسلام وأصول الحكم] يستدل على غيبة الدولة الإسلامية بدعواه أن الرسول لم يعين قضاة، ولا ولاة على هذه الدولة وأقاليمها[١٢] . .

وفى أمر القضاء والقضاة، نستلفت النظر إلى أنه هو ــ الشيخ على عبدالرازق ــ قد سبق وأورد النصوص التى تقول إن الرسول، ﷺ «قد قلد القضاء لعمر بن الخطاب، وعلى بن أبى طالب، ومعاذ بن جبل» . . ولقد أضاف هو إلى هذه الأسماء، الواردة فى النص الذى أتى به، اسم أبى موسى الأشعرى . . وذلك فضلا عن جلوس الرسول، ﷺ، للقضاء بين الناس[١٣] . .

فهو الذى قد سبق ونقض دعواه : أن الرسول لم يعين قاضيا ! ! . .

أما تعيين الولاة على الأقاليم والنواحى والقبائل . . أو إقرارهم بعد إسلامهم . . أو استبدالهم إذا حدث ما يدعو إلى الاستبدال . . . فإنها صفحة من صفحات واقع « الدولة الإسلامية»، على عهد رسول الله ، ﷺ، سجلتها «الوثائق» و«المكاتبات» و«العهود» ــ التى نجت من عوادى الزمن ـ تحتاج وحدها إلى دراسة متخصصة، ترسم خارطة للبلاد والنواحى والقبائل التى دخلت فى الإسلام على عهد النبى، وتضع فيها وعليها أسماء الولاة الذين عينهم أو أقرهم الرسول القائد . . وأنا على يقين من أن هذه الخارطة الإدارية والسياسية وحدها كافية فى البرهنة على قيام أمة الإسلام ودولة الإسلام، واحدة موحدة منذ ذلك التاريخ . .

---

(١٢) المرجع السابق . ص ٨٤ .

(١٣) المرجع السابق . ص ٤٠ .

إن هـذه الصفحة، التـى سجلتهـا «الوثـائق»، كما قلنـا، فى حاجـة إلى دراسة متخصصة. . لكننا هنا سنقف عند معالم شاهدة على أن رسول الله، ﷺ، من موقع القائد الحاكم، فى المدينة، قد عين الولاة على المدن والأقاليم والنواحـى والقبائل، فى طول البلاد التـى بلغها الإسلام وعرضهـا. . وليس فقط الولاة الذين شاعت ولايتهم فى كتب التاريخ ـ «عَتّاب بن أُسيد بن أبى العيص بـن أمية بـن عبد شمـس» ـ على مكة سنـة ٨ هــ ـ وهو الـذى أقره أبوبكر على ولايته بعد وفاة الرسـول، ﷺ ـ . . و«باذان» ـ على اليمن ـ وابنه بعد وفاته [١٤].

ففى [**مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة**] **أكثر من مائة وثمانين «كتابـا» و«عهدا» و«معاهدة» كتبهـا رسول الله، ﷺ، إلى الولاة فى أقاليم الدولـة وأنحائها ومضارب خيام قبائلهـا. . وفى هذه «المكاتبات» أسماء لعشرات الولاة، الذين عينهم النبى على البـلاد والنواحى والقبائل، بل وحـدد لهم حـدود الـولايـة، والميـاه، والـزرع، والأرض، والقـوانين المنظمـة للمعامـلات الدنيـوية ــ إجمالا حينا وتفصيـلا دقيقا فى كثير مـن الأحايين ـ وقواعـد العلاقـة بين الوالى وقـومه وبين «الآخـرين»، مشركين كـانوا أو مـن غيرهـم. . وذلك فضلا عن قواعد وأحكام العلاقة مع عاصمة الدولة ورسلها وأمرائها. . . ناهيك عن قواعد وأحكام العبادات. .**

وإذا شئنا أمثلـة من أسماء الـولاة، الذين استغـرقت مكـاتبات الـرسول معهـم، فى هذه «الوثـائق» أكثر من مائتى صفحة ـ وهى التـى بقيت لنا من غوائل التاريخ على وثائقه!!ـ . . فإننا نشير إلى ولاة ولاهـم الرسول على أنحاء فى «البحـرين»، منهم: «المنذر بـن ساوى». . و«العلاء بن الحضرمى». . و«مشمرج بن خالد السعدى». . ومن ولاة «اليمامة»: : «هوذة بن على». .

---

(١٤) رفـاعة الطهطـاوى: [الأعمال الكـاملـة]. جـ ٤، ص ٥٩٧، ٥٩٨. دراسـة وتحقيـق: د. محمد عمارة. طبعة بيروت، سنة ١٩٧٧م.

و«مجاعة اليمامى» . . ومن ولاة «عمان» : «جيفر بـن الجلندى» . . و«عبد بن الجلنـدى» . . ومن ولاة «بنـى الحارث» : «يـزيـد بن الطفيـل الحارثـى» . . و«عبـد يغـوث بـن وعلـة الحارثى» . . و«يـزيـد بـن المحجّـل الحارثـى» . . و«عاصم بن الحارث الحارثى» . . ومن ولاة «بنى نهد» : «طهفة النهدى» . . و«قيس بن الحصين ذى الغُصّـة» . . ومن ولاة « اليمن» ، بأنحائهـا ـ وذلك غير الـذين عينـوا من العـاصمة ــ مثـل على بن أبـى طالـب . . ومعاذ بـن جبل . . هناك من أبنـاء مدنها ونواحيها وقبائلها ، الـولاة : «عمرو بن حزام» فى «نجـران» . . و«الحارث بن عبـد كلال» . . و«نعيـم بـن عبد كـلال» . . والنعمان : قَيْل ذى رعين ، ومعافر ، وهمدان ــ فى «حمير» ـ . . . و«زرعة بن ذى يزن» . . و«فهد الحميرى» . . و«عمير ذى يزن» ــ فى «همدان» ـ . . . و«قيس بن مالـك الأرحبى» ـ فى «همدان» ـ . . . و«مالك بـن النمط» ـ فى «همدان» ـ . . و«ضمام بـن زيد» ــ فى «همدان» ـ . . و«قيـس بن نمـط الأرحبى» ــ فى «همدان» ـ . . . و«عك ذوخوان» ـ فى «اليمن» ـ . . و«معدى كرب بن أبرهة» ـ فى «خـولان» ـــ . . و«خـالد بـن ضمار الأزدى» ــ فى «الأزد» ـــ . . و«جنـادة الأزدى» ـ فى «الأزد» ـ . . و«ظبيان بن عمير بن الحارث الأزدى» ـ فى «الأزد» ـ . . و«ربيعة بن ذى المرحب الحضرمى» ــ من «حضرموت» ـ . . و«وائل بن حجر الحضرمى» ـ من «حضرموت» ـ . . و«المهـرى بن الأبيض» ـ من «أهل مهرة» ـ . . . إلخ . . . إلخ . . إلخ . .

تلك بعض من أسماء الولاة ، الذين بقيت لنا وثائق وكتب تولية الرسول ، ﷺ ، لهم على القبائل والنواحى والمدن والأقاليم . . وهى صفحة من الواقع التاريخى للدولة الإسـلامية الأولى ، يقفز عليها ـ جاهـلا لها . . أو متجاهلا إياها ـ كتـاب [الإسلام وأصول الحكم] عندما يدعـى أنه لم تكن دولة ، لأن رسول الله ، ﷺ ، لم يعين ولاة ! ! . .

أما إذا نحـن تأملنـا سطورا من هـذه الوثـائق «الإدارية» ، التـى حددت

للولاة نطاق الولايـة، وممتلكاتها، ومـاذا لأهلها، ومـاذا لعاصمـة الدولـة، وقواعـد وقوانين وضوابـط وأحكام المعامـلات الدنيـوية والدينيـة . . وأيضا علاقة الولايـة بالجيران و«الآخر الدينى» . . إذا شئنا سطـورا شاهدة على فكر **«الإدارة ـ السيـاسية» و«السياسة ـ الإدارية» للدولة الإسـلامية** ، كما حددتها مكاتبات الرسول ، ﷺ ، إلى الولاة وقبائلهـم . . فإننا واجدون :

١ ـ فى كتاب النبى إلى أهل « عمان والبحـرين» : « . . وإن لهم ما أسلموا عليه، غير أن مـال بيت النار، ثُنيا لله ورسـوله، وإن عُشُور التمر صـدقة، ونصـف عُشُـور الحب . وإن للمسلمين نصرهـم ونصحهـم، وإن لهم على المسلمين مثل ذلك . وإن لهم أرحاءهم يطحنون بها ماشاءوا» . .

٢ ـ وفى كتاب النبى بتولية العلاء بن الحضرمى على قبيلة عبد القيس ـ فى البحريـن ـ نقـرأ : « . . والعلاء بن الحضرمـى : أمين رسول الله على بَـرِّها، وبحرها، وحـاضرها وسراياها، وماخـرج منها . وأهل البحريـن خُفراؤه من الضيم، وأعـوانه على الظـالم، وأنصاره فى الملاحم، عليهـم بذلـك عهد الله وميثاقه، لا يبدلوه قولا، ولا يـريدوا فُرقة . ولهم على جند المسلمين الشركة فى الفـىء، والعـدل فى الحكـم، والقصد فى السيرة . حكـم لا تبـديـل لـه فى الفريقين كليهما . والله ورسوله يشهد عليهم . . » . .

٣ ـ وفى كتاب النبى إلى جيفر وعبد ابنـى الجلندى ـ فى عمان ـ نقرأ تعليق بقائهما فى الـولاية على إسلامهما . . وإلا عـزلهما رسول الله ، ﷺ : « . . إنكما إن أقررتما بـالإسلام وليتكما، وإن أبيتما أن تقـرا بالإسـلام فإن ملككما زائل، وخيلى تحل بساحتكما، وتظهر نبوتى على ملككما . »! . .

٤ ـ وفى كتاب النبـى إلى طهفـة النهدى، وقـومه ـ بنـى نهد ـ . . نقـرأ تفصيل قواعد الحياة الاقتصادية التى حددتها الدولة الإسلامية للوالى وقومه : « . . لكـم فى الوظيفـة الفريضـة، ولكـم الفارض والفـريش، وذو العنـان

والركـوب . والفلو الضبيـس . لا يُمنع سَرْحُكـم ، ولا يُعضد طلحكـم ، ولا يحبس دَرُّكُم ، مالم تُضْمِروا الإماق ، وتأكلوا الرِّباق . من أقر فله الوفاء بالعهد والذمة ، ومن أبى فعليه الرِّبوة» (١٥)! . .

٥ ـ وفى كتاب النبى بتولية ربيعـة بن ذى المرحب الحضرمى ، على قومه فى حضرموت ، قـانون ضابط لحكـم الولاية وإدارتها . . نقـرأ فيه : « . . إن لهم أموالهم ونخلهـم ورقيقهم وآبـارهم وشجـرهم وميـاههم وسـواقيهم ونبتهـم وشراجهم . . وإن كـل رهن بأرضهـم يحسب ثمـره وسدره وقضبه مـن رهنه الذى هو فيه . وإن كـل ما كان فى ثمارهم من خير فإنـه لا يُسْأل أحد عنه ، والله ورسولـه براء منه . وإن نصر آل ذى مرحـب على جماعة المسلمين ، وإن أرضهم بـريئة مـن الجور ، وإن أموالهم وأنفسهم و«زافـر» حائط الملـك الذى كان يسيل إلى آل قيس . وإن الله ورسوله جارٌ على ذلك» (١٦)! . .

٦ ـ وفى كتاب النبى بتولية مهرى بن الأبيض ـ على أهل مرة ـ نقرأ «إلزام» الحكومة الإسلاميـة للوالى وقومه « بشرائع الإسلام» . . فيقول كتـاب التولية : « . . إنهم لا يُـؤكَلُون ولا يُغـار عليهـم ولا يُعْرَكـون ، وعليهـم إقامـة شرائع الإسـلام ، فمن بَـدَّل فقـد حـارب الله ، ومـن آمن بـه فلـه ذمة الله وذمـة

---

(١٥) الوظيفة : ما يقدر للإنسان كل يوم من رزق . والفريضة : من معانيها : الزكاة . والفارض : من معانيـه : المسنة من الإبل ، والعظيمة من البقـر . والفريش : الثور العربـى الذى لا سنام له . والعنـان : سير اللجام للفـرس . والركوب : كـل مايـركب . والفلـو : المهر الصغير ، فى السنـة الثانيـة من عمـره . والفلو الضبيـس : المهر الصعـب العسير . والسرح : واحدهـا : السرحة : الأتان أدركت ولم تحمل . والطلح : شجرة حجازية . والدرّ : النزول الغزير للبن أو الماء . والإماق : لعله البخل ـ ولعلها : الإباق ـ والرباق : مفردها : ربق ، وهو الحبل تشد به الدابة ، والمراد هنا : نقض العهد ، شبه العهد بالحبل المانع من التجاوز . والربوة : الزيادة .

(١٦) الشراج : مفـردها : شرج : مسيـل الماء مـن الحرة ــ الأرض ذات الحجارة ــ إلى السهـل . والسدر : شجـر النبق . والقضـب : كل مـايأكلـه الإنسان مـن النبات الغـض . أو الشجر الطوال . أو : البرسيم .

رسـوله . اللُّقطـة مـؤداة ، والسّـارحة منـدّاة ، والتفـث السيئـة ، والرفـث الفسوق . . »[١٧]! . .

٧ ـ وفى كتاب النبـى إلى «ثقيف» ، نجـد تنظيما حتى للصيـد ، وقواعـد التعامل مع الشجر! ! . . وتحديـدًا لعقاب المخالفين للقواعد والتنظيمات . . « . . فمن وُجد يفعل من ذلك شيئا فإنه يجلد وينزع ثيابه ، وإن تعدى ذلك أحد فإنه يُؤخذ فيُبْلَغ به محمدا النبى . . »[١٨]! . .

أفبعـد كـل ذلـك ــ ومـا أشرنـا إليه قطـرة مـن بحـر ــ . . أفبعـد هـذه «الـولايات» ، وهـؤلاء «الولاة» ، وهـذه « القـوانين . . والتنظيمات» الضابطـة لحدود الولايـات ، وأملاكهـا ، وقواعـد المعامـلات الدنيـوية فيهـا ، وتقريـر حـاكمية الشريعـة ــ « إقـامة شرائع الإسـلام» ــ . . أفبعـد كل ذلـك يجوز لصاحب [الإسلام وأصول الحكم] أن يقول : إنه لم تكن دولة . . ولم يكن ولاة ولا قضاة . . وأن النبى « لم يتعرض لشىء من سياسة تلك الأمم الشتيتة ، ولا غير شيئا من أساليب الحكم عندهم ، ولا مما كان لكل قبيلـة منهم من نظام إدارى أو قضـائى ، ولا حاول أن يمـس ما كـان بين تلك الأمـم بعضها مـع بعض ، ولا ما كـان بينها وبين غيرها ، من صلات اجتماعيـة أو اقتصادية . . فبقى التباين ـ بعد الإسلام ـ كبيرا بين تلك الأمم العربية ، فى مناهج الحكم ، وأسـاليـب الإدارة ، وفى الآداب والعـادات ، وفى كثير مـن مـرافـق الحيـاة الاقتصادية والمادية»[١٩]؟ !

---

(١٧) لا يعـركـون : أى لا يُزاحمون . والسـارحـة : الماشيـة المنطلقـة للـرعى . والمنـداة : لعلهـا : الشاردة . انظـر فى معـانـى هـذه المصطلحات الاقتصـاديـة : د . محمـد عمارة : [قـامـوس المصطلحات الاقتصادية فى الحضارة الإسلامية] . طبعة القاهرة . سنة ١٩٩٣م .

(١٨) انظر كل ذلك فى [مجموعة الوثائق السيـاسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة] ، ص ٦٦ - ٢٨٣ .

(١٩) [الإسلام وأصول الحكم] . ص ٨٣ ، ٨٤ .

هل هذا معقول؟!.. أم أن الرجل يتحدث عن دين غير الإسلام!.. ونبى غير محمد!.. وأمة غير الأمة التى عكست صورتها وجسدتها هذه «الوثائق» التى أشرنا إلى سطور من سفرها الكبير؟!..

إننا لسنا، فقط، بإزاء تناقض صارخ ـ غير مبرر ولا مسبوق ولا معقول ـ بين أحكام صاحب [الإسلام وأصول الحكم] وبين حقائق الواقع التاريخى للدولة الإسلامية، كما رسمتها وجسدتها «الوثائق».. وإنما نحن، أيضا، بإزاء تناقضات بين الأحكام التى تبناها هذا الكتاب.. ففى الوقت الذى ينكر على «الوحدة الإسلامية» بلوغها درجة «وحدة الدولة والسياسة»، نراه يصف الأوضاع القبلية بأنها «دول»!!.. فيتحدث عن القبائل العربية «بأنهم كانوا **دولا** شتى، على قدرَ ما تسمح به حياة العرب يومئذ من **معنى الدولة والحكومة**»[٢٠].. ولم يتنازل، مراعاة لطبيعة تلك الحياة يومئذ، فيعترف للوحدة الإسلامية التى أقامها الرسول، ﷺ، ببلوغ مرتبة «الدولة» التى بلغتها عنده القبائل فى بواديها!!..

وهو إذا اعترف بأن «الزعامة الدينية التى كانت للرسول عليه السلام» قد جعلت تباين واقع الحياة العربية يخف ويتراجع، «فلقد وهت آثاره، وخفيت مظاهره، وخفت حدته، وذهبت شدته. ﴿ **واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها**﴾[٢١]..»[٢٢].

رأيناه ينقلب على عقبيه ـ وفى السطر التالى!! ـ فيستدرك على هذا الذى قال، ملغيا إياه، فيقول: «ولكن العرب على ذلك ما برحوا أمما متباينة، ودولا شتى»[٢٣]!!..

---

(٢٠) المرجع السابق. ص ٨٥. (٢١) آل عمران: ١٠٣.

(٢٢) [الإسلام وأصول الحكم]. ص ٨٥، ٨٦. (٢٣) المرجع السابق. ص ٨٦.

فلا هو يحتكم إلى الواقع التاريخى، الذى سجلته وثائق العهد النبوى . . والتى جسدت صورة وحدة الدولة الإسلامية فى السياسة . . والإدارة . . والحكم . . والتشريع . . وذلك فضلا عن وحدتها فى الدين ـ وهو الذى أثمر «توحيده» كل هذه الوحدات فى جميع تلك الميادين ! . .

ولا هو راعى الحدود الدنيا من اتساق الأحكام التى تبناها فى كتابه عن ذلك الواقع التاريخى الذى تحدث عنه ! ! . .

وإذا اضطر إلى أن يشير إلى ما جاء به الإسلام من قواعد موحدة فى شئون السياسة والدولة والإدارة . . فقال ـ بصيغة « الإمكان» ! ! ـ :

«وربما أمكن أن يقال، إن تلك القواعد والآداب والشرائع، التى جاء بها النبى عليه السلام، للأمم العربية ولغير الأمم العربية أيضا، كانت كثيرة، وكان فيها مايمس إلى حد كبير أكثر مظاهر الحياة فى الأمم. كان فيها بعض أنظمة للعقوبات، وللجيش، والجهاد، وللبيع والمداينة والرهن، ولآداب الجلوس والمشى والحديث، وكثير غير ذلك. فمن جمع العرب على تلك القواعد الكثيرة، ووحد بين مرافقهم وآدابهم وشرائعهم إلى ذلك الحد الواسع الذى جاء به الإسلام، فقد وحّد أنظمتهم المدنية، وجعلهم بالضرورة وحدة سياسية. فقد كانوا إذن دولة واحدة، وكان النبى عليه السلام زعيمها وحاكمها» . .

إذا « افترض» ذلك، رأيناه سرعان ما ينقض على هذا « الفرض» ليلغيه، وليحكم على الوحدة فى « المرافق والآداب والشرائع» بأنها « لم تكن فى كثير ولا قليل من أساليب الحكم السياسى، ولا من أنظمة الدولة المدنية»[٢٤] ! ! . .

فكأن قارئ الكتاب محكوم عليه، إن هو تأمل، أن يعيش بإزاء «لوحة من المتناقضات» ! ! . .

***

(٢٤) المرجع السابق. ص ٨٤ .

وإذا كان شمول القرآن الكريم، إلى جانب العقيدة والعبادات، على حدود وأحكام، وشريعة تتجاوز آيات الأحكام والقصاص والحدود لتشمل كل معالم الطريق التى رسمها الوحى كى تُقَوِّم مسيرة الإنسان على الصراط المستقيم. . إذا كان شمول القرآن لهذه الشريعة هو من المعلوم من الدين بالضرورة، والذى لم يختلف فيه ناظر فى القرآن الكريم. . وإذا كانت الشريعة، كالعقيدة والعبادات، قد وردت فى القرآن مورد التكليف ـ فإن السلطة التى تقيم هذه الشريعة لا بد وأن تأخذ هذا الحكم ـ التكليف الواجب؛ إذ ما لا يقوم الواجب إلا به فهو واجب . .

وإذا كانت «الليبرالية»، مثلا، لا تقيمها إلا «سلطة ليبرالية». . و«الاشتراكية» لا تقيمها إلا «سلطة اشتراكية». . و«الفاشية» لا تقيمها إلا «سلطة فاشية». . فإن «الشريعة الإسلامية» لا تقيمها إلا «سلطة ـ أى «دولة» ـ إسلامية». . ووجوب إقامة «الشريعة» يستلزم «وجوب» إقامة «الدولة الإسلامية» التى تقيمها. . تلك هى بداهة المنطق، ومنطق البداهة فى وجوب «إسلامية الدولة»، طالما كانت هناك «شريعة إسلامية» واجبة الإقامة والتطبيق والتنفيذ فى الاجتماع الإسلامى . .

ولهذه الحقيقة تميز الحديث القرآنى عن «العقيدة» بأن لا سيطرة للرسول على قلوب المعتقدين لها والمطالبين بها. . لأن القلوب لا تخضع لمعايير السيطرة والوكالة والجبر والإكراه. . بينما اقترنت آيات الشريعة والحدود والأحكام بالطلب إلى رسول الله، ﷺ، بأن «يقيم» هذا الذى جاءت به فى حياة الاجتماع الإسلامى الذى أقامه وقاده وتزعمه. . فلا إكراه فى الاعتقاد. . لكن لا قانون ولا شرع ولا حدود ولا أحكام يمكن أن تقوم ولا أن تقام فى حياة أى مجتمع من المجتمعات إلا بمقادير وألوان من السيطرة والضبط، بل والقسر والإكراه. . ففى العقيدة ما على الرسول إلا البلاغ، بل لقد عاتبه القرآن عندما كان يحمل من الأمر ما يتعدى حدود البلاغ ﴿إنك لا تهدى من

أحببت ولكن الله يهدى من يشاء﴾ (٢٥). ﴿ فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا﴾ (٢٦). . أما فى الشريعة، فلقد جاءت الآيات بوجوب إقامتها عليه وعلى المؤمنين، ولم تقف فقط عند حدود البلاغ . . فهى قد أنزلت عليه ليقيمها، وليس فقط ليبلغها . . الأمر الذى يعنى إيجاب إقامة «سلطة - دولة» التنفيذ والإقامة للشريعة وحدودها وأحكامها ﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله﴾ . (٢٧) ﴿وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك﴾ . (٢٨) ﴿وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم﴾ . (٢٩) ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله﴾ . (٣٠) ﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله﴾ . (٣١) ﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم والله سميع عليم﴾(٣٢) . .

وإلا، فهل يتصور عاقل أن أحكام الشريعة وقوانينها - فى الحرب والسلم والزكاة - وفى القصاص والحدود - إلخ . . إلخ . . قد نزلت لمجرد البلاغ والعلم، مع تركها، كالعقيدة، لاختيارات القلوب التى لا رقيب عليها ولا وكيل ولا حفيظ؟! . . إن هذا « المنطق» الذى زعمه صاحب [الإسلام وأصول الحكم] مما لا يليق بالعاقلين، لتنوع الخطاب فى آيات القرآن الكريم . . بل وحتى العبادات . . كتبها الله بمعنى أوجبها ﴿ وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقا نحن نرزقك والعاقبة للتقوى﴾ (٣٣) . . ولقد جسدت السنة والسيرة النبوية ذلك فى واقع المسلمين، بالدولة والسلطة التى أقامها الرسول، ﷺ فى المدينة بعد الهجرة إليها . .

فزعم صاحب [الإسلام وأصول الحكم] بأن الرسول مجرد مبلغ، هكذا

---

(٢٥) القصص: ٥٦ . (٢٦) الكهف: ٦ . (٢٧) النساء : ١٠٥ . (٢٨) المائدة: ٤٩ .
(٢٩) الشورى: ١٥ . (٣٠) الأنفال: ٣٩ . (٣١) الأنفال : ٦١ . (٣٢) التوبة: ١٠٣ .
(٣٣) طه : ١٣٢ .

بإطلاق، هو زعم لم يقل به حتى المستشرقون. . وإذا كنا قد وفينا هذه القضية - قضية علاقة الدين بالدولة فى الإسلام - حقوقها فى العديد من الكتب والدراسات (٣٤). . الأمر الذى يغنينا عن الرد هنا على هذه الدعوى. . فإننا نسوق، فقط، عبارات للمستشرق « دافيد دى سانتيلانا» [١٨٤٥ - ١٩٣١م] حول :

● تميز الخلافة الإسلامية عن البابوية : « . . **وخلفاء الرسول ما هم بوارثى رسالته الروحية**. . لقد أبى أبو بكر قبول لقب « خليفة الله» واكتفى بلقب «خليفة رسول الله». ثم درج لقب « أمير المؤمنين» منذ زمن عمر بن الخطاب، فحدد بكل وضوح صفة ممثل السلطة العليا الذى هو فى الحقيقة ليس عاهلا « ملكا» بل هو «أميرا». . **أما وظيفته الدينية - وهى أصل جميع وظائفه الأخرى - . . فليس فيها ما يضفى على الخليفة صفة القداسة أو يسمه بميسم الكهنوت. . إن سلطة الخليفة، كرئيس دينى، لا يمكن أن تعتبر سلطة حَبْرِيَّة أو بابوية، فهو متجرد تماما من صفة الكهنوت، لأن حكومة المسلمين ما كانت فى أى زمن أو ظرف حكومة دينية hierarchy، ولم يوجد فيها تعاقب رسولى**. . » (٣٥).

فنحن هنا بإزاء خلافة مدنية ذات وظيفة دينية، لها مرجعية إسلامية. . فلا هى بالعلمانية التى تفصل الدين عن الدولة، ولا هى بالبابوية الكهنوتية. . إنها نموذج لم يعرفه الغرب. . ولا علاقة له بـ« المشكلة » التى جاء «التنوير» - الغربى - العلمانى » ليحلها فى مجرى التطور الغربى الخاص. .

---

(٣٤) انظر كتبنا، [الإسلام وفلسفة الحكم]، و[معركة الإسلام وأصول الحكم]، و[الدولة الإسلامية بين العلمانية والسلطة الدينية] ،و[العلمانية ونهضتنا الحديثة] ،و[الإسلام والسياسة : الرد على شبهات العلمانيين].

(٣٥) [القانون والمجتمع] - بحث منشور بكتاب [تراث الإسلام] . ص ٤٢٤ ، ٤٢٥ . ترجمة جرجيس فتح الله . طبعة بيروت ، سنة ١٩٧٢م

بل ويقول « سانتيلانا» عن الخلافة الإسلامية : إن «الأمير « وكيل » جماعة المسلمين ، وأعماله تستمد قوتها وقانونيتها من المبدأ القائل إن الأمير يجب أن يضع نصب عينه مصلحة المجموع . فلهذه الغاية « أمّر الأمراء» . وكما يجب أن يقدم الوكيل حسابا صحيحا على ما أنجزه لموكله وسيده، كذلك يتحتم على الخليفة أن يسترشد بالله »[٣٦] . فالخلافة والوكالة والنيابة ـ فى الحكم ـ عن الأمة ، وبما أن الأمة ومعها الخليفة مستخلفة لله فى عمارة الأرض ، فالكل مسترشد بالشريعة الإلّهية . . **فدولة الإسلام جامعة بين تمثيل الأمة وبين مرجعية الشريعة** . . الأمر الذى يجعل بينها وبين النموذج البابوى فى الدولة فارقا جوهريا . . ويجعل ، من ثم، استعارة « التنوير ـ الغربى ـ العلمانى » لنقدها ونقضها مفارقة فكرية شديدة الغرابة وبالغة الشذوذ! . .

وإذا كان لا بد من نص آخر لذات المستشرق الغربى ـ الحجة فى دراسة وتدريس الشريعة الإسلامية [٣٧] ـ فلنتأمل قوله: « إن الرابطة التعاونية الموجودة بين الخليفة والشعب تبقى متينة وثيقة العرى ما دام الخليفة صالحا للقيام بواجبه فى حماية المجتمع الإسلامى، فإذا لم يعد أهلا لمنح شعبه ما يريده منه، بطل سلطانه وفسخ العقد شرعا بين المتعاقدين»[٣٨]؟! . .

فأين هى الخلافة الإسلامية التى كانت ولاية صاحبها « كولاية الله وولاية رسوله . . يجلس غير بعيد من مقام العزة الإلّهية» . . كما قال وادعى على عبدالرازق؟! . . و«سانتيلانا» يقول : « **إنها ما كانت فى أى زمن أو ظرف حكومة دينية**»؟!

● وتميز الشريعة الإسلامية عن الشرائع الأخرى، بالجمع بين « المنفعة» و«الأخلاق» ، كمعيارين جامعين بين « المدنية» و«الإلّهية» ، هو الآخر مصدر

---

(٣٦) المرجع السابق . ص ٤٢٥ .

(٣٧) درس الفلسفة والشريعة والتاريخ فى جامعة روما والجامعة المصرية .

(٣٨) المرجع السابق . ص ٤٢٧ .

لتميز دولتها وسلطتها عن الدول الأخرى وطبيعة السلطة فيها . . وهذا التميز فى الشريعة ، يتحدث عنه « سانتيلانا » أيضا فيقول : «**عبثا نحاول أن نجد أصولا واحدة تلتقى فيها الشريعتان الشرقية والغربية (الإسلامية والرومانية) . . إن الشريعة الإسلامية شريعة دينية تغاير أفكارنا أصلا . . إن الفارق بين حقوق الله وحقوق العباد ليس فيه من معنى أكثر من الفارق بين القانون العام والقانون الخاص . وللفكرة الدينية بلا ريب أثر عظيم . . ولكنه مستمد من الصبغة الأخلاقية التى تسود القانون ، أى من العلاقة التى تقترب غالبا لتوحد بين القواعد القانونية والتعاليم الأخلاقية توحيدا تاما . . وهكذا ترسم الأخلاق والآداب فى كل مسألة حدود القانون . . وتلك هى الميزات التى تسم الشريعة الإسلامية فى كبد حقيقتها . وقد تجرأ على وضعها فى أرفع مكان وتقليدها أجل مديح علماء القانون ، وهو خليق بها»** (٣٩) .

فنحن أمام شريعة متميزة ، جمعت بين « المدنى » و«الدينى » ، اقتضت دولة وخلافة متميزة ، جمعت بين « المدنى » و«الدينى » . . وتلك شهادة واحد من أساطين « التنوير ـ الغربى » ، الذين عصمهم علمهم بحقيقة شريعة الإسلام وخلافته من الخلط بين الشرائع . . والحضارات . . والدول والسلطات . .

وهى شهادة تنقض دعوى الذين جعلوا إسلامنا نصرانية . . وشريعتنا لاهوتا كنسيا . . وخلافتنا بابوية حكمت بالحق والتفويض الإلهيين . . كما فعل صاحب [الإسلام وأصول الحكم] ! ! . .

* * *

وإذا كان هذا هو حظ هذه الدعوى من الشذوذ عن منطق القرآن والسنة ، وعن حقيقة تاريخ الرسالة ، بل وعن إجماع الذين درسوا هذا

---

(٣٩) المرجع السابق . ص ٤٣١ ، ٤٣٦ ، ٤٣٨ .

الجانب من الإسلام وتاريخه، مسلمين وغير مسلمين . . فإن من الحق علينا أن نشير إلى حقائق قد تكشفت بعد سنوات من صدور هذا الكتاب ـ [الإسلام وأصول الحكم] ـ تشهد على أن الشيخ على عبد الرازق قد تراجع عما جاء فيه . . بل وتبرأ منه أيضا!! . .

● لقد حوكم الرجل على آرائه هذه، تأديبيا، أمام « جماعة كبار العلماء» ـ باعتبارها قيادة الجماعة العلمية التى ينتسب إليها علماء الأزهر ـ وأدانته، وأخرجته من زمرة العلماء بتاريخ ٢٢ من المحرم سنة ١٣٤٤هـ ـ ١٢ من أغسطس سنة ١٩٢٥م . . وفى اليوم التالى لصدور الحكم، أدلى الشيخ على عبد الرازق لجريدة « البورص إجبسين» بحديث ـ أعادت نشره فى اليوم التالى صحيفة [السياسة اليومية] ـ أعلن فيه تمسكه بآرائه، بل وقال إنه سيواصل الإعلان عنها بكتابات ومحاضرات وأحاديث جديدة، غير هذا الكتاب . . فعندما سأله المحرر:

ـ «وهل تعتزم، برغم الحكم، أن تستمر فى آرائك، وأن تستمر فى نشرها؟

أجاب : ـ « بلا ريب . لأن الحكم لم يعدل طريقة تفكيرى» .

فعاد المحرر ليسأل : ـ وبأى الوسائل ؟

فقال : ـ «بكل الوسائل الممكنة، كتأليف كتب جديدة، ومقالات فى الصحف ومحاضرات وأحاديث» (٤٠) .

لكن الذى حدث، هو أن الشيخ على عبد الرازق قد صمت عن الحديث وامتنع عن الكتابة فى هذا الموضوع . . بل وحرص على الابتعاد عن ذكره أو التذكير به . . حتى لقد رفض التصريح بإعادة طبع كتابه ـ الذى

---

(٤٠) انظر كتابنا [معركة الإسلام وأصول الحكم] ، ص ١٣١ . طبعة القاهرة ـ دار الشروق ـ سنة ١٩٨٩م .

نفدت طبعاته فى العام نفسه ـ سنة ١٩٢٥م ـ وظل على هذا الرفض حتى وفاته سنة ١٩٦٦م (٤١)!! . .

● وبعد أقل من عشرين يوما من حكم هيئة كبار العلماء، نشرت جريدة « السياسة» كلاما للشيخ على عبد الرازق، تضمن عبارات عن الإسلام و«الشريعة»، فى صياغة تضبط الفكر على نحو متميز عما جاء فى كتابه . . فلقد قال : « إن الإسلام دين تشريعى ، وإنه يجب على المسلمين إقامة شرائعه وحدوده، وإن الله خاطبهم جميعا بذلك. ولكن الله لم يقيدهم بشكل مخصوص من أشكال الحكومات، بل ترك لهم الاختيار فى ذلك، وفق مقتضيات الزمن، وحيث تكون المصلحة . . »(٤٢). . وهو كلام لا يختلف عليه اثنان. . **فوجوب إقامة شرائع الإسلام، يقتضى وجوب إقامة دولة إسلامية تقيم هذه الشرائع. . أما « شكل» هذه الدولة فهو متطور وفق المصالح والأزمنة.**

● وفى مارس سنة ١٩٣٢م، ألقى الشيخ على عبد الرازق محاضرة بقاعة «إيوارت» ـ بالجامعة الأمريكية بالقاهرة ـ عن «الدين وأثره فى حضارة مصر الحديثة» . . قال فيها ـ ضمن ماقال ـ : « **جرت مصر منذ العصور الأولى على أن يكون الحكم فيها شرعيا، يرجع إلى أحكام الإسلام والأوضاع الإسلامية، وكان المصريون يفزعون أن يحتكموا إلى غير الإسلام، لأن الحكم بغير ما أنزل الله كفر صريح فى القرآن**» (٤٣)!! . .

وهو كلام مناقض تماما لما قرره كتاب [الإسلام وأصول الحكم] من ترك الإسلام طبيعة الحكم للعقل والتجريب، يختار المسلمون بهما حكومتهم،

---

(٤١) انظر آخر حديث صحفى أدلى به للأستاذ محمود أمين العالم ـ مجلة « المصور» ـ والذى نشر عقب وفاته ـ ٧ ـ ١٠ ـ ١٩٦٦م .

(٤٢) [السياسة] ، عدد ١ سبتمبر سنة ١٩٢٥م.

(٤٣) انظر كتاب : [حضارة مصر الحديثة] . طبعة القاهرة ـ المطبعة العصرية، سنة ١٩٣٣م ـ الجامعة الأمريكية . .

استبدادية أو شورية، ديمقراطية أو بلشفية أو استبدادية! . .

● وحينما كان عضوا بمجلس النواب. سنة ١٩٤٦م. . وعرض على المجلس المشروع الخاص بقانون الأوقاف. . ورأى فيه بعض الثغرات، قال: « إنكم فى هذا التشريع توشكون أن تفتحوا فى باب التشريع الإسلامى حدثا جديدا أخشى أن يكون بعيد العواقب، وأخشى أن تكون أقرب الآثار المترتبة عليه أن يمزق الفقه الإسلامى، **الذى هو الرابطة الأقوى بين الأمم الإسلامية**»!! . .

وهو كلام لا يقوله إلا خصوم كتاب [الإسلام وأصول الحكم]!! . .

● وفى سنة ١٩٤٧م. . أصدر كتابه [الإجماع فى الشريعة الإسلامية]، وهو محاضرات ألقاها على طلاب كلية الحقوق، جامعة فؤاد الأول ـ القاهرة ـ . . ومافيه من الفكر لا علاقة له بفكر كتاب [الإسلام وأصول الحكم]. . بل هو على النقيض منه !!

● وفى سنة ١٩٥١م. . جمع لقاء بين الشيخ على عبد الرازق وبين الأستاذ أحمد أمين، دار فيه حوار حول جمود المسلمين وأسبابه، والسبيل إلى خلاصهم منه. . فقال على عبد الرازق فيما قال: « إن دواء ذلك أن نرجع إلى مانشرته قديما من أن رسالة الإسلام روحانية فقط، ولنا الحق فيما عدا ذلك من مسائل ومشاكل. . إلخ. . ».

فلما تحدث أحمد أمين ـ بمقال له فى مجلة [رسالة الإسلام] [٤٤] ـ عن هذا اللقاء، والحوار الذى دار فيه، ونشر نص عبارة على عبد الرازق. . كتب الشيخ على تعقيبا نشر فى العدد التالى من المجلة[٤٥]. . اعترف فيه بأنه قد

---

(٤٤) [رسالة الإسلام] . عدد إبريل سنة ١٩٥١م ـ وعنوان مقال أحمد أمين: « الاجتهاد فى الإسلام».

(٤٥) [رسالة الإسلام]. عدد مايو، سنة ١٩٥١م . وعنوان التعقيب: «تعقيب على مقال الاجتهاد فى الإسلام».

قال العبارة المنسوبة إليه، ولكنه نفى أن يكون هذا رأيه، لا اليوم ولا قديما . . بل ونسب هذا الرأى والعبارة المعبرة عنه إلى الشيطان الذى ألقاها على لسانه . . وتبرأ منها . . وقال : « أرجو ألا يظن صديقى أحمد أمين بك، أو من يقرأ كلمتى هذه، أننى أمارى من قريب أو من بعيد فى صحة الحديث الذى رواه عنى، فإنى لأذكر هذا الحديث نفسه، وأذكر أين ومتى كان، وما ينبغى لشىء يرويه أحمد بك أمين أن يكون موضعا للمراء .

وما أرى فى الأمر إلا أن هناك خطأ فى التعبير جرى به لسانى فى المجلس الذى كنا نتجادل فيه ونستعرض حال المسلمين، وما أدرى كيف تسربت كلمة روحانية الإسلام إلى لسانى يومئذ؟! ولم أرد معناها!! ولم يكن يخطر لى ببال!! . .

بل لعله الشيطان ألقى فى حديثى بتلك الكلمة . . وللشيطان أحيانا كلمات يلقيها على ألسنة بعض الناس. هذه كلمة تصحح وضعا شخصيا أرى من الإنصاف أن يصحح . . »[٤٦] .

فهو هنا ينفى أن يكون هذا الرأى ـ أن الإسلام مجرد رسالة روحية ـ رأيه نفيا صريحا وقاطعا! . .

● وبعد سنوات من وفاة الشيخ على عبد الرازق، رغبت « دار الهلال» فى تجديد محاولة استئذان ورثته فى إعادة طبع كتابه [الإسلام وأصول الحكم] ـ بعد أن رفض هو ذلك عندما طلبه منه الأستاذ محمود أمين العالم ـ وكان يعمل بدار الهلال فى منتصف الستينيات ـ وطلبت «دار الهلال» منى السعى إلى الحصول على هذه الموافقة . . فلقيت أكبر أبناء الشيخ على ـ محمد ـ وكان يعمل يومئذ بوزارة « القوى العاملة» ، بمجمع التحرير، ودار بيننا

---

(٤٦) انظر المقال كاملا فى كتابنا : [الإسلام والسياسة ـ الرد على شبهات العلمانيين] . ص ١١٣ ـ ١١٥ ـ طبعة القاهرة، سنة ١٩٩٣م .

حوار طويل، عبر فيه عن رغبته هو شخصيا فى إعادة نشر الكتاب، وكان يتوقع من ذلك ربحا ماديا كبيرا ، لكنه قال إن والده كان رافضا لإعادة النشر رفضا تاما . . وأنه ـ رحمه الله ـ أمام الإلحاح عليه من البعض لإعادة طبعه، هم أن يكتب صفحات يسجل فيها ملابسات صدوره سنة ١٩٢٥م، وحقيقة فكره إزاء القضايا التى أثارت الجدل عندما صدر الكتاب، لأن فكره مغاير للمفهوم من الكتاب . . ولقد كتب ثلاث صفحات . . ثم مات دون أن يكمل البحث . . وحتى هذه الصفحات، فإنها ضاعت . . هكذا أخبرنى أكبر أبنائه . .

● وعندما نشرت مجلة [الطليعة] ـ المصرية ـ النص الكامل للكتاب، «ملحقا» بعدد نوفمبر سنة ١٩٧١م ـ والذى نشرت أنا فيه « ملفا» عن المعركة الفكرية التى أثارها الكتاب عند صدوره . . . ثم نشرت « المؤسسة العربية للدراسات والنشر» ببيروت الكتاب، مع دراستى عنه، و«وثائق» معركته ـ التى جمعتها فى سنة ١٩٧٢م ـ رفعت أسرة على عبد الرازق الأمر إلى القضاء، طالبة من الناشرين تعويضا عن عدم الاستئذان، وعن نشر كتاب كان صاحبه رافضا إعادة نشره، الأمر الذى يجعل إعادة النشر إساءة إلى المؤلف ! ! . .

* * *

وهكذا . . إذا نحن تتبعنا موقف على عبد الرازق من كتابه هذا، **نكاد نجده ـ منذ سبتمبر سنة ١٩٢٥م ـ موقف « المتبرئ » من مضمون هذا الكتاب . . فمواقفه الفكرية المتوالية تنقض القضية المحورية والخلافية التى قام عليها الكتاب** ـ قضية تجريد الإسلام من الشريعة المنظمة لإسلامية الدولة والسلطة، وعلاقته بشئون العمران البشرى ـ . . وإصراره ـ حتى فى أثناء محاكمته التأديبية ـ فى أغسطس سنة ١٩٢٥م ـ على أن القول بروحانية

الإسلام وشريعته، ونفى علاقته بالدولة والعمران، ليس رأيه . بل كان يردد أنه لم يقله لا فى هذا الكتاب ولا فى غيره!! . .

وحتى عندما قال هذه العبارة « إن رسالة الإسلام روحانية فقط» ، فى حواره مع أحمد أمين سنة ١٩٥١ ، لم يقلها معترفا بأنها « رأيه» . . بل قال - وهذا هام ومثير لعلامة استفهام كبرى - . . قال: «ما نشرته قديما من أن رسالة الإسلام روحانية فقط» . . . فهو «ناشر» [؟؟!!]. . وعاد فى «التعقيب» على هذا الحوار ليردد موقفه الدائم من هذه القضية - موقف النفى أن يكون هذا «رأيه»، وقال : «فقد زعم الطاعنون الذين جعلوا فى قلوبهم الحمية يومئذ: أننى فى ذلك البحث قد جعلت الشريعة الإسلامية شريعة روحية محضة. . أما أنا فقد رددت ذلك عليهم، **وقلت لهم يومئذ، صادقا ومخلصا : « إننى لم أقل ذلك مطلقا ، لا فى هذا الكتاب ولا فى غيره، ولا قلت شيئا يشبه ذلك الرأى أو يدانيه»** [؟؟!!]. .

فهو دائم الرفض لأن يكون هذا الرأى - الواضح فى الكتاب وضوح الشمس - هو رأيه، أو أنه قاله، أو قال ما يشبهه أو يدانيه!! . . وعندما قاله، فى حواره مع أحمد أمين، عبر عن علاقته به بكلمات : « ما نشرته قديما»!! . . تلك هى علامة الاستفهام الكبرى. . التى لا تكفى فى الإجابة عنها حقيقة نقض الرجل فى سنوات عمره التى تلت صدور الكتاب للفكرة المحورية التى دارت حولها صفحاته القليلة. . **لكن هل كل ما فى الأمر أن الرجل قد تراجع عن آرائه، ثم استعظم أن يعلن التراجع ، فزعم أن ما فهمه الجميع - من المعارضين له والمؤيدين - لم يكن هو حقيقة رأيه؟! . . أم أن الرجل كان مجرد « ناشر» لهذا الرأى، الذى أثار ولا يزال يثير من الجدل واللغط فى حياتنا الفكرية ما لم يثره رأى آخر فى كتاب غير هذا الكتاب؟! . .**

تلك هى علامة الاستفهام الكبرى، التى تبحث عن إجابة مؤسسة على البحث والتحقيق!

إن الاستقطاب حاد، بل شديد الحدة ، بين أنصار كتاب [الإسلام وأصول الحكم] وبين خصومه . . لكن الأنصار والخصوم جميعا متفقون كل الاتفاق على أن جوهر فكر هذا الكتاب هو أن الإسلام دين لا دولة ، ورسالة دينية روحية لا علاقة لها بنظام الحكم وفلسفته وبالعمران البشرى وضوابطه؛ فكل ذلك متروك للعقل والتجريب . بل إن الكتاب ذاته قد ساق هذا الفكر الجوهرى فى باب من أبوابه تحت عنوان : « رسالة لا حكم، ودين لا دولة» . . الأمر الذى يجعل قول «صاحب » هذا الكتاب إنه لم يقل ذلك مطلقا أمرا مستحيل التصديق ، بل ومستحيل التصور أيضا ! ! . .

فإذا انتهى المطاف بالشيخ على عبد الرازق ليقول ـ فى سنة ١٩٥١م ـ إنه قد «نشر» هذا الرأى قديما . . لكنه رأى « ألقاه الشيطان على لسانه» . . فإنه يفتح أمام البحث والتحقيق بابا للتنقيب عمّن يكون هو « الشيطان» الذى ألقى هذا «الرأى» إلى على عبد الرازق ، فنشره كتابا عن [الإسلام وأصول الحكم] ، فى إبريل سنة ١٩٢٥؟!

* * *

وإذا كان حسم هذه القضية ـ قضية المؤلف الحقيقى لما فى هذا الكتاب من آراء ـ هو « الأمل» الذى قد يصعب الوصول فيه إلى « اليقين العلمى الذى تطمئن له القلوب كل الاطمئنان ، خصوصا وأطراف القضية وأركان الدعوى جميعا قد غدوا فى ذمة الله ، فإننا سنحاول هنا ترتيب وقائع هذه القضية، وعرضها على « المنطق العلمى» ، آملين أن نقترب فيها من «اليقين» ، أو على الأقل « الظن الراجح» ، الذى يفتح الباب لمن يستكمل البحث فيصل بنا فيها إلى هذا «اليقين» ! . .

● لقد بدأت قصة التشكيك فى أن على عبد الرازق هو المؤلف الحقيقى لهذا الكتاب ، فى نفس عام صدور هذا الكتاب سنة ١٣٤٤هـ ـ ١٩٢٥م . .

. . ففى واحد من أهم الكتب التى تصدت له بالنقد والتفنيد، وهو كتاب [حقيقة الإسلام وأصول الحكم] الذى كتبه الشيخ محمد بخيت المطيعى [١٢٧١ ـ ١٣٥٤هـ ، ١٨٥٤ ـ ١٩٣٥م] ـ وكان يومئذ عضوا بهيئة كبار العلماء، التى حاكمت على عبد الرازق وأدانته، ومفتيا سابقا لمصر. . وواحدا من أصحاب الإنتاج العلمى المتميز ـ فى هذا الكتاب نجد أول خيوط التشكيك فى تأليف على عبد الرازق لكتاب [الإسلام وأصول الحكم]. . يقول الشيخ بخيت :

« ومن هذا تعلم أن المؤلف ـ [على عبد الرازق] ـ يرمى، كما قلنا، إلى أن يجعل الملة الإسلامية قاصرة على أحكام الأمور الدينية، ويلغى الأحكام المتعلقة بالأمور الدنيوية، كما أنه يلغى تنفيذ الأحكام، ويجعل رسالته ﷺ قاصرة على مجرد التبليغ، فيجعل الشريعة الإسلامية شريعة روحية محضة جاءت لتنظيم العلاقة بين الإنسان وربه؛ أما ما بين أفراد النوع الإنسانى من المعاملات الدنيوية وتدبير الأمور العامة، فلا شأن للشريعة به، وليس من مقاصدها، ولا بعث له النبى ﷺ وأوحى بشىء منه إليه. وسيأتى المؤلف ـ [على عبد الرازق] ـ يصرح بذلك فى صحيفة ٧٨ و٧٩ من كتابه .

ومن العجب أن المؤلف، مع ذكره ذلك صريحا فى كتابه، بالخط العربى، وهو عربى، يذكر [٤٧] فى مذكرته التى قدمها فى دفاعه أمام هيئة كبار العلماء: أنه لم يقل ذلك مطلقا لا فى الكتاب ولا فى غير الكتاب ولا قال قولا يشبهه أو يدانيه» . اهـ .

غير أن الشيخ عليا ربما كان صادقا فيما يقول، لأننا علمنا من كثيرين ممن يترددون على المؤلف أن الكتاب ليس له فيه إلا وضع اسمه عليه فقط، فهو منسوب إليه فقط، ليجعله واضعوه من غير المسلمين ضحية هذا

---

(٤٧) فى الأصل: « ينكر ». وهو خطأ .

الكتاب، وألبسوه ثوب الخزى والعار إلى يوم القيامة، وشهروا باسمه عند العقلاء تشهيرا لايرضاه لنفسه من عنده أدنى مسكة من عقل . . » [٤٨] .

فالشيخ بخيت ينقل عن «كثيرين» **ممن** يترددون على الشيخ على عبدالرازق، أن الكتاب ليس من تأليفه، وإنما «**واضعوه من غير المسلمين**»، وليس لعلى عبد الرازق «**فيه إلا وضع اسمه عليه فقط**» ! ! . . أى أن الكتاب من وضع المستشرقين! . .

● ويأتى الدكتور محمد ضياء الدين الريس، فيمسك بهذا الخيط . . بادئا بالتعليق على كلام الشيخ بخيت، حيث يقول : « . . ونحن لا نقبله كحقيقة نجزم بها. ولكن لا يجوز أيضا أن نهمله. وإنما ننظر إليه كخيط نمسك به ونسير على توجيهه، لعله يصل بنا إلى الحقيقة».

وبعد أن «**استنتج**» من آراء الكتاب المعادية للإسلام والمتطرفة فى عدائها هذا، أن كاتبه لا يمكن أن يكون مسلما. . بدأت تساؤلاته واستنتاجاته عمن يكون المؤلف الحقيقى له؟ . . فكتب يقول :

« فمن يكون إذن هذا الشخص غير المسلم الذى كتب عن الخلافة بهذه الصورة؟

الأظهر أنه كان أحد المستشرقين الإنجليز. **ويغلب على الظن أن يكون هو** المستر « **مرجوليوث» اليهودى**، الذى كان أستاذا للغة العربية فى بريطانيا، وتدل كتاباته عن الإسلام على أنه كان صهيونيا معاديا له وللمسلمين، ويكتب عن الإسلام بجهالة ونزعة حقد. وقد فندنا نحن آراءه عن الدولة الإسلامية فى كتابنا « النظريات السياسية الإسلامية»، وأثبتنا خطأها وبطلانها بالأدلة العلمية، وبينا جهله أو ضلاله . . . . .

---

(٤٨) [حقيقة الإسلام وأصول الحكم] . ص ٢٣٦، ٢٣٧. طبعة القاهرة ـ المطبعة السلفية ومكتبتها ـ سنة ١٣٤٤هـ.

ومعروف أن الشيخ على ذهب إلى بريطـانيا وبقى بها نحو عامين، **فلا بد أنه كان متصلا بالمستر مرجوليوث أو تتلمـذ عليه. فإن لم يكن «مرجوليوث» نفسه فأحد أعوانه، أو أحد المستشرقين الآخرين مثل «توماس آرنولد»**، الذى يشير إليه الشيـخ أو الكتاب فى غير موضع، ويصفـه « بالعلامـة»، والذى ألف كتـابا عن « الخلافـة» هاجم فيـه الخلافة بوجـه عام، والعثمانية بـوجه خـاص. وقد نقـدناه وبينـا أخطاءه فى كتـابنا الـذى ذكرنـاه: [النظريـات السياسية الإسلامية] . .

فالنظرية إذن ـ إذا سلمنا بصحة الخبر ـ أنه فى أثناء **الحرب العالمية الأولى . . . كلفـت المخـابـرات البريطـانيـة أحـد المستشرقين الإنجليـز المتصلين بالدراسات الإسـلامية أن يضع كتابا يهاجم فيه الخلافة وعـلاقتها بالإسلام**، ويشـوه تاريخهـا ليهـدم وجودهـا ومقـامهـا ونفوذهـا بين المسلمين، **فكتب «مرجوليوث» أو « أورنولد» أو غيرهما هذا الكتاب** . . فاستخدمته السلطات فى الهند **أو فى غيرها** . ثـم بعد أن انتهت الحرب ـ **وكان الشيخ عبد الرازق قد اطلع على هذا الكتاب أو عثـر عليه** ـ هذا، إن لم نفرض أن هذا كـان باتفاق بينـه وبين هذا المستشرق الـذى اتصـل بـه حينما كان فى إنجلترا، أو بعـض الجهات البريطانيـة التى كانت تعمل فى الخفاء للقضـاء على فكرة الخلافة، والتى تحارب الإسلام ـ أخذ الكتاب **فترجمه إلى اللغة العربية، أو أصلح لغته إن كان بالعربية**، وأضاف إليه بعض الأشعار والآيات القرآنية التى يبدو أنها لم تكن فى أصل الكتاب، وبعض الهوامـش والفقرات، وأخرجه للناس على أنه كتاب مـن تأليفه ـ ظنا منـه أنه يكسبه شهرة، ويظهره كبـاحث علمى، ومتفلسـف ذى نظـريـات جـديـدة، غير مـدرك مـافى آرائه أو ثنـايـاه مـن خطورة»[٤٩] .

---

(٤٩) د. محمد ضياء الدين الريس: [الإسـلام والخلافة فى العصر الحديث. نقد كتاب الإسلام وأصول الحكم] . ص ٢١٢ ـ ٢١٦ . الطبعة الثانية ـ القاهرة، سنة ١٩٧٧م.

والدكتور الريس، فى هذا الذى كتبه، لم « يحقق» رواية الشيخ بخيت . . وإنما وقف عند استنتاجات رآها « الأظهر» و«الظن الغالب» . . وإذا كانت استنتاجاته هذه و«ظنونه» لازالت بانتظار « التحقيق العلمى» الذى يخرجها من إطار « الظنون» . . فإن لنا عليها ملاحظات ، منها :

(أ) إن «توقعه» تكليف المخابرات البريطانية «مرجوليوث» أو «أرنولد» أو غيرهما كتابة كتاب يهاجم الخلافة، أثناء الحرب العالمية الأولى، للاستفادة به فى الحرب ضد الدولة العثمانية . . هو «توقع» ليس عليه دليل، بل ربما رجحت الأدلة عدم حدوثه . . فكتاب « أرنولد» [١٨٦٤ ـ ١٩٣٠م] عن [الخلافة] كتب سنة ١٩٢٤م ، بعد انتهاء الحرب بسبع سنوات . وبحث «مرجوليوث» [١٨٥٨ ـ ١٩٤٠م] عن [الاعتبارات التاريخية فى الخلافة]، كتب سنة ١٩٢١م . . وبحثه عن [معنى كلمة الخليفة]، كتب سنة ١٩٢٢م . . وكتابه عن [الخلافة] كتب سنة ١٩٢٤م . . وحتى كتاب «سانتيلانا» [١٨٥٥ ــ ١٩٣١م] عن [الخلافة والسلطان فى الشرع الإسلامى]، فإنه قد كتب هو الآخر سنة ١٩٢٤م . . فكل هذه التآليف عن الخلافة، قد كتبت بعد الحرب العالمية الأولى بسنوات . . وبعد سنوات إقامة على عبد الرازق فى إنجلترا ـ [١٩١٣ ـ ١٩١٥م] ـ . . وكذلك الحال مع كل ماكتبه «جب» [١٨٩٥ ـ ١٩٦٧م] عن الخلافة . . فدراسته عن [نظرية الماوردى فى الخلافة]، كتبت سنة ١٩٣٧م . . وبحثه عن [الخلافة فى الإسلام]، كتب سنة ١٩٣٩م . . و[الخلافة عند السنة] تاريخ كتابته سنة ١٩٤٧م . . ودراسته عن [تطور الحكومة فى صدر الإسلام]، صدرت سنة ١٩٥٥م . . وبحثه عن [الحكومة والإسلام فى صدر العصر الجاهلى الأول]، كتب سنة ١٩٦٢م . . [٥٠].

---

(٥٠) انظر ذلك فى الحديث عن أعمال هؤلاء المستشرقين : نجيب العقيقى، [المستشرقون] . طبعة دار المعارف ـ القاهرة ، سنة ١٩٦٤م .

«فالتوقع» الذى بنى عليه الدكتور الريس «ظنونه»، لا أساس له من الواقع والتحقيق! . .

(ب) الملاحظة الثانية: هى أن الدكتور الريس قد ناقش ـ فى كتابه الفذ [النظريات السياسية الإسلامية] ـ كل آراء المستشرقين فى الخلافة والحكومة الإسلامية والنظريات السياسية الإسلامية. . من « مرجوليوث» إلى « أرنولد» إلى «مكدونالد» إلى «سانتيلانا» إلى « موير» (٥١). . وناقش كذلك آراء على عبد الرازق(٥٢) . . ولم يكتشف فى هذا الكتاب، الذى أورد فيه آراء المستشرقين ـ حتى بلغاتهم الأصلية ـ وآراء على عبد الرازق ، أن كتاب على عبد الرازق هو نفس كتابات وآراء هؤلاء المستشرقين! ! . .

(جـ) والملاحظة الثالثة: هى أن دعاوى كتاب [الإسلام وأصول الحكم] هى دعاوى غير مسبوقة فى تاريخ الكتابة عن الإسلام والحكومة والسياسة على الاطلاق، سواء أكانت هذه الكتابة لمستشرقين أم لمسلمين. . لقد اختلف المستشرقون حول طبيعة دولة الخلافة الإسلامية. . «أوتوقراطية» ـ مستبدة؟ ـ أم «ثيوقراطية» ـ إلهية؟ـ. . أم «نوموقراطية» ـ حكومة «القانون»؟ـ. وكان مرجع خلافهم هو موضوع بحثهم ونظرهم: « الخلافة الواقعية» ـ الناقصة. . التى شابتها شوائب « التاريخ الإسلامى»؟ . . أم «الخلافة، كفكرة، وكقانون وكنظريات»؟ . . كما شخص القضية بعمق الدكتور الريس نفسه (٥٣) . . لكن أحدا من هؤلاء المستشرقين ـ ولا من غيرهم ـ لم يقل ماقاله كتاب [الإسلام وأصول الحكم]: إن الإسلام لا علاقة له بالملك والحكم والسياسة. . وإن رسول الإسلام لم يقم حكومة ولا دولة ولم يقد أمة، بالمعنى السياسى، ولم يطبق شريعة تجاوز بهاحدود البلاغ عن الله

---

(٥١) [النظريات السياسية الإسلامية] . ص ٢٩٩ ـ ٣٠٤، وص ٣٢٠ ـ ٣٢٦. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٠م.

(٥٢) المرجع السابق. ص ٣٢٦ ـ ٣٣٢. (٥٣) المرجع السابق . ص ٣٢٦ .

. . ففكر هذا الكتاب غير مسبوق فى هذا « الشذوذ» و«الابتداع»! ومن ثم فإن نسبته إلى كتابات أى من هؤلاء المستشرقين هو « ظن» لم يقم عليه دليل . . بل إن كتاباتهم عن الخلافة ـ والتى جاءت إبان إسقاطها ـ وليس أثناء الحرب العالمية الأولى ـ تنفى أى أساس لهذه « الظنون»!! . .

● فإذا جئنا إلى حقبة الثمانينيات ـ وإلى سنة ١٩٨٩م على وجه التحديد ـ وجدنا القضية تثار مرة أخرى ـ بل وعلى نحوٍ غير مسبوق! . .

فبعد أن نشرت كتابى [معركة الإسلام وأصول الحكم] (٥٤)، والذى ضمنته آراء على عبد الرازق . . ووثائق المعركة الفكرية التى أثارتها هذه الآراء . . ورد الشيخ محمد الخضر حسين بكتابه [نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم] على هذه الآراء . . وما قاله لى أكبر أبناء الشيخ على عبد الرازق ـ محمد ـ عن شروع والده، قبيل وفاته فى كتابة صفحات يوضح فيها حقيقة آرائه فى علاقة الدين بالدولة ـ وهى التى أسىء فهمها!! ـ وملابسات صدور كتابه سنة ١٩٢٥م ، الأمر الذى يوحى بتراجعه عن الآراء التى فهمت من الكتاب . . .

لما نشرت هذا الكتاب، كتبت ابنة الشيخ على ـ الدكتورة سعاد ـ مقالا بصحيفة [الوفد] نفت فيه تراجع أبيها عن آرائه الواردة والواضحة فى كتاب [الإسلام وأصول الحكم]!! . . ولما كنت أعلم الموقع والتوجه الفكرى للدكتورة سعاد ـ مدرسة الفلسفة بجامعة عين شمس ـ وهو الموقع والتوجه العلمانى، الذى يرعى أبناءه فى حقل الفلسفة الإسلامية الحبر الكاثوليكى الأب جورج قنواتى ـ من قاعدته الفكرية : « دير الآباء الدومينكان» بالقاهرة ـ فلقد آثرت أن يكون مقال الدكتورة سعاد مناسبة « للتحقق » من القضية . . قضية تراجع أو عدم تراجع على عبد الرازق عن الآراء الواردة فى كتابه . .

---

(٥٤) طبعة القاهرة ـ دار الشروق ـ سنة ١٩٨٩م .

فطلبت من أحد نبهاء المحررين فى صحيفة « الوفد» ـ الأستاذ عماد الغزالى، وهو من المتعاطفين فكريا مع العلمانية وكتاب على عبد الرازق ! ـ إن يجمع خيوط القضية، ويبحث لعلامات استفهامها عن إجابات لدى الأحياء الذين كانوا على علاقة بصاحب [الإسلام وأصول الحكم]، لتسجيل شهاداتهم عما سمعوه من الرجل حول هذا الموضوع. . وكانت الثمرة تحقيقا صحفيا، نشر فى [الوفد] على خمس حلقات. . شهد فيه الشيخ محمد الغزالى أن على عبد الرازق ـ وكان يصلى خلفه الجمعة بالجامع الأزهر ـ : « **قد أعرب لى فى العديد من اللقاءات عن أسفه وندمه الشديد إزاء ماجاء بكتابه. . وأنه قد عدل عن موقفه الوارد فيه، وخاصة فيما يتعلق بروحانية الرسالة الإسلامية، فقد أكد لى ـ [أى للشيخ الغزالى] ـ أنه لم يقصد ذلك على الإطلاق، لأن الإسلام ليس كهنوتيا، ولأنه دين ودولة**» ! . .

أما الدكتور محمد رجب بيومى، وهو واحد من علماء الأزهر . . وعميد سابق لكلية اللغة العربية ، فقد شهد بأن الشيخ على عبد الرازق قد رغب فى لقائه، بعد أن اشترك الشيخ على فى فحص كتاب الدكتور بيومى [الأدب الأندلسى بين التأثر والتأثير] ، فى لجنة الأدب بمجمع اللغة العربية. وفى اللقاء، الذى تم بمنزل الشيخ على، سأل الدكتور بيومى الرجل « عما جاء فى كتابه ـ [الإسلام وأصول الحكم] ـ من أن الإسلام رسالة روحية محضة» . . ويستطرد الدكتور بيومى ليحكى جواب على عبد الرازق فيقول: إنه « نفى بشدة ، ودعانى إلى البحث عن المقال المنشور فى مجلة [رسالة الإسلام] . . » ـ [وهو المقال الذى قال فيه إن عبارة : « الإسلام مجرد رسالة روحية» هى كلمة ألقاها الشيطان على لسانى. . وليست رأيى، ولم تكن رأيى فى يوم من الأيام! . .]ـ

ويضيف الدكتور بيومى ، فى « شهادته» فيقول : «وحينما قارنت المقال بآرائه الواردة فى الكتاب زادت حيرتى ، فهو فى الكتاب يعلن صراحة : أن

الإسلام دين لادولة ، ولكنه فى المقال يرى أن الكلمة تسربت على لسانه خطأ ، وأن الشيطان ألقى فى حديثه بتلك الكلمة . **وقد تأكد لدى ، بعد اللقاء ، أن الرجل تراجع . وكان عليه أن يكون صريحا فى التراجع ، دون أن يلف تراجعه فى أقنعة تكشف عما تستر»** (٥٥)!

أما الشهادة الثالثة ، فإنها كانت المفاجأة الكبرى ، التى فتحت فى قضية كتاب [الإسلام وأصول الحكم] بابا لا أظنه سيغلق فى عهد قريب!! . .

فلقد أدلى الشيخ أحمد حسن مسلم ـ وهو من علماء الأزهر . . وعضو لجنة الفتوى فيه ـ بشهادة قال فيها ، إنه فيما بين عامى ١٩٤٢ و١٩٤٨م ، كان يعمل واعظا بصعيد مصر . فى مركز بنى مزار . حيث بلدة « أبو جرج» ، بلدة الشيخ على عبد الرازق ـ وكان يوما فى قرية « المودة» ، القريبة من « أبوجرج» ، فانقطعت به سبل العودة إلى منزله ، فقرر الذهاب إلى «أبوجرج» فى ضيافة أسرة عبد الرازق . . وهناك التقى بالشيخ على . وبعد صلاة المغرب ، لاحظ الشيخ مسلم آيات الخشوع على الشيخ على عبدالرازق ، حتى إنه « تنفل» بعد المغرب بست ركعات ـ والعادة أداء السنة بركعتين فقط ـ الأمر الذى جعل الشيخ مسلم يسأل الشيخ عليّا :

« كيف يكون حرصك على أداء السنة بهذه الطريقة ، وأنت مؤلف كتاب [الإسلام وأصول الحكم] ، وهو كتاب عليه كثير من المآخذ التى تقدح فى العقيدة؟!» .

ويحكى الشيخ مسلم بقية الحديث فيقول :

« فسكت الشيخ على عبد الرازق قليلا ، وقال لى :

ـ وهل أنا الذى ألفت هذا الكتاب؟! إنما ألفه الدكتور طه حسين!

---

(٥٥) وانظر أيضا للدكتور محمد رجب بيومى : [كتاب الإسلام وأصول الحكم فى الميزان] . ص ٦٢ ـ ٦٤ ـ ملحق « مجلة الأزهر» ـ صفر ، سنة ١٤١٤هـ .

فسألته :

ـ ولماذا نسبه إليك؟!

فقال الشيخ على عبد الرازق :

ـ لقد فاجأنى بالكتاب وعليه اسمى . ولما سألته عن سبب ذلك ـ [أى لما سأل على عبد الرازق طه حسين] ـ أجاب طه حسين ، مازحا :

ـ «لكى تكون لك شهرة عالمية ، وذلك بعد أن تنقل عنك وسائل الإعلام الأجنبية والعالمية ، وتتحدث عن هذا الكتاب ومابه من فكر !!» .

ولقد سأل الشيخ مسلم الشيخ على عبد الرازق ، عن السبب فى كتمانه هذه الحقيقة ، وخاصة بعد أن تعرض لما تعرض له بسبب هذا الكتاب ، الذى لاعلاقة له به . . فكان جواب الشيخ على عبدالرازق ـ كما ورد فى شهادة الشيخ مسلم ـ وبأسلوب الحكاية :

ـ « إن أخلاقه أبت عليه أن يرفع قضية على صديق لعائلته . . كما أن تقاليد العائلة تمنع من إحراج الضيف أو وضعه فى موقف غير كريم»[56]؟! . .

تلك هى الشهادة « المفاجأة» . . بل « القنبلة»!! . . والتى فتحت فى قضية كتاب [الإسلام وأصول الحكم] بابا سيظل مستعصيا على الإغلاق ، وخاصة بعد أن أصبح « الفاعلون الأصليون» فى ذمة الله . . ولم يبق على «المسرح» سوى « الرواة»!! . .

---

(٥٦) وانظر كذلك هذه الشهادة فى صحيفة « الجمهورية» ـ القاهرية ـ عدد ٢٨ ـ ٥ ـ ١٩٩٣م .
ولقد كتب الشيخ مسلم شهادته هذه بخطه ـ كعضو فى مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ـ عندما جرى الحديث حول كتاب [الإسلام وأصول الحكم] بمناسبة طبعته الجديدة ، سنة ١٩٩٣م ، فى سلسلة كتب « التنوير ـ المواجهة» . وتاريخ هذه الشهادة المكتوبة بخطه ـ ولدينا صورة منها ـ هو ١٢ يونية سنة ١٩٩٣م .

وإذا كنا لا نملك ولا نستطيع « قبول» هذه الشهادة على إطلاقها . . ولا « رفضها» أيضا على الإطلاق . . فإن ما لدينا الآن هو حقائق تشكك فى «قبولها على إطلاقها»، وتدعو إلى البحث عن الوقائع والأدلة التى تقيد إطلاقها الغريب وأبعاد دلالاتها الأكثر غرابة ! ! . . والحقائق التى تشكك فى « رواية» الشيخ مسلم ـ بصرف النظر عن انصراف الشك إلى « روايته هو» أو إلى « قول على عبد الرازق له» ـ فذلك أمر لا نملك عليه دليلا ! ـ . . هذه الحقائق مصدرها هو الشيخ على عبد الرازق نفسه . . وهى تقول: إن الرجل، وإن شهد فكره وشهدت مواقفه ـ التى سبق رصدنا لها ـ أنه قد تراجع عن المقولة المحورية للكتاب، وهى أن الإسلام رسالة روحية لا علاقة لها بالحكم والدولة والسياسة . . ورغم إصراره المستلفت للنظر على أن هذا الرأى لم يكن رأيه فى يوم من الأيام، وأنه لم يقله ولم يقل ما يشبهه ولا ما يدانيه حتى فى هذا الكتاب الذى يحمل اسمه . . إن هذا الرجل قد ظل، فى مواقفه المعلنة والمسجلة، معترفا بأن هذا الكتاب هو كتابه هو، وليس كتاب طه حسين ـ كما تقول « رواية . . وشهادة » الشيخ مسلم! . .

ففى بداية « محاكمة» هيئة كبار العلماء للشيخ على عبد الرازق . . سأله رئيس الهيئة وشيخ الأزهر الأستاذ الأكبر الشيخ محمد أبو الفضل الجيزاوى، وهو ممسك الكتاب بيمينه :

ـ « الكتاب ده كتابك؟

ـ [الشيخ على]ـ : أيوه كتابى .

ـ الشيخ أبو الفضل ـ : وأنت مصمم على كل اللى فيه؟

ـ الشيخ على ـ : أيوه مصمم على كل اللى فيه» (٥٧) .

---

(٥٧) جريدة « السياسة» اليومية، العدد ٨٦٥، فى ١٣ أغسطس، سنة ١٩٢٥م . وانظر وصف جلسة المحاكمة ووقائعها فى كتابنا [معركة الإسلام وأصول الحكم]، ص ٨٨ ـ ٩٢ . طبعة دار الشروق ـ القاهرة، سنة ١٩٨٩م .

ولقد ظل هذا هو الموقف المعلن والثابت لعلى عبد الرازق بالنسبة لعلاقته بكتاب [الإسلام وأصول الحكم]. . ففى آخر لقاء صحفى تم معه. . وهو الذى قام به الأستاذ محمود أمين العالم فى منتصف سنة ١٩٦٦م. . أى قبل أقل من أربعة أشهر على وفاته فى ٢٣ من سبتمبر سنة ١٩٦٦م . . ذهب الأستاذ العالم ، وكان عضوا بالتنظيم الطليعى للاتحاد الاشتراكى ـ طليعة الاشتراكيين ـ ويعمل بمؤسسة « دار الهلال» . . وكان المناخ الفكرى فى أعقاب محاكمة الشهيد سيد قطب [١٣٢٤ ـ ١٣٨٦هـ، ١٩٠٦ ـ ١٩٦٦م]!! ذهب إلى على عبد الرازق ، معاودا الإلحاح عليه أن يأذن بإعادة طبع كتابه [الإسلام وأصول الحكم]. . وفى هذا اللقاء ـ الذى نشره الأستاذ العالم (٥٨)ـ ظل على عبد الرازق على موقفه :

● الاعتراف بأن هذا الكتاب كتابه . . وأنه لم يتخل عنه !. .

● ورفض الإذن بإعادة طبعه، مخافة أن يلاقى بسبب ذلك أذى جديدا. . إذ لا ضمانات تجعله بمأمن من أن يلاقى مثلما لاقى من نشر هذا الكتاب!. .

لقد قال للأستاذ العالم ـ بعد إلحاحه عليه أن يأذن لدار الهلال فى إعادة طبع الكتاب :

ـ اطبعوا الكتاب كما تشاءون، ولكن دون استئذانى. ما أريد أن أحمل أى مسئولية فى ذلك.

فلما قال له الأستاذ العالم:

ـ ولكنه كتابك ياسيدى، كتابك الجدير بالفخر والاعتزاز. . هل تتخلى عنه؟!. .

---

(٥٨) مجلة « المصور » ، فى ٧ أكتوبر سنة ١٩٦٦م.

كانت إجابة الشيخ :

ـ **لا . . لست أتخلى عنه ، ما تخليت عنه أبدا** . على أنى لست مستعدا أن ألاقى بسببه أى أذى جديد . ما عدت أستطيع ذلك . كفانى ما لاقيت .

فقال له العالم . ليغريه بتغيير موقفه :

ـ لقد انتهى ذلك العهد البغيض . ولن تلقى اليوم ، ولن يلقى كتابك غير التكريم والتقدير والإشادة من المفكرين ومن الدولة على السواء .

كان جوابه :

ـ من يدرينى؟ من يدرينى؟ أريد توكيدا من الدولة ، أريد ضمانا .

فقال العالم :

ـ إن واقعنا الفكرى والاجتماعى الجديد هو خير ضمان . .

فهز على عبد الرازق رأسه ، وقال :

ـ لم أعد أحتمل أى مغامرة جديدة . . من يدرى؟ . . اطبعوا الكتاب على مسئوليتكم ، ولا تطلبوا منى إذنا بغير ضمان أكيد أطمئن إليه . . !! .

ففى هذا اللقاء ، الذى تم قبل أقل من أربعة أشهر من وفاة الرجل ، ظل الرجل ـ مع إصراره على عدم إقامة العلاقة بينه وبين طبعة جديدة للكتاب ـ معترفا بأنه كتابه . . «**لست أتخلى عنه ، ما تخليت عنه أبدا**»! . . الأمر الذى يدعو إلى «التوقف» و«البحث» فى « رواية» الشيخ أحمد حسن مسلم ، التى روى فيها عن على عبد الرازق قوله : «**وهل أنا الذى ألفت هذا الكتاب؟! إنما ألفه الدكتور طه حسين**»!!

على أن لقائل أن يقول : إن الشيخ على عبد الرازق قد أطلع عالم الأزهر الشيخ أحمد مسلم على « السر» الذى لم يكن ليطلع عليه المفكر الماركسى . .

عضو التنظيم الطليعى، محمود أمين العالم . . وأن هذا « السر» ربما كان هو موضوع الصفحات التى هم الرجل بكتابتها أواخر حياته، أمام الإلحاح على إعادة طبع الكتاب، وفق رواية أكبر أبنائه محمد، وهى الرواية التى سبقت إشارتنا إليها . .

لكن ذلك كله يظل فى إطار « الظنون» و«التخمينات» . . وفى أحسن الأحوال « الاستنتاجات» . . ولا يرقى شىء منه لمستوى الوقائع والأدلة التى يطمئن إليها « التحقيق » فى مثل هذا الأمر الخطير. . أمر المؤلف الحقيقى لكتاب [الإسلام وأصول الحكم] . . أهو على عبد الرازق؟ . . أم الدكتور طه حسين؟ . . ثم لماذا لم يبح بهذا « السر» للشيخ الغزالى؟ . . واكتفى بتأكيد تراجعه عما جاء بالكتاب؟ . .

● وإذا كنا لا نملك الأدلة التى تجعلنا نقبل كامل « رواية » الشيخ أحمد مسلم . . **فإن لدينا من الأدلة مايجعلنا نقول بوجود « علاقة» بين الدكتور طه حسين وبين هذا الكتاب** . . وهى « أدلة» تخطو بنا خطوات على درب تبديد الغموض المحيط بهذا الموضوع ! . .

وهذه الأدلة ستبدأ بما جاء فى كتاب صغير، لكنه هام . . وعنوانه [طه حسين يتحدث عن أعلام عصره]، لأخينا وصديقنا الدكتور محمد الدسوقى ـ أستاذ الشريعة بجامعة قطر ـ وهو عبارة عن آراء وكلمات للدكتور طه حسين، دونها الدكتور الدسوقى إبان عمله « سكرتيرا مجمعيا» للدكتور طه حسين . . عندما كان طه حسين رئيسا لمجمع اللغة العربية، وكان الدكتور الدسوقى يعمل بالمجمع، وعهدت إليه مهمة قراءة الكتب والصحف والرسائل للدكتور طه ـ وذلك ما بين سنة ١٩٦٤م وسنة ١٩٧٢م ـ . . وكان الدكتور الدسوقى ـ كما قال ـ «يكتب» كلمات طه حسين فور سماعها منه[٥٩]! . .

(٥٩) انظر هذا الكتاب [طه حسين يتحدث عن أعلام عصره] ـ طبعة دار المعارف، سلسلة « اقرأ» ، سنة ١٩٩٢م.

وفى هذا الكتاب أربع صفحات عن علاقة طه حسين بعلى عبد الرازق . . وبكتاب [الإسلام وأصول الحكم] . . نستطيع أن نخرج منها بالحقائق الآتية :

١ ـ على غير ما هو شائع من أن العلاقة كانت أصلا بين طه حسين و«أسرة» عبد الرازق . . يقول طه حسين لنا ، فى هذا الكتاب ، إن العلاقة بدأت بينه وبين على عبد الرازق ، منذ مرحلة طلبهما العلم فى الجامع الأزهر، ثم أصبحت مع « الأسرة» . . وفى ذلك يقول الدكتور طه : «**عرفت الأستاذ على عبد الرازق منذ أيام الطلب فى الأزهر،** ولم تقتصر علاقتى به وحده ، فقد شملت الأسرة كلها . وكانت لنا جلسات ممتعة فى بيت آل عبد الرازق ، فى عابدين . وأذكر أنى رثيت والدة على عبد الرازق ، وكذلك والده ، وكان هذا الرثاء شعرا ، ونشر فى الجريدة . . » . .

ويحدد طه حسين عمق العلاقة بينه وبين على عبد الرازق ، ودوام الصلة والزمالة ، منذ كانا طالبين بالأزهر، فيقول : «**إن صلتى بعلى عبد الرازق كانت وثيقة جدا . وأذكر أن عليا ، وهو طالب فى الأزهر، قد استأجر حجرة قرب الأزهر ليستريح فيها بين الدروس ، نظرا لبعد منزل الأسرة عن الأزهر. وكان يصر على أن أذهب معه إلى هذه الحجرة طوال فترة بقائه فيها ، وكنا نقضى الوقت فى مذاكرة بعض العلوم وقراءة كتب الأدب**» (٦٠) .

فنحن أمام « علاقة حميمة» و«تلازم» بينهما منذ مرحلة « المجاورة» فى الأزهر . . سبقت علاقة طه حسين بالأسرة ، واستمرت معها ، بل وكانت السبب فيها . . وهى علاقة فيها ، إلى جانب الصداقة ، الفكر . . الذى بدأ « بمذاكرة بعض العلوم وقراءة كتب الأدب» إبان طلبهما للعلم بالأزهر . .

---

(٦٠) المرجع السابق . ص ٦٩ ، ٧٠ .

٢ ـ وفى يوم ١٧ ـ ١١ ـ ١٩٧٠م، قرأ الدكتور محمد الدسوقى على الدكتور طه حسين دراسة نشرتها مجلة «آخر ساعة» ، للأستاذ محمود عوض ، عن كتاب [الإسلام وأصول الحكم]، وفيها إشارة إلى مقال كتبه الدكتور طه دفاعا عن الكتاب ـ فى صحيفة « السياسة» ـ بعد الحكم على مؤلفه ـ سنة ١٩٢٥م ، فعلق الدكتور طه على هذه الإشارة بقوله :

« لقد كتبت مقالين فى « السياسة» عن هذا الموضوع، وهاجمت شيوخ الأزهر لتجريدهم الشيخ على عبد الرازق من درجة العالمية، وإبعاده من القضاء الشرعى، وخاصمت بعض هؤلاء، مع اعترافى بفضلهم على، مثل الشيخ سيد المرصفى، بسبب اشتراكه فى محاكمة الشيخ على» . .

ثم استطرد الدكتور طه ، متحدثا عن دور الملك فؤاد [١٢٨٥ - ١٣٥٥هـ، ١٨٦٨ ـ ١٩٣٦م] فى المعركة التى دارت حول كتاب [الإسلام وأصول الحكم] ، فقال: « إن الملك فؤادا كان يروج لفكرة الخلافة الإسلامية ، بعد إلغاء هذه الخلافة فى تركيا، وكان يطمع فى أن يصبح خليفة للمسلمين، فجاء هذا الكتاب ليحارب هذه الفكرة، **لأنه** [**أى الكتاب**] **ينتهى إلى أن الإسلام دين لا دولة، وأن الرسول، ﷺ ، ماكان إلا رسولا لدعوة دينية خالصة للدين لا تشوبها نزعة ملك ولا حكومة ، وأنه، ﷺ ، لم يقم بتأسيس مملكة بالمعنى الذى يفهم سياسة من هذه الكلمة ومرادفاتها**» .

ويستلفت نظرنا فى هذه العبارة التى لخص فيها طه حسين ما انتهى إليه كتاب الإسلام وأصول الحكم . . أنها ـ أى العبارة ـ هى نص حرفى لسطور من الكتاب، كانت محفورة فى ذاكرة الرجل ، الذى لم يكن قارئا [٦١]!! . . وبين زمن « الإملاء» وتأليف الكتاب قرابة نصف القرن من الزمان!! . .

فلما سأله الدكتور الدسوقى :

ـ هل تقر ما قاله الشيخ على عبد الرازق فى هذا الموضوع الخطير؟

---

(٦١) انظر هذه العبارة فى كتاب : [الإسلام وأصول الحكم] . ص ٦٤ ، ٦٥ .

أجاب :

ـ «هذا رأيه» . .

لكنه كرر ـ دفاعا عن هذا الرأى ـ الاشارة، مجددا، إلى دور الملك فؤاد فى معركة [الإسلام وأصول الحكم] بل ومعركة كتاب [فى الشعر الجاهلى] ـ للدكتور طه ـ . . فقال :

ـ « هذا رأيه ، وما كان يجب محاكمته بسببه . والواقع أن الملك كان من وراء محاكمة الشيخ على، كما كان من وراء ما أثير حول كتاب [فى الشعر الجاهلى]. . » .

وفى سياق هذا الحديث ، قال الدكتور طه حسين العبارة، التى نعتبرها مفتاح باب العلاقة بينه وبين كتاب [الإسلام وأصول الحكم]، العلاقة الفكرية ، التى تدخل فى صميم المشاركة فى الفكر الذى حمله هذا الكتاب ، وليس مجرد الدفاع عنه بعد صدوره مطبوعا . . قال الدكتور طه :

« . . على أنى قرأت أصول كتاب الشيخ على ، قبل طبعه ، ثلاث مرات ، وعدّلت فيه كثيرا»(٦٢) .

فنحن أمام اعتراف من الدكتور طه حسين بأن كتاب [الإسلام وأصول الحكم] هو لعلى عبد الرازق . . مع الإقرار بأن لطه حسين دورا فى « تأليفه» ـ وليس فى «تصحيحه» ـ فهو قد قرأ « أصوله» وليس «تجارب طبعه» . . وقرأ هذه « الأصول » «ثلاث مرات» . . و« عدل» ـ وليس « صحح» ـ فيها «كثيرا» ـ وليس « قليلا» ـ !! . . فهذا الكتاب ، إذن ـ وبعد هذا الاعتراف ـ هو «شركة» بين على عبد الرازق وبين طه حسين . . وإذا كان على عبد الرازق قد قال : « إنه كتابى . لست أتخلى عنه . ما تخليت عنه أبدا . . » . . فإن طه حسين قد قال إن له فيه إسهاما ، بالتعديلات الكثيرة التى أدخلها عليه ،

---

(٦٢) المرجع السابق . ص ٧٠ ، ٧١ .

ثلاث مرات، وهو فى طور «الأصول . . والتأليف» . . فليس الكتاب بالخالص لعلى عبد الرازق وحده . . ولا هو بالخالص للدكتور طه حسين! ! . .

● وهنا . . وعند هذا الحد من تحقيق هذه القضية، علينا أن نسأل :

أى أفكار هذا الكتاب وأبوابه هى الأقرب إلى أن تكون إسهام على عبدالرازق فيه ؟ . . وأيها هى الأقرب إلى إسهام طه حسين؟ . .

نحن ندرك، بالطبع، أن الإجابة الدقيقة، والممثلة لكامل الحقيقة، لا يملكها إلا الرجلان أو أحدهما . . ولقد أصبحا معا فى رحاب الله . . ولذلك، فسنعتمد على أدوات « التحقيق الفكرى»، الذى «يقترب» بنا مما نراه الصواب فى هذا الجواب . . وهو تحقيق نسوقه فى هذه النقاط :

١ ـ إن الأفكار المحورية فى كتاب [الإسلام وأصول الحكم] تدور حول محورين رئيسين :

(أ) محور « الخلافة»، وعلاقتها بالإسلام ـ وهذا المحور هو موضوع «الكتاب الأول » بأبوابه الثلاثة . . و « الكتاب الثالث » بأبوابه الثلاثة . .

(ب) ومحور « السياسة»، وعلاقتها بالإسلام ـ وهذا المحور هو موضوع «الكتاب الثانى» بأبوابه الثلاثة . .

٢ ـ وبالنسبة للخلافة، يقدم لها الكتاب صورة سوداوية، تنفر الناس منها كل النفور . . وتقطع أية صلة بينها وبين الإسلام . . فهى استبداد باسم الدين، وثيوقراطية تغتصب وتحتكر سلطان الله والرسول . . وبنصوص الكتاب . . **فإن الخليفة « ولايته عامة ومطلقة، كولاية الله تعالى، وولاية رسوله الكريم . . »[٦٣] . و«استمداد الخليفة لسلطانه من الله تعالى مذهب جار على الألسنة، فاش بين المسلمين[٦٤] . . » . . وهذه الخلافة « لم ترتكز إلا على أساس القوة الرهيبة . وإن تلك القوة كانت، إلا فى النادر، قوة مادية**

---

(٦٣) المرجع السابق . ص ٤ . (٦٤) المرجع السابق . ص ٩ .

مسلحة . . »[٦٥] . . تستوى فى ذلك عهودها الراشدة وغير الراشدة ، الكاملة منها والناقصة . . فحتى خلافة الصديق أبى بكر كانت كذلك . . « . . وإذا أنت رأيت كيف تمت البيعة لأبى بكر . تبين لك . . أنها إنما قامت . . على أساس القوة والسيف . . »[٦٦] . . ولقد كانت علاقة المسلمين بخلفائهم هى علاقة «الخضوع الوثنى لجلالهم الدينى المزعوم»[٦٧] . . ولذلك «كانت الخلافة ولم تزل نكبة على الإسلام وعلى المسلمين، وينبوع شر وفساد . . »[٦٨] !! . .

تلك هى صورة الخلافة الإسلامية فى كتاب [الإسلام وأصول الحكم] . .

٣ ـ وهذه الصورة للخلافة الإسلامية هى أبعد ماتكون عن صورتها فى الأعمال الفكرية المحقق نسبتها إلى الدكتور طه حسين . .

فهو فى الجزء الأول من كتابه عن [الفتنة الكبرى] يقول عن الخلافة الإسلامية : «وما من شك فى أن خليفة من خلفاء المسلمين ما كان ليفرض نفسه وسلطانه عليهم فرضا إلا أن يعطيهم عهده ويأخذ منهم عهدهم ، ثم يمضى فيهم الحكم بمقتضى هذا العقد المتبادل بينه وبينهم . . فالخلافة عهد بين المسلمين وخلفائهم . . إن أمر الخلافة كله قام على البيعة ، أى على رضا الرعية ، فأصبحت الخلافة عقدا بين الحاكمين والمحكومين ، يعطى الخلفاء على أنفسهم العهد أن يسوسوا المسلمين بالحق والعدل ، وأن يرعوا مصالحهم ، وأن يسيروا فيهم سيرة النبى ما وسعهم ذلك ، ويعطى المسلمون على أنفسهم العهد أن يسمعوا ويطيعوا وأن ينصحوا ويعينوا . . » . ولذلك ، فإن الرأى القائل بأن هذا النظام « إنما هو النظام الثيوقراطى الإلهى . . هو أبعد الآراء عن الصواب» [٦٩] . .

---

(٦٥) المرجع السابق . ص ٢٥ .
(٦٦) المرجع السابق ، ص ٩٢ .
(٦٧) المرجع السابق . ص ٣٨ .
(٦٨) المرجع السابق . ص ٣٦ .
(٦٩) د. طه حسين : [الفتنة الكبرى] ، جـ١ ـ عثمان ـ ص ٢٢ ، ٢٥ ـ ٢٧ . طبعة دار المعارف ـ القاهرة ، سنة ١٩٨٤م . ،

فصاحب هذا الرأى فى الخلافة الإسلامية لايمكن أن يكون هو كاتب وراسم صورتها البائسة الكئيبة التى جاءت بكتاب [الإسلام وأصول الحكم] . .

٤ ـ أما محور السياسة وعلاقتها بالإسلام، والذى خصص له كتاب [الإسلام وأصول الحكم] « الكتاب الثانى » ، بأبوابه الثلاثة ، فإنه يجعل الإسلام كالمسيحية، دينا لا دولة، ورسالة لا حكما . . ويصف عبارة الإنجيل: «أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله» بأنها «الكلمة البالغة»[٧٠]!! . . ويجعل الإسلام رسالة دينية خالصة للدين، لا سياسة فيها . . وبلاغا محضا، لا أثر فيها للتنفيذ والتطبيق والإقامة للشرائع . . ويصور رسول الإسلام، ﷺ، كالخالين من الرسل، لم يقم دولة، ولم يرأس حكومة، ولم يسس أمة « . . فما كان إلا رسولا لدعوة دينية خالصة للدين، لا تشوبها نزعة ملك، ولا دعوة لدولة. ولم يكن للنبى ملك ولا حكومة، ولم يقم بتأسيس مملكة بالمعنى الذى يفهم سياسة من هذه الكلمة ومرادفاتها . ما كان إلا رسولا كإخوانه الخالين من الرسل، وما كان ملكا ولامؤسس دولة ولا داعيا إلى ملك [٧١]. . فولاية الرسول على قومه ولاية روحية . . وولاية الحاكم مادية . . تلك زعامة دينية، وهذه زعامة سياسية . ويا بعد ما بين السياسة والدين . . »[٧٢]!!

٥ ـ وهذا الرأى ـ الذى جاء بكتاب [الإسلام وأصول الحكم] ـ عن علاقة الإسلام بالسياسة، والذى جعل الإسلام رسالة روحية محضة ودينية خالصة من السياسة والدولة والحكم والتنفيذ، والذى أحال جميع ذلك إلى «العقل والتجريب» دون الدين، «فهى خطط سياسية صرفة لا شأن للدين بها . . نرجع فيها إلى أحكام العقل وتجارب الأمم وقواعد السياسة . . »[٧٣].

---

(٧٠)[الإسلام وأصول الحكم]، ص ٤٩ . (٧١) المرجع السابق . ص ٦٤، ٦٥ .
(٧٢) المرجع السابق. ص ٦٩ . (٧٣) المرجع السابق. ص ١٠٣

هذا الرأى هو الذى كان الشيخ على عبد الرازق دائم الإصرار على أنه ليس رأيه، لم يقله، ولم يكتبه، لا فى كتاب [الإسلام وأصول الحكم] ولا فى غيره . . بل ودائم الإصرار على أنه لم يقل شيئا يشبهه أو يدانيه . . صنع ذلك منذ أن قدم دفاعه فى مذكرة مكتوبة إلى هيئة كبار العلماء أثناء مساءلته ومحاكمته تأديبيا فى أغسطس سنة ١٩٢٥م (٧٤). . وحتى مقاله فى مجلة «رسالة الإسلام» ـ مايو سنة ١٩٥١م ـ والذى قال فيه « إن فكرة روحانية الإسلام لم تكن رأيا لى يوم نشرت البحث المشار إليه ـ [كتاب الإسلام وأصول الحكم] . . ولقد رفضت يومئذ رفضا باتا أن يكون ذلك رأيى . . إننى لم أقل ذلك مطلقا لا فى هذا الكتاب ولا فى غيره، ولا قلت شيئا يشبه ذلك الرأى أو يدانيه» .

ثم عزا تسرب كلمة « إن الإسلام رسالة روحانية فقط» إلى لسانه فى حواره مع الدكتور أحمد أمين، إلى « أن هناك خطأ فى التعبير جرى به لسانى . . وما أدرى كيف تسربت كلمة روحانية الإسلام إلى لسانى يومئذ، ولم أرد معناها، ولم يكن يخطر لى ببال؟ . بل لعله الشيطان ألقى فى حديثى بتلك الكلمة . . وللشيطان أحيانا كلمات يلقيها على ألسنة بعض الناس» (٧٥)!!

فالرجل عاش يتبرأ من هذا الفكر الذى يجرد الإسلام من السياسة والدولة والتنفيذ، ويقف به عند حدود الروحانية والبلاغ . . وهو الفكر الواضح وضوح الشمس فى رائعة النهار بكتاب « الإسلام وأصول الحكم]!! . .

٦ ـ وهذا الفكر الذى يجرد الإسلام من السياسة ـ والذى يبرأ منه على عبدالرازق ـ هو فكر الدكتور طه حسين فى أعماله الفكرية التى لا شبهة فى إبداعه لها إبداعا خالصا ومستقلا! . .

---

(٧٤) انظر نص هذه المذكرة بكتابنا : [معركة الإسلام وأصول الحكم] ، ص ٩٣ ـ ١٠١ .

(٧٥) مقال « تعقيب على مقال : الاجتهاد فى الإسلام» ، بقلم على عبد الرازق . مجلة « رسالة الإسلام»، عدد مايو، سنة ١٩٥١م .

ففى كتاب[مستقبل الثقافة فى مصر] ـ وهو الذى نشر سنة ١٩٣٨م ـ ينفى طه حسين علاقة الدين بالسياسة . . فيقول : «**إن السياسة شىء والدين شىء آخر، وإن نظام الحكم وتكوين الدول إنما يقومان على المنافع العملية قبل أن يقوما على أى شىء آخر. . وهذا أصل من أصول الحياة الحديثة** . . »(٧٦) بل ويرى هذا « الأصل» أقدم من الحياة الحديثة ، فيقول : « . . **ومن المحقق أن تطور الحياة الإنسانية قد قضى منذ عهد بعيد بأن وحدة الدين، ووحدة اللغة، لا تصلحان أساسا للوحدة السياسية ولا قواما لتكوين الدول** . » (٧٧)!

ولا يرى طه حسين الإسلام متميزا عن النصرانية بالشريعة المنظمة لشئون الدنيا، والحاوية لفلسفة قانونية هى وضع إلهى، ولحدود ومعالم ضابطة لمقاصد العمران البشرى ومساراته الأساسية. . بل يرى التماثل تاما بين الإسلام والنصرانية التى اتفق الجميع ـ من أهلها وغير أهلها ـ على أنها رسالة روحانية محضة، فيقول : «**إن جوهر الإسلام ومصدره هما جوهر المسيحية ومصدرها . . والإسلام قد جاء متمما ومصدقا للتوراة والإنجيل . . والقرآن إنما جاء متمما ومصدقا لما فى الإنجيل . . وإن بين الإسلام والمسيحية تشابها فى التاريخ عظيما** . . »(٧٨)!!

ونفس الفكر، الذى ينفى علاقة الإسلام بالسياسة ، ويجعله نصرانية تدع ما لقيصر لقيصر وما لله لله ـ وهو الذى رأيناه فى [الإسلام وأصول الحكم] وفى [مستقبل الثقافة فى مصر] ـ نجده فى كتاب [الفتنة الكبرى] لطه حسين!! . . ففيه يقول عن أن الإسلام هو دين فقط : « كان الإسلام وما زال دينا قبل كل شىء وبعد كل شىء، وجه الناس إلى مصالحهم فى الدنيا وفى

(٧٦) [مستقبل الثقافة فى مصر] . جـ١، ص ١٧ .
(٧٧) المرجع السابق . جـ١ ص ١٦ .
(٧٨) المرجع السابق . جـ١ ص ٢٣، ٢٩، ٢٢ .

الآخرة بما بين لهم من الحدود والأحكام التى تتصل بالتوحيد أولا، وبتصديق النبى ثانيا، وبتوخى الخير فى السيرة بعد ذلك . . » (٧٩) .

فما عدا « التوحيد» و«النبوة» ـ فى الإسلام ـ مجرد « أخلاق»!! . .

وعنده «أن القرآن لم ينظم أمور السياسة تنظيما مجملا أو مفصلا، وإنما أمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ونهى عن الفحشاء والمنكر والبغى، ورسم لهم حدودا عامة، ثم ترك لهم ـ [للناس] ـ تدبير أمورهم كما يحبون على ألا يتعدوا هذه الحدود ، وأن النبى نفسه لم يرسم بسنته نظاما للحكم ولا للسياسة. . ولو قد كان للمسلمين نظام سياسى منزل من السماء لرسمه القرآن أو لبين النبى حدوده وأصوله، ولفرض على المسلمين الإيمان به والإذعان له فى غير مجادلة ولا مناضلة ولا مماراة . . »(٨٠) .

فليس فى القرآن ولا فى السنة نظام للسياسة أو الحكم، مجملا كان هذا النظام أو مفصلا. . وتدبير ذلك متروك لما يحب الناس، بشرط ألا يتعدوا ماجاء به الإسلام من « أخلاق»!! . .

أما هذه المماثلة بين الإسلام والنصرانية فى التجرد من السياسة والحكم والإدارة والتشريع ، والتى تحدث عنها [الإسلام وأصول الحكم] و[مستقبل الثقافة فى مصر] ، فإن كتاب [الفتنة الكبرى] يؤكد عليها، فيقول فيه طه حسين: «فليس بين الإسلام وبين المسيحية فرق من هذه الناحية. فالإسلام دين يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويوجه إلى الخير ويصد عن الشر، ويريد أن تقوم أمور الناس على العدل وتبرأ من الجور ، ثم يخلى بعد ذلك بينهم وبين أمورهم يدبرونها كما يرون ماداموا يرعون هذه الحدود. ولا تزيد المسيحية على هذا ولا تنقص منه. ولأمر ما ،قال عيسى عليه السلام للذين

---

(٧٩) [الفتنة الكبرى]. جـ١ ـ عثمان ـ ص ٢٢ ، ٢٣ .

(٨٠) المرجع السابق . جـ١ ، ص ٢٤ ، ٢٥ .

جادلوه من بنى إسرائيل: « أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله» [81]! . .

هكذا وجدنا: أن ما تبرأ منه على عبد الرازق، من كتاب [الإسلام وأصول الحكم]، قد تبناه طه حسين فى [مستقبل الثقافة] و[الفتنة الكبرى]. . فهل يكون « الكتاب الثانى» ـ بأبوابه الثلاثة ـ من كتاب [الإسلام وأصول الحكم] ـ والذى تحدث عن « نظام الحكومة فى عصر النبوة» وعن « الرسالة والحكم» ليخلص إلى أن الإسلام: «رسالة لا حكم، ودين لا دولة»[82] ـ هو إسهام طه حسين فى هذا الكتاب، وثمرة « التعديلات الكثيرة» التى أدخلها فى أصول هذا الكتاب، ثلاث مرات، قبل طبعه؟! . .

لعلنا بهذا « التحقيق» لوقائع هذه القضية، فى غيبة أصحابها الأصليين. . وبهذه الإجابات عن علامات استفهامها، بعد وفاة صناع علامات الاستفهام هذه. . لعلنا، بذلك، أن نكون قد اقتربنا كثيرا من اليقين، الذى تطمئن إليه القلوب. . نقول « اقتربنا» . . ولا نزيد!! . .

* * *

● وهناك مشكلة أخرى من مشكلات هذا الكتاب، قد ترجع إلى تعدد كُتّابه ومؤلفيه، وهى مشكلة المتناقضات الفكرية التى يمكن أن يلحظها المتأمل فيه. . ففى القضية الواحدة ترد عبارات وصياغات متفرقة بينها تفاوت، وأحيانا تناقض فى المفاهيم والدلالات!! . .

ولقد أرجع الدكتور ضياء الدين الريس هذه المتناقضات إلى « سوء نية الكاتب، الذى أودع كتابه الشىء ونقيضه، ليفتح لنفسه أبواب المراوغة والهروب من الاتهامات التى توقعها!! . . فقال ـ فى معرض نقده القاسى للكتاب: « . . والأسلوب الذى كتب به الكتاب أسلوب غريب، ليس

---

(81) المرجع السابق. جـ1، ص 27.

(82) وهذه الجزء يشغل فى الكتاب صفحات: 39 ـ 80.

مألوفا فى الكتب العربية. فهو أسلوب مناورات ومراوغة، ويتصف بالالتواء واللف والدوران. فهو يوجه الطعنة أو يلقى بالشبهة، ثم يعود فيتظاهر بأنه ينكرها ولا يوافق عليها ويفلت منها. على طريقة « اضرب واهرب». . وهذا ينم عن أسلوب رجل سياسى متمرن على المحاورة والمخادعة . . »(٨٣).

وإذا كنا لا نختلف على احتواء الكتاب على العديد من المفاهيم والدلالات المتناقضة، فى القضية الواحدة، فهل يكون مرجع هذه التناقضات تعدد وتمايز رؤى الذين أسهموا فى تأليف هذا الكتاب؟! . . وليس مجرد «المراوغة والمناورة»؟! . .

إن الأمر المؤكد هو احتواء الكتاب على الكثير من المتناقضات. . ومن نماذجها:

١ ـ فى الحديث عن خلافة أبى بكر الصديق وزعامته، يصفها بأنها زعامة « من نوع لا دينى. . وإذا كانت الزعامة لا دينية، فهى ليست شيئا أقل ولا أكثر من الزعامة المدنية أو السياسية، زعامة الحكومة والسلطان. لا زعامة الدين»(٨٤) !! . .

وفضلا عن نفى علاقة خلافة أبى بكر وزعامته بالدين الإسلامى ـ وهو أمر لم يقل به مسلم ولامستشرق ـ قبل تأليف هذا الكتاب ـ فإن استخدام كلمة « لا دينية» و«لا دينى» فى وصف خلافة الصديق هو قذف للصاعقة على آذان المسلمين ووجدانهم! . . .

لكن المؤلف، يدور، بعيدا عن هذا التجريح، دورة كاملة، عندما يتحدث عن التزام أبى بكر بنهج الرسول ، ﷺ، واتباعه له دون ابتداع،

---

(٨٣) [الإسلام والخلافة فى العصر الحديث. نقد كتاب الإسلام وأصول الحكم] ، ص ٢٢٠، ٢٢١.

(٨٤) [الإسلام وأصول الحكم] ، ص ٩٠ .

حتى ليحكى كلمات أبى بكر التى خاطب بها الناس فقال: « أيها الناس، إنما أنا مثلكم، وإنى لا أدرى، لعلكم ستكلفونى ما كان رسول الله ﷺ يطيق. **إن الله اصطفى محمدا على العالمين، وعصمه من الآفات، وإنما أنا متبع ولست مبتدعا»** (٨٥)!

فهل الزعامة والخلافة « المتبعة» للرسول، ﷺ، ودون « ابتداع»، تكون زعامة وخلافة لا دينية؟!.. إننا أمام تناقض فى الحكم والتقييم!..

٢ ـ ومثال ثان على التناقضات الفكرية الواردة بالكتاب، أثناء الحديث عن الخلافة.. فهو يرفض منطق الفقهاء الذين يجعلونها « واجبا دينيا» لتوقف إقامة « الواجبات الدينية» ـ كواجبات وفروض « الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر» وصلاح الرعية ـ على إقامتها.. وما يتوقف عليه الفرض فهو فرض.. يرفض الكتاب هذه الحجة وهذا المنطق(٨٦)..

ثم يعود فيسلم بأن ما قام فى العهد النبوى من « عمل حكومى، ومظهر للملك والدولة.. إنما كان وسيلة من الوسائل التى كان عليه ﷺ أن يلجأ إليها، تثبيتا للدين وتأييدا للدعوة..» (٨٧)!

فيعترف بلزوم « الدولة» لـ « تثبيت الدين وتأييد الدعوة».. وإذا كان وجوب تثبيت الدين وتأييد الدعوة مما لا خلاف عليه ولا مرية فيه، فإن وجوب ما يلزم له ويتوقف عليه هو مثله فى الوجوب!!..

٣ ـ ومثال ثالث يجسد قمة التناقض، فى أخطر القضايا التى عرض لها الكتاب، وهى علاقة الإسلام بالسياسة والدولة والحكم.. وهى التى يسميها الكتاب « كبرى المعضلات.. فهى الأصل وما عداها فروع، وهى الأم وما عداها تبع» (٨٨).. وهى قضية: هل كان النبى، ﷺ: صاحب

---

(٨٥) المرجع السابق. ص ٩٤.
(٨٦) المرجع السابق. ص ١٣.
(٨٧) المرجع السابق. ص ٧٩
(٨٨) المرجع السابق. ص ٤٦

دولة سياسية ورئيس حكومة، كما كان رسول دعوة دينية وزعيم وحدة دينية أم لا ؟ . . » (٨٩) .

فهو، مرة، يثبت للرسول، ﷺ ، فى الأمة والمجتمع سلطانا هو جميع سلطان « الدولة. والحاكم. . والسياسى»، وأكثر كثيرا من هذا «السلطان». . سلطان « الدنيا . . والمادة» وسلطان «الدين . . والروح» . . فيقول : « . . **فلا شىء مما تمتد إليه يد الحاكم إلا وقد شمله سلطان النبى ﷺ ، ولا نوع مما يتصور من الرياسة والسلطان إلا وهو داخل تحت ولاية النبى ﷺ على المؤمنين**» (٩٠) .

فالرسول، هنا، « سلطان . . وحاكم . . وسياسى . . ورجل دولة» وله كل ما يتصور من أنواع الرياسة والسلطان . . وله أكثر من ذلك سلطان «الدين والروح» . .

بل إن الكتاب يبالغ كثيرا فيجعل للرسول سلطانا عاما وتاما لا يعترف المسلمون به لغير الله، وذلك من مثل: « الاتصال بالأرواح التى فى الأجساد. . ونزع الحجب ليطلع على القلوب التى فى الصدور. . وشق قلوب أتباعه ليصل إلى مجامع الحب والضغينة، ومنابت الحسنة والسيئة، ومجارى الخواطر، ومكامن الوساوس، ومنابع النيات، ومستودع الأخلاق» . . بل ويجعل للرسول « حق التصريف لكل قلب تصريفا غير محدود»(٩١)؟! . .

بعد هذه المبالغات ـ المرفوضة إسلاميا ـ والتى تجعل الرسول حاكما وسلطانا، وأكثر . . . نرى الكتاب يعود فيجرد الرسول ، ﷺ ، من أى سلطان فى الحكم والسياسة. . فيقول: « إن النبى، ﷺ ، لم يكن له شأن

(٨٩) المرجع السابق. ص ٤٧ .
(٩٠) المرجع السابق. ص ٦٨ .
(٩١) المرجع السابق . ص ٦٧.

فى الملك السياسى[٩٢] . . لم يكن له من الحق على أمته غير حق الرسالة . ولو كان ، ﷺ ، ملكا لكان له على أمته حق الملك أيضا . . لم يكن من عمله شىء غير إبلاغ رسالة الله تعالى إلى الناس، ولم يكلف شيئا غير ذلك البلاغ، وليس عليه أن يأخذ الناس بما جاءهم به، ولا أن يحملهم عليه»[٩٣].

وهو هنا لا يفرق بين « تبليغ الإيمان الدينى»، الذى لا سلطان فيه للرسول غير « البلاغ»، لأنه لا يملك فيه على الناس غير البلاغ، لأنه من شئون «القلوب» . . وبين سياسة الدولة وتنظيم العمران، والذى لا بد فيه من «الإلزام» بل و« القهر» فى الكثير من الأحيان! ! . .

المهم، هو أن الكتاب بعد أن أثبت للرسول، ﷺ سلطان «الملك» و«الحكم» و«السياسة» ـ وأكثر. . عاد فنفى عن الرسول ذلك السلطان! . .

وما على الذين يريدون « لوحة» تجسد « المتناقضات» إلا أن يتأملوا هاتين العبارتين، الواردتين فى صفحتين متقابلتين من صفحات الكتاب ـ صفحة ٧٠، ٧١ ـ والتى تقول أولاهما :

« وكان له ، ﷺ، من السلطان على أمته ما لم يكن لملك قبله ولا بعده» . .

بينما تقول الثانية : « إن النبى، ﷺ ، لم يكن له شأن فى الملك السياسى» ! ! . .

فهل كانت هذه المتناقضات مجرد « مخارج» للمناورة والمراوغة؟ ـ كما يرى الدكتور ضياء الدين الريس؟ ! . .

أم أنها من ثمرات « المشاركة» فى تأليف هذا الكتاب؟ ! . .

---

(٩٢) المرجع السابق . ص ٧١ .
(٩٣) المرجع السابق . ص ٧٢ ، ٧٣ .

إن الله وحده هو الأعلم باليقين . . ولعل فى عرض « المشكلة» أن يكون بمثابة الخطوات التى تقترب بنا من هذا اليقين! . .

* * *

ومشكلة ثالثة من مشكلات هذا الكتاب، مرجعها إلى تطاول السنين التى كتبت فيها صفحاته ، التى لم تتجاوز المائة إلا بثلاث صفحات . .

فالمؤلف يحدثنا فى المقدمة عن أنه قد بدأ يكتب عن القضاء فى الإسلام، عندما ولى القضاء [١٣٣٣هـ ـ ١٩١٥م] ، فلما وجد القضاء فرعا من الحكومة، بدأ يمهد لبحثه فى القضاء بالبحث فى « الحكومة . . الخلافة» . . وأن « هذه الورقات» قد كتبت على امتداد نحو عشر سنوات . . كان المؤلف يعمل فيها يوما، ثم تصرفه الحوادث أياما ، ويعود إلى العمل شهرا، ثم ينقطع عنه أعواما . . [٩٤] .

وهذا التطاول فى سنوات كتابة « هذه الورقات»، قد جعل « الكتاب» الأول من هذا المؤلف، بأبوابه الثلاثة ، وموضوعه الخلافة والإسلام، حاويا لإشارات تقول إنه كتب إبان قيام الخلافة العثمانية ، بينما الكتاب نشر بعد إلغائها . . ففيه حديث عن السلطان العثمانى محمد الخامس ، وهو الذى تولى الخلافة مابين ٦ من ربيع الآخر سنة ١٣٢٧هـ ، و٢٣ من رمضان سنة ١٣٣٦هـ، إبريل سنة ١٩٠٩م ـ يوليو ١٩١٩م ـ [٩٥] . . وإشارة إلى «جماعة الاتحاد والترقى» . . وفى هذا الجزء من الكتاب ـ والذى يستغرق من ص١ حتى ص ٣٨ ـ إشارات إلى مراجع صدرت سنة ١٩٢٣م . . وسنة ١٩٢٤م . . فهو قد كتب منفردا، وقبل سنوات طوال من تاريخ نشر الكتاب سنة ١٩٢٥م، وأضيفت إليه هوامش عند صياغته ضمن الكتاب . .

---

(٩٤) ص ف، ص من التقديم .

(٩٥) المرجع السابق ، ص ٢٥ . وانظر : محمد مختار باشا المصرى : [التوفيقات الإلهامية فى مقارنة التواريخ] . تحقيق : د. محمد عمارة ، طبعة بيروت، سنة ١٩٨٠م. وكذلك [معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى] ، لزامباور. طبعة القاهرة ، سنة ١٩٥١م.

وأهم من هذه الملاحظة هو « تميز أسلوب التأليف فى هذا الجزء عن بقية الكتاب»!! . .

والذى نعنيه بـ « الأسلوب» هنا هو «الضمير» الذى يتحدث به « المؤلف» عن المسلمين . . ففى هذا الجزء يتحدث المؤلف عن المسلمين بضمير «الغائب»، وكأنه ليس منهم!! . . فيقول مثلا : و«الخلافة فى لسان المسلمين . . والخليفة عندهم . . والدين عند المسلمين . . ونصب الخليفة عندهم . . والأصل فى الخلافة عند المسلمين . . ومن الطبيعى فى أولئك المسلمين» إلخ . . إلخ . .

والضمير هنا راجع إلى الأمة . . وليس إلى طائفة من العلماء أو مذهب من المذاهب . . ومن ثم فالإشارة من المؤلف إلى الأمة بضمير الغائب قد مثلت بابا للذين قالوا إن مؤلف هذا الكتاب من غير المسلمين!! ـ مثل الشيخ محمد بخيت المطيعى . . والدكتور ضياء الدين الريس[٩٦] ! ـ . . فغريب أن يشير المسلم للمسلمين باسم الإشارة للبعيد: « أولئك المسلمين»!! . .

بل إن هذا الجزء من الكتاب تنتهى سطوره على النحو الذى تكون عليه نهاية كل الكتاب والبحث . . فعنوان بابه الأخير ـ الثالث ـ فى الفهرس : «تتمة البحث» . . وعنوان فقرته الأخيرة : « النتيجة» . . بل ويختم سطره الأخير بالعلامة التى تختم بها السطور الأخيرة للكتاب ـ [،] ـ !! . .

وفوق كل ذلك ، فإن السطور الأخيرة من هذا الجزء ، الذى كتب مستقلا وفى تاريخ سابق على بقية أجزاء الكتاب ، وختم بها تختم به الكتب ـ [،] ـ . . إن هذه السطور تفتح للاستفهام علامة كبرى ، عندما تقول ـ بعد «الفقرة : النتيجة» التى قطعت بأن « تلك التى دعوها الخلافة أو الإمامة

---

(٩٦) انظر كتاب [الإسلام والخلافة فى العصر الحديث] . ص ٢١٢ ـ ٢١٩ .

العظمى لم تكن شيئا قام على أساس من الدين القويم، أو العقل السليم، وبأن ما زعموا أن يكون برهانا لها هو إذا نظرت وجدته غير برهان» .

بعد « تتمة البحث» و« نتيجته» . . نقرأ هذه السطور:

« ولعل من حقك علينا أن تسأل الآن عن رأينا الخاص فى الخلافة وفى منشئها . وإن علينا أن نأخذ بك فى بيان ذلك، مستمدين من الله جل شأنه حسن المعونة والهدى والتوفيق، »

فرأى من يكون ذلك الذى شغل هذا الجزء الأول من الكتاب: ص ١ ـ ٣٨ ؟ . . وهو الذى تحدث فيه كاتبه عن المسلمين « بضمير الغائب»!! . . وأشار إليهم باسم الإشارة للبعيد!! . . رأى من هو؟ . . إذا كان « الرأى الخاص» بالشيخ على عبد الرازق فى الخلافة سيأتى بعد ذلك . . وفى نهاية الكتاب : ص ٨١ ـ ١٠٣، فى « الكتاب الثالث» عن « الخلافة والحكومة فى التاريخ» . . ! . .

تلك علامة كبرى من علامات الاستفهام التى فتحها فى هذا الكتاب «تعدد مؤلفيه»!! . .

* * *

بل إن الناظر فى « مناهج آليات التأليف والبحث»، المستخدمة فى تأليف هذا الكتاب، يجد « تعددًا» فى هذه « المناهج»، يشهد هو الآخر على «تعدد المؤلفين»! . .

١ ـ ففى « تخريج الآيات القرآنية» تتعدد المناهج فى الكتاب . . فنجد :

(أ) مواطن « تخرج» فيها الآيات، بالهامش، بذكر اسم السورة، مع إغفال رقم الآية!! . .

(ب) ومواطن « تخرج » فيها الآيات، بالمتن، بذكر رقم السورة ورقم الآية . .

(جـ) ومواطن «تخرج» فيها الآيات ، بالمتن، بذكر اسم السورة، مع إغفال رقم الآية!! . .

(د) وفى ترقيم « هوامش» تخريج الآيات ، يذكر الرقم أحيانا قبل الآية . . وأحيانا بعدها!! . .

٢ ـ ونفس الشيء ـ تعدد مناهج آليات البحث والتأليف ـ نجده فى توثيق النصوص، بالإشارة إلى مصادرها ومراجعها . .

(أ) ففى مواطن يذكر فيها عنوان المرجع، بالهامش، دون ذكر الجزء أو الصفحة! . .

(ب) ومواطن أخرى يذكر فيها عنوان المرجع، بالهامش، مع ذكر الجزء والصفحة . .

* * *

هكذا أثار كتاب [الإسلام وأصول الحكم] المعركة الفكرية التى لا تزال محتدمة الأوار منذ ما يقرب من ثلاثة أرباع القرن . .

ويثير من علامات الاستفهام ما يستدعى أطروحة جامعية ـ ولتكن رسالة ماجستير ـ يقوم بها أحد نبهاء الباحثين فى العلوم السياسية، ليقدم لنا بعد الجمع لكل ماكتب عن الخلافة وعلاقة الإسلام بالسياسة والحكم والدولة قبل سنة ١٩٢٥م . . مما كتبه المستشرقون . . والترك . . والهنود . . والعرب، والمقارنة بينه وبين كتاب [الإسلام وأصول الحكم] ـ مع رصد ردود الفعل لمذهب هذا الكتاب فى دوائر الفكر وتيارات السياسة المختلفة . . وتأثير كل ذلك فيما عاصر صدوره وجاء بعده من « فكر» و«أحداث» . .

فلعل فى هذا البحث المتخصص ما يجيب عن العديد من علامات الاستفهام التى أثارها ويثيرها هذا الكتاب الصغير الحجم، والمثير للجدل الكبير!

٢ - التفرنج والانسلاخ
من الشرق والعروبة والإسلام

عند سلامة موسى [١٣٠٥ ـ ١٣٧٧هـ ، ١٨٨٨ ـ ١٩٥٨م] ـ وبصدد التبنى للنموذج الحضارى الغربى ، والدعوة إليه ، والتبشير به ـ يختلف الأمر اختلافا جوهريا ، فى المستوى . . والمنطلقات . . وفى المقاصد والغايات ، عن غيره من جيل الرواد الذين انبهروا بالغرب ، وأدهشتهم نهضته ، فتبنوا نموذجه فى « التنوير ـ العلمانى » . . .

فسلامة موسى لم يكن « مجتهدا » أخطأ فى حقبة انبهاره ، فلما نضج عاد عن هذا الانبهار ، كما كان الحال لدى كثيرين من جيل هؤلاء الرواد : منصور فهمى باشا [١٣٠٣ ـ ١٣٧٨هـ ، ١٨٨٦ ـ ١٩٥٩م] ، والدكتور محمد حسين هيكل باشا [١٣٠٥ ـ ١٣٧٥هـ ، ١٨٨٨ ـ ١٩٥٦م] ، والأستاذ الدكتور طه حسين باشا [١٣٠٦ ـ ١٣٩٣هـ ، ١٨٨٩ ـ ١٩٧٣م] ، وغيرهم من جيل الرواد ، الذين بشروا « بالتنوير ـ الغربى ـ العلمانى » ، ثم عادوا ـ بدرجات متفاوتة فى العمق ، وفى صراحة وشجاعة النقد الذاتى ـ عن هذا الانبهار . . .

لم يكن سلامة موسى من هذا الفريق . . وإنما كان الرجل : مشروعا فكريا «للعمالة الحضارية» ، بلغ حد « الصراحة . . العارية» حتى عن «ورقة التوت» التى تستر عورات « العمالة» الكاملة للحضارة الغربية . . بل لقد

مثل القمة فى مشروع « التفرنج» الذى استهدف نزع أسلحة المقاومة الحضارية لدى الأمة عندما عمتها بلوى الاحتلال الاستعمارى ، وسقطت فريسة تحديات التغريب والمسخ والنسخ والتشويه لذاتيتها القومية وهويتها الحضارية . .

وإذا كانت الحرب الاستعمارية العالمية الأولى [١٣٣٢ ـ ١٣٣٦هـ ، ١٩١٤ ــ ١٩١٨م] قد مثلت حقبة عموم هذه البلوى . . فسقطت ديار الإسلام تحت سنابك الاحتلال الاستعمارى الغربى . . وبدأ التنفيذ لمخطط المشاركة « الصهيونية ــ الصليبية» فى قلب وطن العروبة وعالم الإسلام . . وأُسقط « المشروع العربى» باتفاقية « سيكس» ـ «بيكو» [١٣٣٤هـ ــ ١٩١٦م] . . وطويت صفحة « الخلافة الإسلامية» ــ رمز « المشروع الإسلامى» ــ بإلغائها [١٣٤٢هـ ــ ١٩٢٤م] . . وتخلقت فى واقعنا الفكرى والسياسى الداخلى دعوات وأحزاب ومذاهب جعلت النموذج الغربى ـ نموذج الغالب المستعمر ــ المثل الأعلى الذى يتعلق به المغلوبون سبيلا للتحرر والخلاص ! ! . .

إذا كانت الحرب الاستعمارية العالمية الأولى ، والسنوات التى أعقبتها حتى إلغاء الخلافة الإسلامية . . قد مثلت ذروة مأساة القهر الخارجى ـ الغربى ـ لوطن العروبة وعالم الإسلام . . والتى جسدتها كلمات الجنرال الفرنسى «جورو» [١٨٦٧ ـ ١٩٤٦م] عندما احتل دمشق ، وذهب ليركل بقدمه قبر صلاح الدين الأيوبى [٥٣٢ ـ ٥٨٩هـ ، ١١٣٧ ـ ١١٩٣م] ، ويقول للأمة ـ فى صورة بطلها الأسطورى ـ : «ها نحن أولاء قد عدنا ياصلاح الدين» ! ! .

إذا كانت تلك هى ذروة مأساة القهر الخارجى . . . **فإن عامى ١٩٢٥م و١٩٢٦م ـ اللذين أعقبا إلغاء « الخلافة ـ الرمز» ، قد مثلا بداية ذروة الهجمة التغريبية ، التى استعار روادها أسلحة « التنوير ــ الغربى ـ العلمانى» ليواجهوا بها الإسلام ، ساعين إلى أن يصنعوا به ومعه وفيه ما صنع « التنوير ــ**

الغربى» مع النصرانية الأوربية فى عصورها الوسطى . . ففى هذين العامين قامت أعنف معارك « التنوير ـ الغربى » ضد المشروع الإسلامى ، عندما صدر كتاب [الإسلام وأصول الحكم] سنة ١٩٢٥م . . وكتاب [فى الشعر الجاهلى] سنة ١٩٢٦م . .

ولهذه الحقيقة من حقائق تاريخ أمتنا مع هذا « التنوير ـ الغربى ـ العلمانى » ، كان اختيارنا لكتاب سلامة موسى [اليوم والغد] ليكون نموذجا لمشروعه الذى استهدف « فرنجة» الأمة ، والإجهاز على أى أثر لخصوصيتها الحضارية ، سواء فى الشكل أو فى المضمون . . فى الماضى أو فى الحاضر أو فى المستقبل !! . . **فهذا الكتاب ـ [اليوم والغد] ـ هو مقالاته فى هذين العامين ـ ١٩٢٥ ، ١٩٢٦م ـ وفيه معالم المشروع الفكرى الذى نذر له قلمه وحياته ، وقسمات المذهب الفلسفى الذى ناضل فى سبيله حتى الرمق الأخير.** ففيه وبه حدد « مفترق الطرق» أو « خاتمة اليوم والغد» ، عندما صاح بأعلى صوته : إننا أوربيون فى كل شىء حتى فى الخِلْقَة والدماء . . منذ فجر التاريخ . . واليوم . . والغد . . فعلينا أن «نتفرنج» ، ونلعن العرب والإسلام والشرق ، بكل اللغات ، وفى جميع الساحات !! . .

وأمام تميز هذا المشروع التغريبى لسلامة موسى ، فى المستوى الذى بلغ حد « العمالة الحضارية» ـ وليس الاجتهاد الخاطئ ـ وفى « الصراحة» التى جردت مخطط « الإلحاق التغريبى» حتى من « ورقة التوت» . . الأمر الذى بلغ بهذا المشروع حد « التجريح» لكرامة الأمة ووطنيتها وعروبتها وشرقيتها ـ ناهيك عن إسلامها ـ حتى لقد غدا « استفزازا» شديدا للعقل والوجدان . . أمام هذه الحقيقة المميزة لمشروع سلامة موسى التغريبى . . فإننى أدعو القارئ ـ ونحن على أبواب عرض معالم هذا المشروع ـ إلى التجمل والتخلق بعدد من الخصال والمؤهلات :

● أدعو القارئ « للصبر» على «وخز» هذه « الصراحة» ـ التى قد يراها

البعض « وقاحة» ـ التى ساق بها سلامة موسى آراءه . . فما نجده عند الرجل « عاريا» ، نجده عند غيره ـ من رواد وتلاميذ « التنوير ـ الغربى ـ العلمانى» «مغلفا» على أنحاء متفاوتة فى ألوان ودرجات « التغليف» . . وما نجده فى مشروعه الفكرى « سُمًّا خالصا» نجده مدسوسا فى « العسل» عند الآخرين !! . . فللرجل ـ برأيى ـ فضل « الصراحة» التى تجاوزت حدود مضامين هذا الاصطلاح !! . .

● وأدعو القارئ ، أيضا إلى أمر هام . . وهو عدم الخلط بين آراء سلامة موسى ـ كقبطى نصرانى ـ وبين وطنية نصارى مصر وأقباطها . . « فالعمالة الحضارية» للرجل ـ وهى غير « العمالة السياسية» التى لا دليل عليها ـ لا علاقة لها بالوجه المشرق لوطنية جمهور الأقباط المصريين ، الذين شاركوا فى الثورات الوطنية لمصر جنبا إلى جنب مع جمهور الأغلبية المسلمة ، حتى قامت ، فى الحياة الوطنية المصرية ، على هذا الوجه المشرق لوطنية الأقباط وإخلاصهم لوطنهم الكثير من الأدلة والبراهين . . .

بل لقد تجاوز عقلاء النصارى ، من المصريين والعرب ، إطار « التلاحم الوطنى» مع المسلمين ، إلى حيث أدركوا ما فى الإسلام الحضارى والثقافى من جامعة للتوحيد الوطنى والقومى والحضارى لأبناء الأمة جميعا ومن مختلف الديانات . . فقال مكرم عبيد باشا [١٣٠٧ ـ ١٣٨٠هـ ، ١٨٨٩ ـ ١٩٦١م] : « نحن مسلمون وطنا . . ونصارى دينا» . . وكان يناجى ربه فيقول : «اللهم اجعلنا نحن المسلمين لك ، وللوطن أنصارا . واللهم اجعلنا نحن نصارى لك ، وللوطن مسلمين»(١) !! . .

وكتب ميشيل عفلق [١٣٢٨ ـ ١٤٠٩هـ ، ١٩١٠ ـ ١٩٨٩م] ـ النصرانى الأرثوذكسى ـ عن الإسلام كجامعة للنصارى والمسلمين جميعا : «لا يوجد عربى غير مسلم ! . . فالإسلام هو تاريخنا ، وهو بطولاتنا ، وهو لغتنا ،

(١) صحيفة [الوفد] ـ لقاء مع د . غالى شكرى ـ فى ٢١ يناير ، سنة ١٩٩٣م .

وفلسفتنا ونظرتنا إلى الكون . . إنه الثقافة القومية الموحدة للعرب على اختلاف أديانهم ومذاهبهم . . وبهذا المعنى لا يوجد عربى غير مسلم، إذا كان هذا العربى صادق العروبة، وإذا كان متجردا من الأهواء، ومتجردا من المصالح الذاتية . . وإن المسيحيين العرب، عندما تستيقظ فيهم قوميتهم سوف يعرفون بأن الإسلام هو لهم ثقافة قومية يجب أن يتشبعوا بها ويحبوها ويحرصوا عليها حرصهم على أثمن شىء فى عروبتهم . .

ولئن كان عجبى شديدا للمسلم الذى لا يحب العرب، فعجبى أشد للعربى الذى لا يحب الإسلام»(٢) !! . .

وقال القس القبطى الكاثوليكى يوحنا قلته: «أوافق تماما على أن أكون مصريا . . مسيحيا، تحت حضارة إسلامية . . بل أنا مسلم ثقافة مائة فى المائة . . أنا عضو فى الحضارة الإسلامية . . التى تجعل الدولة الإسلامية تحارب لتحرير الأسير المسيحى . . والتى تعلى من قيمة الإنسان كخليفة عن الله فى الأرض . . فكلنا مسلمون حضارة وثقافة . . وإنه يشرفنى، وأفتخر أننى مسيحى عربى، أعيش فى حضارة إسلامية، وفى بلد إسلامى . . وأساهم وأبنى، مع جميع المواطنين، هذه الحضارة الرائعة . . »(٣)!

والدكتور غالى شكرى . . يقول ـ فى لحظة صدق مع الحقيقة ـ : «على الشباب القبطى أن يدرك جيدا أن هذه الحضارة العربية الإسلامية هى حضارته الأساسية . . إنها الانتماء الأساسى لكافة المواطنين . . لقد ورثت كل ماسبقها من حضارات، وأصبحت هى الانتماء الأساسى، والذى بدونه

---

(٢) [الكتابات السياسية الكاملة] ، جـ٣ ص ٣٣ ، ٢٦٩ ، جـ٥ ص ٦٨ . طبعة بغداد، سنة ١٩٨٧م، سنة ١٩٨٨م.

(٣) انظر كتابنا: [الإسلام والسياسة ـ الرد على شبهات العلمانيين] ، ص ٢٠٥ ، طبعة مجمع البحوث الإسلامية ـ القاهرة، سنة ١٩٩٢م.

يصبح المواطن فى ضياع . . إننا ننتمى ، كعرب من مصر، إلى الإسلام الحضارى والثقافى ، وبدون هذا الانتماء نصبح فى ضياع مطلق . . وهذا الانتماء لا يتعارض مطلقا مع العقيدة الدينية . . لأن الإسلام وحد العرب ، وكان عاملا توحيديا للشعوب والقبائل والمذاهب والعقائد . . »(٤) .

لقد تجاوز عقلاء النصارى مستوى « التلاحم الوطنى » إلى مستوى الإيمان بانتمائهم إلى الحضارة الإسلامية ، واندماجهم حضاريا وثقافيا فى الإسلام الحضارى والثقافى . . وهو الأمر الذى يجعل من « العمالة الحضارية » لسلامة موسى استثناء يثبت القاعدة ، وشذوذا لا يجوز أن يشوه الوجه المشرق لوطنية النصارى المصريين ! . .

● كذلك ، أدعو القارئ إلى ألاّ يحمل آراء سلامة موسى فى الدين والتدين ـ وهى التى سنورد نصوصها ـ على النصرانية كدين عام ، ولا على الأرثوذكسية القبطية بوجه خاص . .

فالرجل كان « وزرا ماديا » يبرأ منه « الإيمان النصرانى » . . بل ومطلق « الإيمان الدينى » ! . . وكان « علمانيــة ـ شبه ملحدة » ، فَرَّغَت الدين والتدين من محتواهما الأول والحقيقى . . فمن الظلم البين حسبانه على تعاليم الكنيسة المصرية . . وماتعصبه « لقبطيته » إلا « حمية ـ طائفية » لا علاقة لها بروحانية النصرانية كدين . . فنقده إنصاف للنصرانية ، وتبرئة للكنيسة المصرية من هذه « الأوزار » التى مثلتها أفكاره التى سنورد نصوصها بعد قليل ! . .

إن نسبه الحقيقى ، وانتسابه الشرعى لم يكن « للوطنية القبطية » . . ولا « للكنيسة الأرثوذكسية » . . وإنما كان إلى سلفه القديم « المعلم يعقوب »

---

(٤) صحيفة [الوفد] ، عدد ٢١ يناير سنة ١٩٩٣م . . [وجدير بالملاحظة تعارض هذا الموقف الواضح والناضج للدكتور غالى شكرى مع تبنيه لآراء سلامة موسى ـ التى سنورد نصوصها ـ لكن يبدو أن « الوجوه المتعددة » لفكر غالى شكرى و « الارتدادات العقدية » لديه ـ وهى غير « التطور الفكرى » ـ هى التى جمعت وتجمع بين المتناقضات ! !] . .

[١٧٤٥ـ١٨٠١م]. . الذى صنع فى مصر صنيع بعض اليهود الصهاينة، عندما استجابوا لنداء بونابرت [١٧٦٩ ـ ١٨٢١م] إبان حملته على مصر [١٢١٣هـ ــ ١٧٩٨م]. . نداءه للأقليات الدينية، كى تعاونه فى إلحاق الشرق بالغرب. . فتخلقت، منذ ذلك التاريخ، فى الأوساط اليهودية بواكير الحركة الصهيونية الحديثة. . وبدأت « بالمعلم يعقوب» بواكير الدعوة إلى :

١ ـ « استقلال» ـ وإن شئت الدقة فقل : «عزل» ـ مصر عن تراثها العربى والإسلامى. .

٢ ـ و«استقلالها» ـ «عزلها» ـ عن المحيط العربى والإسلامى، والذى تمثل يومئذ فى الدولة العثمانية والجامعة الإسلامية. .

٣ ـ وإخضاع مصر وإلحاقها بالغرب ـ السياسى والحضارى ـ كبديل عن الحضارة العربية الإسلامية. وكانت إنجلترا ـ فى مشروع « المعلم يعقوب» ـ هى ممثل الغرب فى ذلك الحين. . كما كانت فى مشروع سلامة موسى !!. .

والذين يتأملون مشروع سلامة موسى « لِفَرْنَجَة» مصر، وإلحاقها بأوربا ـ كما سنعرضه، بنصوص الرجل ــ ثم يطالعون البواكير الأولى لهذا الاتجاه عند « المعلم يعقوب» ، الذى أوصى إنجلترا، وهو يودع الحياة، **بإلحاق مصر حضاريا، بدلا من امتلاكها كمستعمرة**. . فأملى فى هذه الوصية : «إن الإمبراطورية العثمانية توشك أن تتداعى من كل جانب. ولهذا فمن المهم للإنجليز أن يلتمسوا الوسائل المضمونة للاستفادة من عهد تمزقها التاريخى بأنسب طريقة تحقق مصالحهم السياسية المستقبلة. . إن بريطانيا العظمى ليست بحاجة إلى امتلاك مصر كمستعمرة، لأنها ستستأثر دائما بالتجارة معها، نتيجة طبيعية لتفوقها البحرى، فهى ستؤثر إذن فى مصر باختيارها»[٥]!!. .

---

(٥) انظر تفصيل الحديث عن مشروع « المعلم يعقوب» فى كتاب : د. لويس عوض : [تاريخ الفكر المصرى الحديث]، جـ١ــ ص ١٨٣، ١٨٤، ١٨٦، ١٩٤، ١٩٧، ٢٠٩، طبعة دار الهلال ـ القاهرة، سنة ١٩٦٩م.

إن الـذين يتـأملـون مشروع سلامـة مـوسـى ، الذى انبرى للتبشير بـه ، وخـاصة عقـب انهيار الـدولـة العثمانية ، وإلغـاء الخلافة سنـة ١٩٢٤م . . يجدون هذا المشروع « التفصيل ـ التطبيقى » لوصية المعلم يعقوب وهو يحتضر على ظهر السفينة التـى أقلته مع جيوش الحملة الفرنسيـة المنسحبة من مصر سنة ١٨٠١م . .

وكما تبرأت الكنيسة المصريـة ، إبان الحملـة الفرنسية ، مـن خيانـة المعلم يعقوب ، الذى التحق بجيـش بونابرت ، وأصبح « جنرالا» و«قـائمقام سارى عسكر الفرنسيس» . . وسوط عـذاب الفرنسيين على ظهور المصريين ، حتى لقـد سماه الجبرتـى [١١٦٧ ــ ١٢٣٧هــ ، ١٧٥٤ ــ ١٨٢٢م] : «يعقـوب اللعين»!! . . كما كـان الحال فى علاقـة يعقوب اللعين ومشروعـه بالكنيسـة المصرية ووطنيـة الأقباط المصريين . . كـذلك كـان ، ويجب أن يكون حـال العـلاقة بين سـلامة مـوسـى . . ووطنية ونصرانيـة نصارى مصر وكنيستهـا الأرثوذكسية . .

فمشروع سلامة موسى « لتفرنـج مصر» ، وإلحاقها بأوربا ، هو « الإعلان الفج» عن مشروع سلفه المعلـم يعقوب . . ولا ضير على أقباط مصر ولا على كنيستها من كون الرجلين قـد ولدا قبطيَّيْن وحملا أسماء الأقباط . . فكثير من المسلمين ، الذين ساروا على درب التغريب والإلحاق الحضارى ، و«التنوير ـ الغـربى ــ العلمانى» قـد سلكـوا ذات السبيل . . وإن لم يبلغـوا فى «الحدة» و«الصراحة» ما بلغه « سلامة موسى» و«يعقوب اللعين»!! . .

والآن . . وبعد هذه المقدمات ، التى دعوت القارئ إلى استحضارها . . ونحن مقبلون على عرض ملامح وأركان « التنوير ـ الغربى ـ العلمانى» ، كما تجسد فى المشروع الفكـرى لسلامـة موسى . . نبـدأ باستعـراض ملامـح هذا المشروع . . ومن خلال نصوص الرجل ، حتـى لا تكون هناك أدنى شبهة فى أى لون من ألوان المبالغات! . .

سلامـة موسى . . والإيمان الدينى :

إذا كان الإيمان بإله خالق لهذا العـالم وللإنسان، ومنعم على هذا الإنسان بالنعم التى أفاضها فى الطبيعة، هو جوهر الدين، والحد الأدنى للتدين بأى دين . . فإننا لانجد هذا الحد الأدنى فى المشروع « التنويرى ـ العلمانى » الذى تحدثت عنه كتابات سلامة موسى . . بل إن كتاباته قد رفضت هذا الحد الأدنى للإيمان الدينى ! . .

● فهو، عندما يتحدث عن الذى هدى المصريين إلى الزراعة، يقول : إن «**النيل هو الذى هـداهم إلى الزراعة**، التى هى أصل الحضارة»(٦) . . فالنيل عنده هو « الهادى» . . وليس الله ! . .

● وعنـدما يـزعم أن المصريين أوربيـون، حتـى فى الشكل و«السِّحنـة»، يحمـد على ذلـك « الأقدار»، ولا يحمـد الله ، فيقـول : « . . **ولكننا نحمد الأقدار على أننا ما زلنا فى السحنة والنزعة أوربيين** . . »(٧) ! !

● وعنـدمـا يتحـدث عـن الذى أنعـم على المصرى بنعمـة النيـل، يـرى «الطبيعة» هـى المنعم، والنيل مصدر العلـم والفقه ! . . أما الديـن فى حياة المصرى القديم فمصدره «جفاف المنـاخ»، وليس الله ! . . وكذلك الاعتقاد بالعالم الآخـر، عالم ما بعد الموت، مصدره « التحنيط» ! . . ومـا قصة «نوح» و«الفيضان» إلا من ثمرات «النيل» فى حياة المصرى القديم ! . .

كل هذا « التنوير ـ الغربى ـ الملحد» ينقله سلامة مـوسى، عن فلاسفة «التنوير ـ الغربى»، الذيـن يذكر منهم « إليوت سمث»، فيقول : « وكما أن الطبيعة أنعمـت عـلى المصرى بالنيل يعلمـه الزراعـة، وفقهه فى علاقة الماء بها، **كذلك جفاف المـناخ المصرى علمـه الديـن** . . . **ومن التحنيـط نشأ الاعتقـاد بالعـالم الثانـى** . وكـان للنيـل دخـل آخـر فى الـديـن، وهـو أنـه

(٦) [اليوم والغد] ، ص ٩ . طبعة القاهرة، سنة ١٩٢٨م . (٧) المرجع السابق . ص ٦ .

جعل المصرى يقدس الماء، ويعتقد أنه أصل كل شىء حى، وأنه يطهر كل شىء. وليست قصة الفيضان، ونجاة نوح منه، إلا إحدى نتائج الاعتقاد بفيضان النيل، وأنه أصل الحياة، كما أثبت ذلك إليوت سنمث. .»[8]!! . .

● أما العقل الإنسانى، فهو من «مخترعات الطبيعة» . . «**فقد اخترعت لنا الطبيعة العقل للتمييز والحكم بين غرائزنا، ومعرفة النافع والضار فى أحوال معاشنا. .**»[9]! .

● والجنين ينمو، على نحو دون الآخر، بفعل «الذاكرة» . . وليس بفعل الإله الخالق! . . «**فللجنين ذاكرة تلهمه بأن ينمو على طريقة بعينها. .**»[10]!

وكما نزع «التنويريون ـ الغربيون» عن الدين «المطلق»، وجردوه من مصدره الإلهى، وسووا بين حقائق علومه وحقائق العلوم المادية الطبيعية، فى نسبيتها وتغيرها، كذلك صنع سلامة موسى فيما استعار من فكر وفلسفة التنوير الغربى . . فهو يستنكر عدم إخضاع الحياة الروحية وعلومها الدينية لما خضعت وتخضع له علوم الكيمياء وأمثالها! . . فيقول: «هذه الحياة الروحية فى الإنسان قد تأخرت تأخرا هائلا. وكيف لا تتأخر إذا كنا نمنع الناس من انتقادها؟! . . وهل كان علم الكيمياء يتقدم لو كنا نمنع الناس من انتقاده كما نمنعهم من انتقاد الأديان؟! . . فما لم نفعل ذلك، وننظر إلى العلوم الدينية كما ننظر إلى الكيمياء، فإننا لن نتقدم»[11]! . .

وهو هنا: «تنويرى ـ غربى»، أنكر وجود إله مفارق للمادة، ذى علم مطلق. . فدعا إلى معاملة العلوم الدينية ـ ذات المصدر الإلهى . . والتى

---

(8) المرجع السابق. ص ١٠، ١١ . (9) المرجع السابق. ص ٢٥ .
(10) المرجع السابق . ص ٤٢ . (11) المرجع السابق. ص ٢٠، ٢١ .

هى قبس من العلم الإلهى الكلى والمطلق ـ دعـا إلى التعامل معها كما نتعامل مـع العلوم المادية، المدركة بـالعقل النسبى والحواس النسبيـة. . والمتغيرة والمتطورة حقائقها بسبب هذه النسبية المجردة من الإطلاق! . .

ولهذا السبب، فهـو معجب بالتراث اليـونانـى، الذى تعامـل مع الآلهة بحسبـان قـدراتها نسبيـة ومحدودة. . ومـع القيـم بحسبـانها نسبيـة، وغير مطلقة. . ويعبر عـن هذا الإعجـاب فيقول : « . . ومـن يقرأ « جمهـورية» أفلاطون، ويـرى الحرية التى يتكلم بها عن الزواج، أو مـن يقرأ «الأخلاق» لأرسطوطـاليس، ويقـف عند قـوله : إن الآلهة، على قـدرتها، لا يمكنها أن تبدل نـواميس الطبيعـة، يأسـف لفقدان هـذه الروح مـن الأدب العربـى. **والغريب فى العرب أنهم عنـوا بعلوم الإغريق وطبهم، وهو أسخـف ماكتبوا ـ [! !] ـ دون أن يعنوا بآدابهم وفنونهم. . »[١٢] ! ! . .**

فالرجل لم يكن يريد لنا علوم اليـونان، وإنما كان يريد ما لديهم من وثنية وإلحاد ! ! . . ولعله فى ذلك فريد غير مسبوق! . .

● ولذلـك، فلقد كـان طبيعيا مع مـن يستعير « فلسفة التنـوير الغـربى الإلحادية» ـ أو «الوضعيـة ـ التى ترى الدين إفـرازا بشريا. . ونسبيا لا مطلق فيـه» ـ . . كـان طبيعيـا مع مـن يستعير هذا « التنـويـر ـ الملحـد» أن يجرد النصرانية من نسبها الإلهى، حتى ولو كان نصرانى الاسم والميلاد ! ! . .

لقد قسم سلامة موسـى النصرانية إلى «لاهوت» . . و«أخلاق» . . وحكـم بأن «لاهوتها» هـو ذات الوثنية المصرية القديمـة ـ فى عقيدة الثالـوث ـ . أما «أخلاقها» فهى إغريقية. . ومن ثم فلا شىء فى النصرانية لله والسماء والوحى والدين الإلهى ! ! . . هكذا رأى النصرانيـة، وكتب يقـول : « . . ويمكـن أن نقـول إن أوربـا استفـادت ديـانتهـا مـن الشرق. ولكـن، يجب ألا

---

(١٢) المرجع السابق. ص ١١٠.

نلقى هـذا القول جزافـا . فالديـانة المسيحية مـؤلفة من عنصريـن : أحدهما خاص باللاهوت ، والآخر خاص بالأخلاق .

فالأول ، وهو اللاهوت ، يرجـع الفضل فيه إلى المصريين ، فإن النظريات الخاصـة بالثـالـوث المقدس ، أو التجسـد ، أو البعـث ، هـى نفسها تلـك النظريـات التى كـانت شـائعة عنـد المصريين . ونظريـة الثـالوث هـى أهم أركان الـديانة المصرية القـديمة . فإن الربـة إيسيس هى العـذراء التـى تلد هورس من رب الأربـاب أوزوريس . ويمكن أن نتتبع تطـور الفن المسيحى من مصر إلى روما ، حتـى تصير إيسيس وابنها هورس كلاهما : مـريم وابنها السيد المسيح .

هذا مـن حيث اللاهـوت . وأما مـن حيث الآداب المسيحية ، فـالفضل فيها يرجع إلى الإغريق . فإن من يقـرأ مجادلات الرسل يشعر بالروح الإغريقية التى كانوا مشبعين بها فى تبشيرهم الأمم الوثنية» [١٣] ! ! . .

ونحن هنا لا نناقش ما فى هـذا الكلام من صواب أو خطأ . . وإنما نقول : إن سلامة موسـى ، **الذى أرجع المسيحية إلى المصادر الوثنيـة ـ المصرية . . والإغـريقية ـ لا يمكـن أن يعـده المسيحيون الابـن البـار للنصرانيـة كديـن سماوى ، ولا الابـن البار للكنيسـة الأرثوذكسيـة ، التى جعلـت من خـلاص الروح ورعـاية مملكـة السماء رسالتها الـوحيدة على هـذه الأرض . . وإنما هو الامتداد السرطانى « للتنوير ـ الغربى ـ الملحد» ، جاء لاقتلاع الدين الإلهى ، مطلق الـدين ، من حياة الأمـة التى انتسب إليهـا ! . . ولذلك ، كان الـرجل صريحا صراحته «العـارية» ! ! . . عنـدما رفـض عقيدة النصرانيـة فى العذراء والمسيح ، باعتبارهـا عقيدة بالية لا تليق بالعقـل المتعلـم والمثقف ! . . فكتب يقول : «إنه مـن البديهى أن عبادة إيسيس العـذراء وابنها هورس قد قـدمت وبليت ، ولم يعد فيها مقنع لنفس إنسان متعلم مثقف . . »** [١٤] !

---

(١٣) المرجع السابق . ص ١٠٨ . (١٤) المرجع السابق . ص ٩٩ ، ١٠٠ .

وإذا كنا نقرأ الآن لتلامذة سلامة موسى وغيره من رواد « التنوير ـ الغربى ـ الإلحادى» كلاما كثيرا عن « تاريخية النصوص المقدسة» ، وهى «تاريخية» تنزع القدسية والإطلاق والخلود والثبات عن هذه النصوص . . ونقرأ لهم وصفا للشريعة الإسلامية ـ التى نؤمن بأنها « وضع إلهى ـ ثابت» ـ بأنها «شريعة البداوة»!! . . أى تجاوزها التطور التاريخى الذى تجاوز مجتمعات البداوة!! . . كما قرأنا لنظيرهم التركى « عزيز نسين» تعجبه من المسلمين الذين لا يزالون، «كالبهائم» ، يتبعون قرآنا « مؤلفا» ـ [؟!]ـ منذ أكثر من أربعة عشر قرنا!! . .

إذا كنا نقرأ لتلامذة سلامة موسى هذا الكلام . . وغيره الذى يدعون فيه إلى «تطوير العقائد الدينية بما يجارى تطور العلوم الطبيعية الحديثة»!!

إذا كنا نقرأ هذا الذى يعده الدين والتدين والإيمان والمؤمنون ـ بأى دين ـ «هذيانا إلحاديا» . . فإن علينا أن ندرك أن هذا « الهذيان الإلحادى» هو «الفكر الوضعى» الذى عممه « التنوير الغربى» على الدين، وذلك عندما سوى المطلق بالنسبى . . والإلهى بالإنسانى . . والثابت بالمتغير. . والمقدس بما لا قدسية فيه . . فنحن أمام « التنوير ـ الغربى »فى جيل التلامذة، الذين يمثلون روادهم وأساتذتهم فى هذا الميدان . . وفى المشروع الفكرى لسلامة موسى، نجده ينقل عن الكاتب الإنجليزى «هـ . ج. ويلز» [١٨٦٦ ـ ١٩٤٦م] هذا الذى يردده تلامذة « التنوير ـ الغربى» عن تاريخية النصوص المقدسة، وضرورة « تطوير العقائد» وفق تطور العلوم . .

لقد كتب سلامة موسى عن هذا الملمح من ملامح « التنوير ـ الغربى ـ الوضعى» . . فقال: « . . ليس يعقل أن يعيش الإنسان آلاف السنين، يتعاوره التقدم المادى فى جميع ما يلابسه ويزاوله، ثم يبقى الدين جامدا لا يتطور وفق التطور المادى»!! . .

ثم مضى ، فساق تصور الكاتب الإنجليزى « ويلز» لتطوير الكتب المقدسة سنويا ، حتى لكأنها «حولية» تتغير كل عام . . وحتى لكأنها «متغيرات» لا «ثوابت» فيها . . ومما يستقل العقل الإنسانى - نسبى القدرات والإدراكات - بعلم كل ما فيها من أخبار عالمى الغيب والشهادة . . . مضى سلامة موسى ، فساق تصور فلسفة «التنوير - الوضعى - الغربى» لتطوير الكتب المقدسة ، كنموذج على مايريده لنا . . فقال : « وقد عالج « ولز» هذا الموضوع فقال : إنه يجب أن تؤلف توراة جديدة توافق العصر الحاضر، **تضعها فئة منتقاة من العلماء والفلاسفة والأدباء . وينبغى تنقيحها كل عام وفق مطالب الحياة الجديدة** . . ويجب أن تؤلف التوراة الجديدة على غرار التوراة القديمة ، فيبدأ فيها بسفر التكوين ، فتستبدل بقصة آدم وحواء تاريخا علميا لتكوين الأرض وظهور الحياة عليها ، وتطور النبات والحيوان ، وتنازعها البقاء ، وانقراض بعضها . ثم ظهور الإنسان ، ووصف جهاده للطبيعة ، والتغلب عليها ، وانتقاله من عهد الصيد إلى الرعاية إلى الزراعة ثم معرفته المعادن ونشوء الصناعة .

ويلى ذلك ناموس يسير عليه بنو البشر، يتضمن أهم قواعد الصحة وصيانة الجسد ، وضرورة الرياضة التى لم تكن لازمة لليهود وهم يرعون أغنامهم بالمروج ، ولكنها تلزمنا الآن فى أشغالنا الراهنة . ثم يجب أيضا أن يتضمن هذا القسم كل ماعرف عن الحكمة الجنسية ، والعلاقات الزوجية ، وما تنبغى معرفته عن آداب الامتلاك ، وعلاقة العمال بالملاك ، وقيمة المراهنات والمضاربات وآداب البورصة ، وما إليها مما يلتصق بحياتنا .

ثم يلى ذلك «نشيد الإنشاد» فى التوراة ، ويقابله عندنا الآداب الشهيرة عند الأمم المختلفة . . توضع فى مكان الملحق بالتوراة . .

ثم يلى ذلك فصل عن التنبؤات . يضعه ساسة العالم ، ويسجلون فيه على أنفسهم مايتنبئون به عن مستقبل الأمم التى يسوسونها . .

ثم ، هـذه التوراة يجب أن تكون لها لجنة عليـا ، لا تنى عن تنقيحهـا كل عام ، بما يـوافق المستكشفات والمخترعـات . والخلاصة ، أنه **يجب أن تجعـل الأخـلاق وفـق المستكشفات والمخترعـات الحديثـة**. وذلك بتعـديل قـوانين الامتلاك ، وتخفيـف الروح الوطنيـة . . وإزالة النزعة الـوطنية من التـاريخ ، وفرض الولاء لعصبة الأمم على كل أفراد العالم .

ثم ، لكـى يتحد النـاس فى نزعة صحيحـة ، يجب أن يكون لهم نـاموس جـديـد مـؤلـف على نمـط علمـى ، يـربطهـم جميعـا فى رابطـة روحـانيـة واحدة . . . »[15] !!! . .

تلك هى صورة تطوير الكتب المقـدسة ، كى تستجيب « للتاريخية» التى يريـدها لها «التنـوير ــ الغربى ــ الوضعـى» . . وهى ليسـت صورة هـزلية فقط . . بل هى أسـاس « الهزل» الذى نطالعه «للتنويريين ــ المتغربين» عن تحديث الدين ، وتطوير العقـائد الدينية ، وتجاوز الموروث الحضارى ، وتبعية الفكر الـدينى ـ بحسبـانه « بناء فـوقيا» لـلأبنية «التحتية ــ المادية» فى التغير والتطور والزوال !! . .

إنه « الدين ـ الوضعى» . . الـذى وضعه البشر، وتواضعوا عليه . . ذلك الذى « آمـن» به سـلامة مـوسى . . ورواد وتـلاميذ « التنـوير ــ الوضعـى ـ الغربى» . . والذى يبشرون به بيننا حتى هذا التاريخ ! . . فعليه يُحْسَبُون . . وبمعـاييره يكون نقـدهم . . لأن الـديـانات السماويـة ــ مطلق الـديانـات السماوية ـ بريئة منهم براءة الذئب من دم ابن يعقوب !! . .

تلك هـى صفحة « الإيمان الـدينى» فى مشروع سـلامة مـوسى « لتفـرنج الأمة» حتى فى الدين ! . .

---

(١٥) المرجع السابق . ص ١١٥ ـ ١١٧ .

المذهب: التفرنج . . واحتقار الشرق!! . .

فيما كتبه سلامة موسى، فى العشرينيات، وتبعه فيه طه حسين فى الثلاثينيات ـ بعبارات أقل حدة ـ حول انتمائنا الثقافى والحضارى والعقلى إلى الإغريق والرومان والغرب، وليس إلى الشرق، «خداع فكرى» يعجب المرء كيف جاز على الكاتبين، وعلى الذين أيدوا هذا الاتجاه! . .

لقد عقدوا المقارنة والمقابلة والمفاضلة بين العقل الشرقى، بمعنى حضارة وثقافة الشرق الأقصى، فى اليابان والصين . . وبين العقل الغربى الأوربى، بمعنى حضارة وثقافة الإغريق والرومان وأوربا الحديثة والمعاصرة . . ثم خلصوا إلى أن أمتنا غربية العقل، أوربية الحضارة والثقافة، إذ لا رابطة تربطها بالصينيين واليابانيين! . .

ولست أدرى، فى أى مرحلة من مراحل التاريخ، ولا فى أى مذهب من مذاهب الفكر، قد طرحت قضية انتمائنا الفكرى والثقافى والحضارى على هذا النحو الذى زعموه؟! إن تاريخنا لم يعرف صوتا واحدا قال إن الانتماء الحضارى للعرب والمسلمين هو إلى حضارات اليابان والصين والهنود، ومن ثم فلم تقم فى تاريخنا مقابلة بين شرقيتنا، بمعنى يابانيتنا أو صينيتنا، وبين إغريقيتنا ورومانيتنا . . وإنما المقابلة كانت ولا تزال بين شرقيتنا، بمعنى إسلاميتنا وعروبتنا، المتميزة حضاريا، عن كل من الغرب الإغريقى، وعن اليابان والصين والهند أيضا، وبين الحضارات الأخرى . .

إن حضارات الشرق الأقصى قد طبعتها فلسفات الديانات الوضعية الوثنية التى سادت عقائد أممها وشعوبها . . والحضارة الغربية قد طبعتها مواريث الإغريق والرومان، حتى لقد طُوِّعت مسيحيتها لهذه المواريث . . وبين حضارات الشرق الأقصى والحضارة الغربية تميزت الحضارة الإسلامية، تلك التى دار ويدور الجدل حول علاقتها بالحضارة الغربية، وهل هى علاقة « التميز . . والتفاعل»؟ . . أم «التبعية . . والذوبان والاندماج»؟ . .

تلك هى حقيقة المقابلة والمفاضلة : شرقيتنا الحضارية نحن العرب والمسلمين؟ أم غربيتنا الحضارية كإغريق فى الثقافة نعيش فى الشرق الأدنى من بلاد الإغريق؟! أما استدعاء حضارات الشرق الأقصى ، وتصويرها فى صورة البديل الذى علينا أن نختار بينه وبين الغرب الحضارى ، فلم يكن إلا لونا من الخداع الفكرى ، قصد به أصحابه إخفاء تميزنا كشرق عربى إسلامى عن كل من حضارات الشرق الأقصى والحضارة الغربية جميعا! . .

لقد استدعى دعاة التبعية والإلحاق الحضارى نقيضا وهميا ، ليصوروا أن بديله هو الاندماج فى الحضارة الغربية ، فى محاولة غريبة لإخفاء القضية الجوهرية التى دار ويدور حولها الخلاف ، وهى مدى تميزنا ، كعرب ومسلمين ، حضاريا . . ومشروعية استقلالنا الحضارى ، الذى يعترف به الجميع للهنود واليابانيين والصينيين والغربيين . .

فى ضوء هذه الحقيقة ، التى كشفت وتكشف هذا « الخداع الفكرى» ، نقرأ مذهب سلامة موسى ، الذى عبرت عنه كلماته الحادة ، حول حقيقة انتماء الأمة ثقافيا وحضاريا . . والذى لخصه الرجل فى الادعاء بأننا «فرنجة» ، علينا أن نحتقر كل ما هو شرقى ، ونندمج فى كل ما هو أوربى !! . . **وحسن الحظ ، فإنه لم ينجح ، أثناء عرض مذهبه ، فى أن يخفى مراده من مصطلح «الشرق» . . فكل « الشرق» الذى صب عليه جام غضبه كان عربيا إسلاميا ، ولم يتوجه نقده إلى شىء من « شرق» الصين واليابان!! . .**

* * *

لم يكن لسلامة موسى من مقومات **«الانتماء للذات الثقافية العربية الإسلامية»** ما كان للدكتور طه حسين ، ولذلك اختلف مستوى التعبير لدى كل منهما عن هذه « المقومات» . فطه حسين « يحترمها» مع الادعاء بأنها

«إغريقية الجذور. . والمستقبل»، بينما سلامة موسى « يحتقرها» ويدعو إلى التخلص منها، واستبدال الثقافة والمكونات الحضارية الأوربية بها!! . . وله فى ذلك صفحات كثيرة لا تحتاج أفكارها إلى تأويل، أو حتى تفسيرا! . . فهو يقول:

«كلما ازددت خبرة وتجربة وثقافة، توضحت أمامى أغراضى . . فهى تتلخص فى أنه: **يجب علينا أن نخرج من آسيا وأن نلتحق بأوربا. فإنى كلما زادت معرفتى بالشرق، زادت كراهيتى له، وشعورى بأنه غريب عنى. وكلما زادت معرفتى بأوربا، زاد حبى لها، وتعلقى بها، وزاد شعورى بأنها منى وأنا منها.**

فأنا أزاول حرفة الأدب، لكى أدأب فى وعظ أمتى بوجوب كفها عن ممارسة العادات التى اكتسبتها من آسيا، ووجوب اصطناعها عادات أوربا. .

وأريد من التعليم أن يكون تعليما **أوربيا لا سلطان للدين عليه ولا دخول له فيه** . . .

وأريد من الحكومة أن تكون ديمقراطية برلمانية كما هى فى أوربا، وأن يعاقب كل من يحاول أن يجعلها مثل حكومة هارون الرشيد أو المأمون، أتوقراطية دينية . . .

وأريد من الأدب أن يكون أدبا أوربيا . . أبطاله فتيان مصر وفتياتها، لا رجال الدولة العباسية ولا رجال الفتوحات العربية . . .

ثم أريد أن تكون ثقافتنا أوربية . . . **أما الثقافة الشرقية، فيجب أن نعرفها لكى نتجنبها، لما** نرى من آثارها فى الشرق، آثار: العبودية والذل والتوكل على الآلهة . . . .»!! . .

وجدير بنا، وقبل أن نكمل النصوص المعبرة عن مذهب سلامة

موسى . . أن نستلفت النظر إلى حقيقة المراد ببعض المصطلحات . .

● فالرجل يدعو إلى « الخروج من آسيا» و«الالتحاق بأوربا» . . وبديهى أنه لم يكن داعية هجرة من «جغرافية المكان» . . **فآسيا هنا مصطلح حضارى وثقافى معناه : الإسلام وحضارته** . . والمستشرق والسياسى الفرنسى «جبرييل هانوتو» [١٨٥٣ ــ ١٩٤٤م] ـ صاحب الحوار الشهير، الذى رد عليه الإمام محمد عبده، حول « المسألة الإسلامية» ـ يعبر عن بوادر انسلاخ «تونس» من الإسلام وحضارته، والتحاقها بالحضارة اللاتينية، فيقول : «يوجد الآن بلد وأرض تنفلت شيئا فشيئا **من مكة ومن الماضى الآسيوى**»[١٦]! ! . . و«نمط الإنتاج الآسيوى » ــ الذى تحدث عنه كارل ماركس فى مراسلاته مع فريدريك إنجلز ــ هو نمط الإسلام فى التملك والإنتاج . . والمجلات والجمعيات الاستشراقية التى حملت كلمة « آسيا» كانت متخصصة فى دراسة الإسلام وحضارته . . فـ «مكة . . والماضى الآسيوى» ـ بعبارة هانوتو ـ العنوان على الإسلام وثقافته وحضارته . . وليس مصطلحا جغرافيا مجردا . .

● أما « الشرق» ، الذى يدعو سلامة موسى إلى استبدال أوربا به . . والذى عدد «مثالبه» . . فإنه ــ بتعداد « المثالب» ـ لم يدع للشك مجالا فى أن مراده « الشرق العربى الإسلامى» ، وليس «الشرق الأقصى . . اليابانى أو الصينى» ، كما حاول هو وطه حسين خداع القراء وتخفيف الصدمة على المتلقين . .

فالدين الذى يدعو إلى إخراجه من التعليم ، حتى يكون التعليم « أوربيا ـ علمانيا» هو الإسلام ، الذى كان يدرس فى مدارسنا . . فلم تعرف مدارسنا ديانات الصين أو اليابان أو الهنود ! !

(١٦) [الإسلام والرد على منتقديه] ـ لمجموعة من العلماء ـ ص ٢٧ . طبعة القاهرة سنة١٩٢٨ م .

والحكومة التى يـرفضها هى التى تحتكم إلى الشريعة الإسـلامية ، كما كان الحال فى عهد الـرشيد والمأمـون . . وهو يريـد بدلا منهـا حكومـة « أوربية ـ علمانية» . .

والأدب الـذى يـريـده هـو أدب « العـاميـة المصريـة»، لا العـربيـة الفصحى . . أدب الإقليم المصرى ، وليس الانتماء العربى والإسلامى . .

وهو لايـريد الثقافة الإسـلامية المؤمنة ، التى تعلـم الإنسان «**التوكل على الله**»!! . . بل يـريد ثقافة علمانيـة أوربية تلتزم بفلسفـة « التنوير ـ الغـربى» الوضعيـة ، التى عزلـت الدين والله والسماء عن الفكـر والثقافة وكـل شئون العمران الإنسانى . .

فـ« آسيـا» و«الشرق» هنا يراد بهما حضارة الإسـلام . . لا حضارة الصين واليابان ! ! . .

ويمضى سـلامة موسـى ليهون على قرائه هذه المهمـة التى يدعـو إليها ـ احتقار الشرق العربـى الإسلامى . . والانسلاخ منه . . والالتحـاق بأوربا ، ثقافيـا وحضاريـا ـ . . فيقـول إن ألف عـام من الحكـم والحضارة والثقـافة الآسيويـة ـ [وهنـا ننبه إلى أن هذه الحقبـة ، الألف عـام ، هى عمـر سيادة الإسلام والعـربية فى المنطقة ، ولا عـلاقة للأمـر بآسيا اليـابان أو الصين ! !] ـــ . . يقول إن هــذا الـزمن مـن حكـم الإسلام وثقـافتـه لم يغير من انتمائنـا الأوربى ! ! . . ونص عباراته يقول :

«ولسـت أجهل أن آسيـا قد حكمـت مصر نحو ألـف عام ، وبسطـت عليهاحضارتها وثقـافتها ، بل ودست دمها فى دمـاء أبنائها . **ولكننا نحمد الأقدار ـــ [! !] ـ أننا مـازلنا فى السِّحنـة والنزعة أوربيين ، إذ نحـن أقرب فى هيئة الوجه ونزعة الفكر إلى الإنجليزى أو الإيطالى . . وكذلك الحال فى سوريا وشمال إفريقيـا العربـى ، فإن سكان هـذه الأقطار أوربيـون سحنة ونـزعة .**

فلماذا إذن لا نصطنع جميعا الثقافة والحضارة الأوربيتين، ونخلع عنا ما تقمصناه من ثياب آسيا؟! . .

هذا هو مذهبي الذي أعمل له طول حياتي، سرا وجهرة. فأنا كافر بالشرق، مؤمن بالغرب. وفي كل ما أكتب أحاول أن أغرس في ذهن القارئ تلك النزعات التي اتسمت بها أوربا في العصر الحديث، وأن أجعل قرائي يولون وجوههم نحو الغرب، ويتنصلون من الشرق . . »[17]! !

ذلك هو مذهب سلامة موسى: مواجهة الإسلام وحضارته . . واحتقار كل ما له صلة بالعروبة والإسلام . . ودعوة لطي صفحة تاريخنا الحضاري العربي الإسلامي، والتنصل من كل آثارها . . والاندماج في الحضارة الغربية وثقافتها باعتبارنا «أوربيين سحنة ونزعة» أي في الخَلْق والخُلُق والفكر والثقافة جميعا! ! . .

وعلى هذا المذهب يطلق جيل التلاميذ ـ تلاميذ سلامة موسى ـ مصطلح «التنوير»، ويطبعون كتبه ليواجهوا بها المشروع الإسلامي هذه الأيام! ! . . فهل بقي في الأمر غموض أو إبهام؟! . .

* * *

وإمعانا في «التمويه» ـ ولا أظنه الجهل ـ الذي يريد استبعاد «الشرق الإسلامي» تحت ستار استبعاد «الشرق الأقصى»، الصيني والياباني، يتحدث سلامة موسى عن قيام «الرابطة الشرقية» بالقاهرة في العشرينيات، باعتبارها «إحدى كوارث هذا الاعتقاد في شرقيتنا»! . . بل ويجعل عنوان مقاله هذا: [**الرابطة الشرقية سخافة**] . . ويدعو ـ بدلا من هذه «الكارثة . . والسخافة» ـ إلى «رابطة غربية» بيننا وبين أبناء أوربا . . فيقول: « . . وإحدى كوارث هذا الاعتقاد في شرقيتنا: اهتمامنا بالشرق

---

(١٧) [اليوم والغد]. ص ٥ ـ ٧ .

دون الغرب ، حتى لقد تأسست فى القاهـرة جمعية تدعى « الرابطة الشرقية» ، فيها أعضاء من الهند وجاوة ، ولعل بها أعضاء أيضا من الصين . فما لنا ولهذه الرابطة الشرقية؟! وأية مصلحة تربطنا بأهل جاوة؟ وماذا ننتفع منهم؟ وماذا هم ينتفعـون منا؟! . . إننـا فى حاجـة إلى رابطة غـربية . كـأن تؤلـف جمعية مصرية يكون أعضـاؤها من السويسريين والإنجليـز والنروجيين وغيرهم . . مثل هؤلاء النظاف الأذكيـاء ـ [!!] ـ نستطيع أن نؤلف رابطـة معهـم . ولكن ما الفـائدة من تـأليف رابطة مـع الهندى أو الجاوى؟! . . إننـا أمة قـد سرنا شوطا بعيدا فى **الحضارة الغربية ، التى هى منا ونحن منها . .** »(١٨).

وكما أشرنـا ، فإن هـذا الاعتراض على « الـرابطـة الشرقية» هـو إمعـان فى «التمويـه» ، ذلك أنها كـانت رابطة بين المجـاهدين مـن أبناء شعـوب الأمة الإسلامية الشرقيين ، الذين جمعتهم وتجمعهم ، مع رابطة العقيدة الإسلامية ، والحضارة الإسلاميـة ، آمال وآلام المواجهة مع الاستعمار الغربـى الذى احتل بلادهـم جميعـا . . فعلاوة على الرابطة الإسلاميـة ، التى يريد سلامـة موسى استبعادِها ، بـإخفائها تحت عنوان «الشرق» ، الذى أوهـم قراءه أنه « الشرق الأقصى» ــ شرق اليابان والصين ـــ . . علاوة على «إسـلامية» هذه الـرابطة «الشرقية» ، فإنها كانت رابطة شعوب جمعتهـا المعاناة من الاستعمار الغربى ، والسعى للتحـرر الوطنى مـن نير احتلالـه واستغلاله . . وكفـى بهذه المهمة مبررا لقيامها . . ومع ذلك . . فسلامة مـوسى يرشح للمصريين رابطة غربية تجمعهم والإنجليز المستعمرين لهم ولأبناء الشرق كلـه ، بدلا من رابطة تجمع المستضعفين المجاهدين فى سبيل التحرر الوطنى والنهوض الحضارى!! . .

والأغرب من ذلك . . أن هذا الذى كتبه سلامة موسى فى العشرينيات ، يعود الدكتور طه حسين ليكتبه فى الثـلاثينيات . . فيقول : «ومهما أنس فلن أنسى مـواقف الحيرة والعجـز عن الفهم التـى كنت أقفهـا منذ أعـوام ، أمام

(١٨) المرجع السابق . ص١٨٦ ، ١٨٧ .

جماعة كانت تقوم فى مصر، وكانت تسمّى نفسها جماعة الرابطة الشرقية، وكانت تذهب فى سيرتها وتفكيرها هذا المذهب الغريب، مؤثرة التضامن مع أهل الشرق الأقصى على التضامن مع أهل الغرب الأدنى»(١٩).

وإذا كان سلامة موسى قد مات فى الخمسينيات، أى بعد قيام «مؤتمر باندونج» سنة ١٩٥٥م، فإن «عمالته الحضارية» قد ميزت بينه وبين الدكتور طه حسين، الذى عايش أنشطة التضامن الآسيوى الإفريقى وأسهم فيها، فى حقبة تطوره الفكرى، منذ ارتباطه الأوثق بالمشروع الوطنى والقومى - فى امتداداته التضامنية مع الشعوب المستضعفة - إبان المواجهة الحادة مع الغرب لتصفية استعماره لأمم وحضارات الشرق كلها..

* * *

لقد كانت مقاصد سلامة موسى واضحة: نحن فرنجة.. وعلينا أن نتفرنج، ونندمج فى الحضارة الأوربية، التى تمثل المثل الأعلى فى كل شىء.. من الإنسان - خِلْقَه وخُلُقًا - إلى الفكر والثقافة والحضارة.. حتى لقد بلغ فى عشق الأوربيين حد لوم المصريين وتعنيفهم على «حسدهم» لمستعمريهم الإنجليز!!..

ولما كانت الجامعة الشرقية.. بل وحتى «الشرق» كمصطلح.. تمثل عقبة فى طريق التفرنج والإلحاق الحضارى والدمج الفكرى والتبعية الثقافية، فلقد ذهب سلامة موسى فى ذمها والهجوم عليها كل مذهب، بما فى ذلك مذاهب العبث اللامعقول؟!..

ولما لم يكن هناك سبيل لإلغاء كلمة «الشرق» - كمصطلح - فلقد زعم سلامة موسى أننا سمينا شرقيين، لا لأننا غير الغربيين، وإنما لأننا غربيون!!.. فسبب التسمية أننا كنا تابعين للدولة الرومانية الشرقية!!..

---

(١٩) [مستقبل الثقافة فى مصر]، جـ١، ص ١٥

وفى هذا «العبث اللامعقول» ، يقول «رائد التنوير» ، الذى يواجه تلاميذه اليوم بكتبه المشروع الإسلامى والصحوة الإسلامية . . يقول : «إن للألفاظ تأثيرا كبيرا فى العقول . فإذا نحن غرسنا فى أذهان المصرى أنه شرقى ، فإنه لا يلبث أن ينشأ على احترام الشرق وكراهة الغرب ، وينمو فى نفسه كبرياء شرقى ، ويحس بكرامة لا تطيق أن يجرحها أحد الغربيين بكلمة ، فينشأ على كراهة الحضارة الغربية ، ويقاومها ، ولا يصطنعها إلا مقهورا مغلوبا على نفسه .

ولكن الواقع أننا لسنا شرقيين . وإنما جاءنا هذا الاسم من أننا كنا تابعين للدولة الرومانية الشرقية عندما انفصلت من الدولة الرومانية الغربية . . »[٢٠] ! !

فهو لا يريد للإنسان الشرقى الكبرياء ، ولا الكرامة التى لاتطيق أن يجرحها الغربى . . وهو يكتب ذلك وبلاده محتلة من قبل الإنجليز الغربيين ! ! . . لقد كان داعية لنزع الاحترام والكبرياء والكرامة عن الشرق والشرقيين ! ! . .

أما أن «شرقيتنا» ــ كاسم ـ قد جاءتنا من أننا كنا جزءا من الإمبراطورية الرومانية الشرقية ، فهو عبث كان يقتضى لاستقامته أن يعلل الرجل « شرقية الفرس» وغيرهم من الأمم الآسيوية ، والذين لم يكونوا فى يوم من الأيام جزءا من الدولة الرومانية الشرقية ! ! . .

لكن الرجل يعود فينقض دعواه العبثية ، بادعاء عبثى آخر . . فبعد أن زعم أن «شرقية العرب» قد جاءت من عيشهم نحو ألف سنة جزءا من الدولة الرومانية الشرقية . . عاد ليزعم أنهم ـ العرب ـ قد صاروا شرقيين «بتوغلهم فى آسيا إلى حدود الصين ، وأيضا بعادة التسرى وعادة الضرار ـ [تعدد الزوجات] ــ اللتين أجازهما لهم الإسلام ، فدخلهم دم آسيوى ،

(٢٠) [اليوم والغد] . ص ١٧٩

وخاصة صينـى ، كثير، فإن لفظة أَمة ، بمعنـى جارية ، هى لفظـة صينية ، وقـد دخلـت اللغـة العـربيـة لكثرة الإمـاء التـى كـان يشتريها العـرب مـن الصين»[٢١]! ! . .

والمرء يدهـش لكثرة الأكـاذيب فى هذه العبـارة الموجزة . . فـزواج العرب المسلمين من الصينيـات ، ووجود جوار صينيات ، فى حقبـة الرق بالتـاريخ الإسلامى ـ أمران لا أثـر لهما ولا ذكر عنهما فى تاريخ العرب والمسلمين! ! . . والرجل نفسه ، فى مكان آخر، هو الـذى يكذِّب ذاته ، عندما يقول : «نحن فى هيئة الـوجه أوربيـون . ولو لبس السـورى أو العربـى أو المصرى قبعة ، لما استطاع الإنسـان تمييزه من الإيطـالى أو الإسبانـى . ولكن مهما لبسنا ، فـإننا نتميز من الصينىَ أو الجاوى أو اليابانى . . » [٢٢]!

فأيـن هى الـدماء الصينيـة الكثيرة والآسيويـة التى دخلـت العرب بعـد الإسلام؟ !

ثم ، من علَّم سلامة موسى أن لفظـة « أَمة» صينية ، دخلت العربية بعد الإسلام بسبب الجوارى اللائى أتت بهن الفتوحات؟! . . ألم يسأل أحدا من العامة ليعلم أن «أَمَـة» كلمة عربية ، جاءت فى القرآن الكـريم وفى الحديث النبوى الشريـف؟! . . ﴿**ولأمة مؤمنة خير مـن مشركة ولو أعجبتكم**﴾ . [٢٣] ﴿**وأنكحوا الأيامـى منكم والصالحين من عبـادكم وإمائكم إن يكـونوا فقراء يغنهم الله من فضلـه والله واسع عليم**﴾ [٢٤]. . و«أيما رجل ولدت أمتـه منه فهى معتقة . . »[٢٥] . . إلخ . . إلخ . . إلخ . .

لقد كان الرجل باحثا ـ بـالحق أو بالباطل ـ وإن شئت فقل بكل ضروب الباطل ـ عن مبررات « التفرنج» والإلحاق بثقافة الغرب وحضارته . . «فذوقنا

---

(٢١) المرجع السابق . ص ١٩٦ . (٢٢) المرجع السابق . ص ١٨٠ .

(٢٣) البقرة : ٢٢١ . (٢٤) النور : ٣٢ .

(٢٥) رواه ابن ماجة والدارمى والإمام أحمد . . ومفردها وجمعها واردانِ فى عشرات الأحاديث . .

ــ [كما يقول] ــ ودمنا هما الـذوق والدم الغـربيـان . ونحن فى هيئـة الوجـه أوربيون»!! . . بـل لقد سعـى إلى إثبات أن المصريين ــ الذيـن يستعمرهـم الإنجليز ـ هم والإنجليز شعب واحـد!! . . وحتى اللغة المصرية القديمة ـ الهيروغليفيـة ـ بينهـا وبين اللغـة الإنجليـزية اشتراك فى مئـات الكلمات . . «فلقد أثبـت إليوت سمث أن الشعـب الأول الذى سكـن مصر، لا يختلف البتة عن الشعـب الذى كان يسكن إنجترا قبـل ٤٠٠٠ سنة . وبين المصرية القديمة والإنجليزية الراهنة مئات الألفاظ المشتركة لفظا ومعنى»(٢٦)!!

والرجـل ، بهذا الحديث عـن اتحاد المصريين بمستعمريهم الإنجليـز، إنما يتجاوز «**العمالة الحضارية**» ليقترب من «**العمالة السـياسية**»!! . . وإلا فبماذا نفـسر قوله : «**إن الأجانـب يحتقـروننا بحق ، ونحــن نكرههم بـلا حق**» ؟! ـ وهل هذا كلام إنسان وطنى؟! ـ . وقـوله : «**كانت أكثر كراهيتنا للأجانب حسـدا ـ [!!] ـ لأنهم نازعونا البقاء فغلبونا ، واشـتغلوا بالتجـارة والصناعة والصيرفة ، ولم يتركوا لنا سوى الزراعـة نعمل فيها كالعبيد**»؟! فأمته ـ فى رأيه وتبعـا للدارونيـة ــ محكـوم عليهـا بـالفنـاء فى صـراع البقـاء مـع الأجانـب الأقـويـاء ، الـذيـن نحسـدهم ونكـرههـم بغير حـق ، بينما هـم محقـون فى احتقارنا!! . .

ولذلـك كانـت دعوة سلامـة موسـى إلى دمج الأجـانب فى المصريين . . وليـس إلى تحريـر مصر منهـم . . وإلى إزالـة مخاوفهم « **بفصـل الـدين عـن الدولة ، وإلغاء التعليم الدينى من المدارس**» !! . . ــ والدين هنا هو الإسلام وحـده . . وإلا فالمدارس الأجنبيـة كلها مـدارس إرسـاليات « تبشيريـة!! ، وكـانت إشـادتـه بالإنجليـز المستعمـرين لمصر « **كـأرقـى أمة فى العـالم . . جسما . . وعقلا . . وخُلُقًا . .**»!! (٢٧) . .

---

(٢٦) [اليوم والغد]، ص ١٨٠ . (٢٧) المرجع السابق . ص ٢٠٠ ، ٣٥ , ٣٧ , ٣٨ .

فماذا تكون « العمالة السياسية» ـ فى أمة مستعمرة ـ غير هذا الذى قال «رائد التنوير» سلامة موسى؟ ! . .

* * *

وسلامة موسى عندما قال : «إننى أدعو إلى التنصل من آسيا والانضمام إلى أوربا ، والإيمان بحضارتها وثقافتها»[28] . . كان واضحا فى الدعوة إلى «التنصل» من كل المكونات والمقومات الشرقية ـ «العربية ـــ الإسلامية» ـ فى فكرنا وثقافتنا وحضارتنا وعاداتنا وتقاليدنا وأعرافنا . . **كان داعية لإلغاء «الذات» الحضارية** ، واستبدال « الآخر ـ الحضارى ـ الأوربى» بها . .

● فهو يدعو إلى هجر الثقافة العربية . . وتحويلها إلى « المتاحف» ، تدرسها قلة من علماء الحفريات ، كما يدرسون آثار « بابل» و«أشور»!! . . فيقول : «**إن هذا الاعتقاد بأننا شرقيون قد بات عندنا كالمرض . ولهذا المرض مضاعفات . فنحن لا نكره الغربيين فقط ، ولا نتأفف من طغيان حضارتهم فقط ، بل يقوم بذهننا أنه يجب أن نكون على ولاء للثقافة العربية** ، فندرس كتب العرب ، ونحفظ عباراتهم عن ظهر قلب كما يفعل أدباؤنا المساكين أمثال المازنى والرافعى ، وندرس ابن الرومى ، ونبحث عن أصل المتنبى ، ونبحث عن على ومعاوية ونفاضل بينهما ، ونتعصب للجاحظ ، ونحاول أن نثبت أن العرب عرفوا الفنون . . وكل ذلك إنما يدفعه فى أنفسنا كراهتنا للغرب ، وأنفتنا من جهة ، واعتقادنا أننا شرقيون من جهة أخرى» [29]!!

كل هذا ، برأى سلامة موسى ، من أعراض «مرض الشرقية» . . أى الاعتقاد بأننا شرقيون . فكراهة الغرب ، بل مجرد التأفف من طغيان حضارته علينا ، وأى مظهر من مظاهر الولاء للثقافة العربية ، وأى لون من «الأنفة» ،

---

(٢٨) المرجع السابق . ص ٢٠٤ . (٢٩) المرجع السابق . ص ١٨٣ .

هى أعراض لمرض الاعتقاد بأننا شرق عربى له ثقافة عربية، ولسنا غربا، ثقافتنا وحضارتنا هى ثقافة الغرب وحضارته . .

ولذلك ، فإن علاج هذا «المرض» ـ عند سلامة موسى ـ : هو إلغاء الثقافة العربية، وإحلال الثقافة الغربية محلها . . وفى وصف هذا العلاج يقول : «**إنه ليس علينا للعرب أى ولاء . وإدمان الدرس لثقافتهم مضيعة للشباب، وبعثرة لقواهم**. فيجب أن نعودهم الكتابة بالأسلوب المصرى الحديث، لا بالأسلوب العربى القديم. **ويجب أن يعرفوا أننا أرقى من العرب**. . وليس معنى هذا تحريم درس العرب وتاريخهم وثقافتهم، **فإن العرب أمة قديمة يجب أن يكون لها أثريون يدرسونها كما يدرسون أشور وبابل**. . »[30]!!

● ونفس الموقف يتخذه سلامة موسى من الفنون والآداب العربية والإسلامية . . يدعو إلى هجرانها، والاستعاضة عنها بالفنون والآداب الأوربية . . فيخاطب قارئه قائلا: « ألا يرى القارئ ما جره علينا تعلقنا بالشرق، وتوهمنا أننا أمة شرقية، حتى إننا ليس لنا ما يغذى عواطفنا الآن من شعر أو موسيقى أو رقص أو غناء؟ . . إننا نحتاج الآن إلى ما يهيج قلوبنا، ويملؤها تفاؤلا بالحياة ، **ولن نجد ذلك إلا بارتباطنا بالغرب، واصطناع ماعند الغربيين من رقص وألحان وموسيقى** . . **أما الشعر العربى، فقد سئمنا قوافيه الرتيبة التى تشبه دق الطبل عند السودانيين** . . »[31] !!

ورغم أن سلامة موسى قد كان يعيش ويعايش شعر أحمد شوقى [١٢٨٥ ـ ١٣٥١هـ، ١٨٦٨ـ ١٩٣٢م]، وحافظ إبراهيم [١٢٨٧ ـ ١٣٥١هـ، ١٨٧١ـ١٩٣٢م] ، وعباس العقاد [١٣٠٦ـ١٣٨٣هـ، ١٨٨٩ـ ١٩٦٤م]، وأحمد محرم [١٢٩٤ ـ ١٣٦٤هـ، ١٨٧٧ ـ ١٩٤٥م]، وجيلا كاملا

---

(٣٠) المرجع السابق. ص ١٨٣، ١٨٤ .   (٣١) المرجع السابق. ص ١٩٠ .

من فحول الشعر العربى، الذين جمعوا ــ فى الشعر بين « الأصالة» و«المعاصرة»، إلا أنه يفترى على الشعر العربى، فيزعم أنه لايزال جامدا عند صورته الجاهلية . . بل ويعمم الاتهام على مجمل الأدب العربى المعاصر، فيقول : «إن نزعة الجمود ـ أى ما للقديم من حرمة ـ منعت هؤلاء الأدباء من استنان أى سنة جديدة فى عالم الأدب العربى . ولذلك بقى الشعر فى أيام الدول الإسلامية المتقدمة والمتأخرة كما كان أيام الجاهلية . . » (٣٢)!! . .

● ولما كانت اللغة العربية هى وعاء هذه الثقافة والفنون والآداب، التى دعا سلامة موسى إلى هجرانها، وتحويلها إلى المتحف مع آثار بابل وأشور. . وهى لغة القرآن، وتقاليد العرب وتراثهم . . فلقد صب عليها الرجل جام الغضب . . ودعا إلى هجرها، والاستعاضة عنها بلغة الهكسوس، أى العامية المصرية، التى رفض حتى أن يعترف بعلاقتها باللغة العربية!! . .

لقد اتهم العربية بالعجز حتى عن وصف أثاث الغرفة التى يجلس فيها . . وقال إنها غريبة عنا . . وإنها عاجزة عن الوفاء بمتطلبات الترجمة عن اللغات الأخرى . . وإنها لغة بدوية . . وإنها تبعثر الوطنية المصرية فى إطار القومية العربية الأوسع!! . . وإنها تربطنا بالشرق، وتحول دون توجهنا إلى الغرب . . ودعا إلى تحويلها إلى متحف اللغات الأجنبية، ندرسها كما ندرس الروسية والإيطالية!! . .

فهى، عنده: «لغة بدوية، لا تكاد تكفل الأداء إذا تعرضت لحالة مدنية راقية كتلك التى نعيش بين ظهرانيها الآن. فها أنا ذا فى غرفتى هذه لا أعرف كيف أصف أثاثها بالعربية، ولكنى أستطيع إجادة وصفها بالإنجليزية»(٣٣).

---

(٣٢) المرجع السابق. ص ٦٨ .

(٣٣) المرجع السابق. ص ١٨٥ .

ولأنه يسير على مذهب المهندس الإنجليزى « وليم ولكوكس»[١٨٢٥ ـ ١٩٣٢م] الذى دعا المصريين إلى إحلال العامية محل الفصحى . . والذى ترجم الإنجيل إلى العامية، لينافس بترجمته هذه ترجمته الفصحى . . فلقد كان نصيب الفصحى من هجوم سلامة موسى نصيب الأسد من الفريسة ! . .

فهو يتهمها بأنها «لغة ميتة» ، ليس الآن فقط ، بل وحتى فى عصر نزول القرآن ! ! . . فيقول : «إن الفصحى فى اعتقادى كانت لغة الكتابة فقط ، أى لغة ميتة حتى فى زمن ظهور القرآن . ولكن تعليم العربية فى مصر لا يزال فى أيدى الشيوخ الذين ينقعون أدمغتهم نقعا فى الثقافة العربية ، أى فى ثقافة القرون المظلمة ، فلا رجاء لنا بإصلاح التعليم حتى نمنع هؤلاء الشيوخ منه ، ونسلمه للأفندية الذين ساروا شوطا بعيدا فى الثقافة الحديثة . ونحن إنما ننزع للغة العرب القديمة ، لما تأصل فى أذهاننا من ذلك الفرض السخيف ، وهو أننا شرقيون ، يجب علينا أن نحافظ على كرامة العرب وندافع عن تاريخهم . وهذا الاعتقاد فى شرقيتنا يجر علينا عددا من الكوارث قد لا يكون الولاء للغة أهونها . . »[٣٤] ! !

فأصل الكوارث ، عند سلامة موسى ، هو الاعتقاد بتميزنا الحضارى كشرقيين . فمنه تترى كوارث الولاء للغة . . والثقافة . . والحفاظ على الكرامة ، والتاريخ ! ! . . أى والله ! هذه كوارث بنظر سلامة موسى ، الذى ينشر تلامذته اليوم كتبه ، باعتباره رائد « التنوير» ، الذى سيواجه المشروع الإسلامى والصحوة الإسلامية ! ! . .

وسلامة موسى يجعل من جهله وعجزه فى العربية دليلا على عجزها عن الوفاء بما تتطلبه الحياة الحديثة . . فبعد أن ادعى عجزها ، لأنه عاجز عن أن

(٣٤) المرجع السابق . ص ١٨٦ .

يصف بها أثاث حجرته!! . . اتهمها بالعجز لأنه عاجز عن الترجمة بها عن اللغات الأخرى . . فقال : «إننا للآن نرطن اللغة الفصحى رطانة ، ولم تُشْرَبها بعد نفوسنا ، ولا أمل فى أن تُشْرَبها ، لأنها غريبة عن مزاجنا . وقد عانيت الترجمة إلى اللغة الفصحى عدة سنوات فما رضيت مرة عن نفسى وارتضيت الترجمة . فإنما نحن نؤلف ونعتقد أو ندعى أننا نترجم ، وذلك لأن هذه اللغة الفصحى هى لغة بدوية ، والثقافة هى بنت الحضارة وليست بنت البداوة ، فلهذا يشق علينا جدا أن نضع معانى الثقافة فى هذه اللغة سواء بالترجمة أم بالتأليف» (٣٥)!!

ولم يسأل سلامة موسى نفسه : كيف ترجمت حضارات الدنيا إلى العربية . . من الفرس إلى الهند إلى اليونان إلى الحضارة الأوربية الحديثة؟! . . بل إن الرجل لم يتنبه ، فى غمرة كراهيته للغة العربية ، إلى أنه قد كذّب نفسه بنفسه ، وذلك عندما اعترف بأن العربية قد مثلت لغة العلم والروح العلمية التى تميزت بها الحضارة العربية ، والتى تتلمذ فيها الغرب على الإسلام والعربية ، حتى إن علماء أوربا ، الذين أخذوا العلم والمنهج التجريبى - أى المصدر الثالث من مصادر الثقافة الأوربية - بتعبير سلامة موسى - إن هؤلاء العلماء الأوربيين المجددين ، الذين صنعوا النهضة الأوربية إنما «كانوا يهتمون بالإسلام وبمعرفة اللغة العربية»!! . .

يعترف سلامة موسى بهذه الحقيقة ، الشاهدة على مجد العربية وعظمتها وإمكاناتها ، فيكذّب نفسه بنفسه ، عندما يقول : « . . أما الأصل الثالث للثقافة الأوربية ، فهو الروح العلمية التى ظهرت فى الأندلس على أيدى العرب . فقد انغمس الإغريق فى النظريات الفلسفية ، وانتقلت هذه العدوى إلى العرب ، لكنها لم تغمرهم ، فإنهم أخذوا فى العمليات ، أى فى التجربة ، وكان للتجربة عندهم شأن كبير ، وخاصة عندما أخذوا فى محاولة

(٣٥) المرجع السابق . ص ٧٧ ، ٧٨ .

إيجاد الذهب من الزئبق، فدرسوا أشياء. . هى فى الواقع أصل النزعة العلمية الحديثة التى تتسم بالتجربة. ومما هو ذو دلالة فى النهضة الأوربية أن المجددين من أمثال روجر بيكون كانوا يهتمون بالإسلام وبمعرفة اللغة العربية. .»(٣٦)!

لكن سلامة موسى ينسى هذه الحقائق، ويتناسى دلالتها على قدرة العربية الفصحى على التواصل والتفاعل مع اللغات والحضارات. . . ويمضى ليصب عليها جام الغضب. . وكيف لا، والرجل داعية انسلاخ عن الشرق والعرب والإسلام، بينما العربية رباط بين مصر والشرق والعرب والإسلام؟!. . فهو - وبتعبيره - «ينقم» عليها أنها تجمع مصر بهذا الإطار الحضارى الأوسع الذى يريد أن يحطمه ويلغيه. . فيقول: «**ومما يمكن أن ينقم على اللغة الفصحى أيضا، أنها تبعثر وطنيتنا المصرية، وتجعلها شائعة فى القومية العربية. فالمتعمق فى اللغة الفصحى يُشرب روح العرب، ويُعجب بأبطال بغداد القدماء. . فنظره متجه أبدا نحو الشرق، وثقافته كلها عربية شرقية. مع أننا، فى كثير من الأحيان، نحتاج إلى الاتجاه نحو الغرب. والثقافة تقرر الذوق والنزعة، وليس من مصلحة الأمة المصرية أن ينزع شبابها نحو الشرق. .**»(٣٧)!!

فالرجل يريد عزل مصر عن جسمها العربى، ليسهل تحقيق حلم سلفه القديم «المعلم يعقوب اللعين» فى إلحاقها بالغرب الأوربى. . والعربية تمثل عقبة أمام العزل والانسلاخ وأمام الضم والإلحاق كليهما. . فلذلك استحقت منه النقمة التى نراها فى هذه النصوص!. .

أما البديل الذى رشحه سلامة موسى ليحل محل العربية، فهو العامية المصرية. . بل لقد اجتهد حتى أجهد الحقيقة، فزعم أن لا علاقة لهذه

---

(٣٦) المرجع السابق. ص ١١٠، ١١١. وانظر كذلك: ص ١١٢.

(٣٧) المرجع السابق. ص ٧٤.

العامية المصرية بـالعربية الفصحى، وجاء بكلام مضحـك زعـم فيه أن هذه العامية هى لغة الهكسوس القدماء!!..

والمرء يعجب من رفض الرجل للعربية لأنها آسيوية.. قديمة.. فى ذات الوقت الذى يدعو فيه إلى لغـة الهكسوس، وهـم رعاة آسيويون، غزوا مصر، ولغتهم أقـدم من العربية فى مصر!!.. لكـن العجب يزول عندمـا نعلم أن العربية جامع لمصر بالعرب والشرق والإسلام، وفى ذلك العقبات أمام رسالة الرجل فى سلخ مصر عن محيطها وتراثها لإلحاقها بالغرب الأوربى.. ولذلك فهو يفضل لغة الهكسـوس، الذين غزوا مصر قبل الميلاد بثمانيـة عشر قرنا، على العربية التى جاءت إلى مصر مع الفتح الذى حررها من الاضطهاد الذى يؤرخ به أقباطها حتى الآن!!..

ولذلك، تجاهـل الرجـل تلك الحقيقـة اللغـوية التى أكـدت وتـؤكد أن العـامية المصريـة هى لهجـة عـربية، وليسـت هكسوسية.. وهـى حقيقة وضعت فيهـا كتب ودراسات.. بـل إن قاموسـا خاصا قـد أحضى كلماتها وعـاد بها جميعهـا إلى [القـاموس المحيـط] للفيروزآبـادى [٨١٧ هـ - ١٤١٤م] [(٣٨)]..

يتجاهل سلامة موسى هذه الحقيقة اللغـوية عن عروبة العامية المصرية، ويسير خلـف المهنـدس الإنجليـزى السير «وليـم ولكـوكـس» [١٨٥٢ - ١٩٣٢م]، الـذى نعـرف مـن سـلامة مـوسـى أنـه كـان مهتما «بتنصير المصريين» أيضا، حتى لقـد ترجم الإنجيـل إلى العامية المصرية!!، والذى تزعـم الدعـوة إلى استبدال مصر العامية بالفصحى.. فكتب سـلامة موسى عن «الداعيـة» و«الدعوة» يقول: «إن السير وليـم ولكوكس هو أحـد أولئك

---

(٣٨) انظر ليوسـف المغربى: [دفع الإصر عـن كلام أهل مصر]. تحقيق: . عبـد السلام أحمد عواد. طبعة موسكو، سنة ١٩٦٨م.

الأجانب القلائل الذين تقر مصر بفضلهم وولائهم . . وهموم السير «ولكوكس» مصرية أكثر مما هى إنجليزية . فهو يقيم فى مصر ويفكر فى صالح مصر، لأن مصر هى وطنه الثانى[39]. ولأنها كانت أيضا الواسطة التى تمكن فيها من استغلال مواهبه فى خدمة الناس وزيادة رفاههم .

والهم الكبير الذى يشغل بال السير ولكوكس، بل يقلقه، هو هذه اللغة التى نكتبها ولانتكلمها - [!!] - **فهو يرغب فى أن نهجرها ونعود إلى لغتنا العامية**، فنؤلف فيها وندون بها آدابنا وعلومنا . . **إنه يدعونا إلى هجر اللغة الفصحى هجرة تامة، واصطناع العامية**. وقد ترجم هو نفسه الإنجيل إلى اللغة العامية المصرية، فوفق إلى ترجمة حية يقرؤها المصرى فيلذ له الأسلوب، ويرى فيه جوا مألوفا يشم منه النكهة البلدية . وهو فى اعتقادى أوقع فى النفس من الإنجيل المترجم إلى اللغة الفصحى .

وقد خطب منذ أشهر خطبة عن هذه اللغة، جمع فيها اختباراته عنها، وارتأى فيها **أن هذه العامية التى نتكلمها فى مصر ليس لها علاقة بالعربية الفصحى، فكل منها لغة متميزة عن الأخرى، ونحن لم نكتسبها عن العرب، وإنما نزلت إلينا من الهكسوس الذين أقاموا فى مصر نحو ٥٠٠ سنة** . . »[40] .

هكذا رأينا المهندس الزراعى الإنجلزى «ولكوكس» «الإمام اللغوى» فى دعوة سلامة موسى إلى هجر العربية، لأنها لغة القرآن والتقاليد العربية

---

(٣٩) مع أن الرجل إنجليزى، ولد فى الهند حيث الاستعمار الإنجليزى . . وخدم حيث النفوذ الاستعمارى الإنجليزى . . فبعد مصر، ذهب إلى العراق . . وعدن . . والأردن . . وله كتاب عنوانه [من جنة عدن إلى مخاضة الأردن] . انظر [موسوعة العلماء والمخترعين]، إعداد : د . إبراهيم بدران، د . محمد أسعد فارس . طبعة بيروت، سنة ١٩٧٨م .

(٤٠) [اليوم والغد] ، ص ٧١، ٧٢، ٧٤، ٧٥ .

والثقافية العربية والوحدة الغربية . . وخلف « ولكوكس» سار الرجل ، داعيا إلى التعامل مع العربية وكأنها « لغة أجنبية» عنا . . إذ «**يجب أن ننظر إلى لغة النابغة أو المتنبى كما ننظر إلى اللغة الروسية أو الإيطالية ، لأنها ليست لغتنا ولسنا نستفيد بدرسها** . . »[41]!!

وللمرء أن يسأل دعاة العامية ، الذين زعموا عجز العربية عن أن تكون لغة العلم والفكر والثقافة والحضارة : هل العامية أقدر منها فى هذه الميادين؟! . . أم أن القضية قضية « مراحل »؟! فبعد قطع الروابط القومية والعقدية والحضارية ، بالعامية ، تأتى مرحلة الإلحاق اللغوى ، كجزء من الإلحاق الثقافى والحضارى ، بالغرب الأوربى؟! . .

إن مقارنة الدعوة إلى العامية ، فى مصر، بدلا من العربية الفصحى ، بدعوة الاستعمار الفرنسى ، ببلاد الشمال الإفريقى ، إلى « البربرية» ، بدلا من العربية تكشف لنا وحدة المخطط . . مخطط الاستعمار الغربى - إنجليزيا كان أم فرنسيا - ووحدة مقاصد « العملاء» - فى مصر كانوا أم فى الشمال الإفريقى - . . ففى السنوات التى كان فيها « ولكوكس» يدعو مصر إلى « العامية» ، كان «ليوطى» - أول حاكم استعمارى فرنسى فى المغرب - يدعو لإحلال «البربرية» محل العربية ، ليتم الانتقال من « البربرية» إلى «الفرنسية» . . ولذات الأهداف التى تحدث عنها سلامة موسى . . فالعربية : لغة القرآن . . وفيه العقبة أمام الدمج فى الغرب والإلحاق بحضارته والتأبيد لاستعماره!! . . وإذا كنا قد عرضنا لآراء « ولكوكس» . . ولنصوص سلامة موسى . . وإذا كنا نقرأ اليوم لمن يريدون - فى بعض بلاد الشمال الإفريقى - التراجع عن «التعريب» لأن « الحرف العربى يؤدى إلى الفكر الغيبى»!! - أى الإسلام الذى يكرهون ويحاربون - . . إذا كانت هذه هى حقيقة المقاصد والغايات ، فإن كلمات «ليوطى» - المقيم العام الفرنسى فى المغرب سنة

---

(41) المرجع السابق . ص 184 .

١٩١٢م ـ تلقى المزيد من الأضواء على هذه الحقيقة . . فالرجل قد كتب يومئذ يقول : «إن اللغة العربية تجر إلى الإسلام ، لأن هذه اللغة تُتَعَلَّم فى القرآن . هذا فى حين أن مصلحتنا تحتم علينا العمل على جعل البربر يتطورون خارج إطار الإسلام . ومن الناحية اللغوية يجب أن نعمل على الانتقال مباشرة من البربرية إلى الفرنسية»(٤٢) ! ! . .

ولقد كان « ولكوكس» وسلامة موسى يريدان لمصر ما أراده « ليوطى» للبربر: التطور خارج إطار الإسلام ، وهجر العربية ـ لغة القرآن . . التى تُتَعَلَّم فيه ـ إلى العامية ، للعبور منها إلى الإنجليزية ! ! . . وإلا فماذا تعنى كلمات سلامة موسى عن تراث العربية : «إنه تراث لغوى ، يحمل عقيدة اجتماعية يجب أن نحاربها ! . . فالعربية ليست لغة الديمقراطية والأتومبيل والتليفون ، بل لغة القرآن وتقاليد العرب . . »(٤٣) ؟ ! . . ماذا تعنى هذه الكلمات إذا لم تعن ما أراد « ليوطى» وأضرابه من أساطين الاستعمار والسحق لهوية الأمة العربية الإسلامية ؟ ! . .

تلك هى رسالة سلامة موسى حيال تميز الحضارة الشرقية ــ فى الإطار العربى الإسلامى ــ عن الحضارة الأوربية . . وتلك هى « نصوصه» ـ أو بالأحرى « معاوله» ـ التى انهال بها على المكونات التى ميزت وتميز حضارتنا عن الغرب ، فى الثقافة . . والفنون والآداب . . والتراث . . وفى اللغة التى مثلت وتمثل الوعاء لكل هذه المكونات ! . .

* * *

(٤٢) د . محمد عابد الجابرى : « يقظة الوعى العروبى فى المغرب » ـ ضمن كتاب [تطور الوعى القومى فى المغرب العربى] ، ص ٤٤ . طبعة بيروت ، سنة ١٩٨٦م .

(٤٣) [البلاغة العصرية واللغة العربية] ــ والنص فى : د . على عقلة عرسان [الفصحى والعامية والحوار المسرحى] ، ص ٩ . طبعة الرياض ، سنة ١٩٩٠م .

ولم تخف صراحة سلامة موسى ـ وهى من فضائله ـ أن الأب الشرعى لدعوته : «**هجران الشرق . . والالتحاق بالغرب**» هو بونابرت [١٧٦٩ ـ ١٨٢١م] قائد الحملة الفرنسية على مصر [١٢١٣هـ ـ ١٧٩٨م]. . فهو ـ بعبارة سلامة موسى ـ «**الذى شرع يغرس فينا الحضارة الأوربية ويزيل عنا كابوس الشرق**» ! . . فرسالة سلامة موسى هى غصن من غراس نابليون ! ! . .

لكنه يتململ من قصور « الغرس» وبطئه فى النمو . . ويشكو من «العقبات» التى تجعل الكثيرين يترددون عن السعى فى هذا الطريق . . فيقول : «لقد مضى علينا أكثر من ١٣٠ سنة(٤٤) ونحن فى موقف التردد، لا ندرى هل نحن شرقيون، يجب أن نسير على ما سارت عليه آسيا؟ أم غربيون، يجب أن ننضم إلى أوربا قلبا وقالبا، نعتاد عادات الأوربيين، ونلبس لباسهم، ونأكل طعامهم، ونصطنع أساليبهم فى الحكومة والعائلة والاجتماع والصناعة والزراعة؟ **ولقد شرع نابليون يغرس فينا الحضارة الأوربية، ويزيل عنا كابوس الشرق** . . . ثم جاء محمد على فاعتمد على فرنسا فى تمدين البلاد . . . ثم استمررنا نتراوح بين الشرق والغرب حتى زمن إسماعيل، حين رأى بنافذ بصيرته **أنه لا بد لنا من أن نتفرنج**، ونقطع الصلة بيننا وبين آسيا . . ثم جعلنا نلبس الملابس الأوربية، **ووزع بين أعيان البلاد فتيات من الجركس لكى يتحسن اللون ويقارب البشرة الأوربية** . . . وجاء الإنجليز، فساروا بنا شوطا بعيدا فى إدخال الأساليب الأوربية فى إدارة الحكومة .

وها نحن أولاء نجد أنفسنا الآن مترددين بين الشرق والغرب .

---

(٤٤) هى السنوات الفاصلة بين الحملة الفرنسية ـ سنة ١٧٩٨م ـ ونشر كتاب [اليوم والغد] ، سنة ١٩٢٨م .

لنا حكومة منظمة على الأساليب الأوربية، ولكن وسط الحكومة أجساما شرقية، مثل وزارة الأوقاف، والمحاكم الشرعية، تؤخر تقدم البلاد .

ولنا جامعة تبعث بيننا ثقافة العالم المتمدن، ولكن الأزهر يقف إلى جانبها يبث بيننا ثقافة القرون المظلمة . .

ولنا **أفندية قد تفرنجوا** . . ولكن إلى جانبهم شيوخا لا يزالون يلبسون الجبب والقفاطين، ولا يتورعون من التوضؤ على قوارع الطرق فى الأرياف، ولا يزالون يسمون الأقباط واليهود « كفارا »، كما كان يسميهم عمر بن الخطاب قبل ١٣٠٠ سنة . . **إنهم شيوخ مأفونون ، يعدون التفرنج رذيلة، مع أنه عين الفضيلة** . . »(٤٥)!!

والطريف، أن سلامة موسى، على كراهيته لآسيا وللدم الآسيوى، قد رأى فى دماء الجوارى الشركسيات مصدرا لتحسين شكل المصريين، حتى تقارب بشرتهم « البشرة الأوربية » . . ولم ير فيهن ــ كما رأى فى الأزهر والأوقاف والثقافة الإسلامية ــ عقبات أمام « التفرنج » الذى زرعه نابليون والإنجليز! . .

وأمام هذا التردد، الذى حال دون عموم « التفرنج »، دعا سلامة موسى إلى إلغاء كل مكونات ومؤسسات الموروث . . ففى رأيه : أنه «**ما من أمة تنهض إلا وتنسلخ من قديمها** . . وكل ما هو باق لنا من القديم سيئ لا يزال يؤذينا . . مثل وزارة الأوقاف، والمحاكم الشرعية، والمجالس الملية، والبطركيات العديدة . . والأزهر . الذى يشتغل بثقافة قديمة بائدة، فى عصر حديث . . فهو أداة الثقافة المظلمة، ثقافة القرون الوسطى . . وإيثاره على الجامعة المصرية يشبه إيثار الجمل على الأتومبيل، أو الحمار على

---

(٤٥) [اليوم والغد]، ص ١٧٧ ـ ١٧٩، ١٩٤ .

الطيارة . . ولذلك ، لا أتردد فى القول **بإلغاء الأزهر والاكتفاء بالجامعة** المصرية ، لأنها أداة الثقافة الجديدة النيرة . . »[٤٦] ! !

هكذا رأى سلامة موسى : الشرق . . والرابطة الشرقية . . والحضارة الشرقية . . ومكوناتها العربية الإسلامية ، فى الفكر ، والثقافة ، والآداب والفنون ، واللغة . . فدعا إلى إلغائها جميعا . . بل ودعا إلى إلغاء « الكرامة الشرقية » ، لأنها ، مع هذه المكونات ، عقبات أمام « التفرنج » ! . . ولم يتردد فى الدعوة إلى إلغاء كل المؤسسات التى ترعى هذه الخصوصيات الحضارية . . من الأزهر . . إلى المحاكم الشرعية . . إلى الأوقاف . . إلى المجالس الملية والبطركيات ! . . وكان صريحا إلى درجة « الحدة » ، فلم يغلف ولم ينافق ، كما صنع ويصنع آخرون ! ! . .

* * *

وماذا عن الرابطة الدينية ؟ ! . .

وبعد أن تحدث سلامة موسى عن الرابطة الشرقية ، وتميزنا ، كشرقيين ، حضاريا وفكريا وثقافيا عن الغرب الأوربى ، فاعتبر ذلك كله « سخافة » كبرى . . بلغ قمة هذا الهجوم عندما تحدث عن « الرابطة الدينية » . .

والرابطة الدينية التى عناها ، وصب عليها الحمم هى الرابطة الإسلامية ، التى تجمع بين أمة الإسلام . . ولقد رآها الرجل جماع حجج القائلين بتميزنا حضاريا عن الغرب ، ومن ثم بضرورة استقلالنا بسمات وقسمات حضارية تميزنا . .

لقد اعتبر الإيمان بوجود رابطة تجمع الأمة الإسلامية ، وتميز انتماءها عقديا وحضاريا . . اعتبر ذلك لونا من الجهل بروح الزمن ، الذى رآه قد

---

(٤٦) المرجع السابق . ص ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ١٨٢ .

تجاوز الدين وروابطه كلها . . وسخر من دعوة الحزب الوطنى، بزعامة مصطفى كامل [١٢٩١ ـ ١٣٢٦هـ ، ١٨٧٤ ـ ١٩٠٨م] إلى رابطة الجامعة الإسلامية، بل ومن اهتمام المصريين « بأخبار العالم الإسلامى»!! . . وأحوال المسلمين فى « أدرنة وبخارى» وغيرها من حواضر الإسلام!! . . وأثنى على تجربة أتاتورك [١٢٩٨ ـ ١٣٥٧هـ، ١٨٨١ ـ ١٩٣٨م] التى اقتلعت الانتماء الإسلامى من تركيا اقتلاعا!! . . وزعم وجود تناقض بين «الوطنية» وبين الانتماء للجامعة الإسلامية، حتى لقد ذهب فى هذا الزعم إلى أن «الوطنية» «مبدأ أوربى لم يعرفه العرب قط»!! . . واتهم دعاة الجامعة الإسلامية بأنهم دعاة « فتنة بين الأقباط»، وبأن دعوتهم هذه إلى الجامعة الإسلامية إنما تمثل «ردة عن الوطنية»!! . . بل لقد ذهب الرجل على درب محاولات إزاحة الرابطة الدينية عن طريق سعيه « للتفرنج والاندماج فى أوربا»، إلى حد الزعم بأن ديننا ـ حتى الإسلامى ـ لا يميزنا عن أوربا، فقال: « إن أدياننا لا تختلف البتة عن أديان أوربا، حتى الإسلام نفسه يكاد يكون مذهبا من المسيحية» . . وذلك ليخلص إلى غايته، وهى « أن حضارتنا هى حضارة أوربا» [٤٧]!!

والأكثر غرابة فى «فكر» سلامة موسى، المعادى للرابطة والجامعة والانتماء الإسلامى . . أنه بعد أن أقام تناقضا بين «الوطنية» و«الجامعة الإسلامية»، وطلب من المصريين التضحية بانتمائهم الإسلامى فى سبيل وطنيتهم، عاد ليطلب منهم التضحية بوطنيتهم فى سبيل العالم . . إذ « غاية كل مصرى أن يكون بارا بالعالم [٤٨] . . وإذا كنا نضحى بأنفسنا لأجل مصر، فيجب أن نضحى بمصر لأجل العالم. فالعالم هو وطننا الأكبر، وليست ترتكز الوطنية على أننا نحب مصر أكثر من العالم . . »[٤٩]!! . . فهو يدعو للتضحية

---

(٤٧) المرجع السابق. ص ١٦٧ . (٤٨) المرجع السابق. ص ١٩٥ .
(٤٩) المرجع السابق. ص ١٩٤ .

«بالعالم الإسلامى» فى سبيل مصر . ثم يدعو للتضحية بمصر فى سبيل العالم الأكبر، وكأنما العالم الإسلامى ليس جزءا من هذا العالم الأكبر! . . وكأنما دعاة الجامعة الإسلامية ـ وفى مقدمتهم مصطفى كامل ـ لم يكونوا رواد البعث للوطنية المصرية بعد هزيمة العرابيين ، حتى لقد كان شعارهم : « لو لم أكن مصريا لوددت أن أكون مصريا»!! . .

لقد كان هدف سلامة موسى ، فى الحقيقة : إزاحة الرابطة الإسلامية ، لا لأنها ــ كما زعم ــ تنكر «الوطنية» أو تتجاهلها ، وإنما لأنها هى « المميز الحضارى» للمصريين والعرب والمسلمين عن الحضارة الغربية ، التى جعل الاندماج فيها والذوبان بها رسالته الأولى فى هذه الحياة . . ولذلك عقد مقالا جعل عنوانه : «**الرابطة الدينية وقاحة**»!! . . قال فيه : «**إذا كانت الرابطة الشرقية سخافة ، لأنها تقوم على أصل كاذب ، فإن الرابطة الدينية وقاحة . فإننا أبناء القرن العشرين أكبر من أن نعتمد على الدين جامعة تربطنا . وقد كان مصطفى كامل ، لجهله بروح الزمن ، يخبرنا ، ولا يزال فلول المحررين من « المؤيد»**(٥٠) **و«الحزب الوطنى» يخبروننا ، نحن المصريين عن : الإسلام فى الصين تحت عنوان : « أخبار العالم الإسلامى»** .

وقد شبعت تركيا من الجامعة الإسلامية ، ونفضتها عن نفسها ، وتخلصت منها ، لا لأنها أضاعت دينها ، ولم تعد تؤمن به ، بل لأنها لم تعد تؤمن بفائدة الجامعة الإسلامية ، بعد أن خبرتها فى الحرب الكبرى فوجدتها قصبة مرضوضة لا تغنى ولا تنفع . . .

إن الدين الآن ليس تشترك فيه الجماعات ، وإنما هو عقيدة يعتقدها الفرد عن علاقته بالكون ، **ويبدو لى أنه لا يمكن أن يتفق اثنان فى العالم فى عقيدة دينية ، كما لا يتفقان فى ملامح الوجه ، فديانة المستقبل هى ديانة فردية لا**

---

(٥٠) صحيفة الشيخ على يوسف .

جماعية، بـل هى صوفية حـرة لا يتقيد فيها الفرد بما يـؤمن به فرد آخـر أو أمة أخرى.

وكيف يمكننا أن نعتمـد على جامعة دينية، بينما فى العالم نظـرية تقول إن الإنسان لم يكن راقيا فانحط، كما تقول الأديان، بل هو كان منحطا فارتقى؟ نعنى بها نظـرية التطور. بـل كيف يمكن إنسانـا مستنيرا قرأ تاريـخ السحر والعقائد أن يطلب منه أن يحترم جامعة دينية؟! .. إن الجامعة الدينية فى القرن العشرين، وقاحة شنيعة..[51] إننا فى حاجـة إلى ثقافة حرة أبعـد ماتكون عـن الأديـان.. ويجب أن نفصل الـديـن عـن الـدولة، ونلغـى تعليمـه فى المدارس»[52]!!

ثم ينتقل من الافتراء على الجامعة الإسلامية، من حيث المبدأ والقيمة.. إلى الافتراء على عـلاقتها بـالوطنيـة والانتماء الوطنـى، فيقول: «وربما كـان إسماعيل باشا [١٢٤٥ ـ ١٣١٢هـ، ١٨٣٠ ـ ١٨٩٥م] أول من بذر بذور الـوطنية المصريـة، لأنـه هو الـذى جعل الأمـة تصطنـع الحضارة والمبـادئ الغربية. والوطنيـة مبدأ أوربى، لم يعرفـه العرب قط، ولذلـك لا وجود لهذه الكلمة فى المعـاجم العـربية، لأن العـرب لم يعرفـوا سوى الإسـلام جامعـة تجمعهـم... وظهر عرابى، وحاول أن يقوى هذه الوطنية، ويجعل مصر أمة دستـورية، ولكنـه خاب فى مسعـاه. ثم حـدث ارتداد فى الفكـرة الوطنيـة بظهور مصطفى كـامل، والخديوى عباس [١٢٩١ ـ ١٣٦٣هـ، ١٨٧٤ ـ ١٩٤٤م] و«المؤيد»، فإن كل هؤلاء عـادوا إلى جامعة الإسلام... وأوشك مصطفى كـامل ومحررو جـريدتـه أن يحدثوا فتنـة بين الأقباط بهذا السخـف والهـراء. ولكـن الأقدار هيـأت لنا رجلا آخـر هو لطفـى السيد، صـاحب «الجريدة»، فإنه نظر حوله فـرآنا شائعين فى العالم الإسلامى، ورأى الأذهان

---

(٥١) [اليوم والغد]. ص ١٨٧، ١٨٨. (٥٢) المرجع السابق. ص ٢٠٠، ٢٠١.

قد زاغت عن الصراط الوطنى، حتى المزارع أو التاجر أو الصانع المصرى يبالى بقراءة أخبار المسلمين فى « أدرنة» و«بخارى» أكثر مما يبالى بحادث قتل فى الجيزة. وعندما شبت الحرب بين تركيا واليونان سنة ١٨٩٨م، جمع المصريون نحو ستين ألف جنيه أرسلوها إلى الآستانة لمعاونة الأتراك، مع أنهم كانوا فى حاجة إلى ستين ألف مليم لتعليم صبى مصرى.

وشرع لطفى السيد يكتب لنا دروسا كل يوم عن الوطنية، وأن المصرى يجب أن يقصر جهوده على مصر.. وأخذ يفشى المبادئ الأوربية بيننا عن العائلة وحرية المرأة، واللغة والأدب، والسياسة. ورأى الأقباط، بعد أن كانوا لا يهتمون بوطنية الخديوى عباس، ومصطفى كامل، و«المؤيد»، أن وطنية لطفى السيد مصرية لا شائبة فيها، وأنها لا تزيغ بهم إلى الجامعة الإسلامية، أو الجامعة العثمانية، فصاروا يؤمنون بالوطنية.»(٥٣).

والناظر فى هذه السطور، لسلامة موسى، يجد فيها من الأكاذيب الجريئة بعدد ما فيها من العبارات!!..

● فهو يزعم أن الوطنية مبدأ أوربى، لم يعرفه العرب، ولا وجود له فى معاجمهم.. مع أن مصطلح «الوطن»، الذى تنسب إليه الوطنية، مادته قائمة، والحديث فيها طويل فى كل معاجم العربية وقواميس الفكر الإسلامى، لغوية كانت أو فكرية.. هذه القواميس.. من [لسان العرب] لابن منظور. . إلى [الكليات] لأبى البقاء.. إلى [كشاف اصطلاحات الفنون] للتهانوى.. إلى غيرها من المعاجم والقواميس.. بل إن قائمة المؤلفات الإسلامية والعربية فى الوطن وحبه والوطنية كفطرة إنسانية فى الحياة والتراث العربى والإسلامى.. هذه القائمة استلفتت الأنظار، فكانت موضوعا لدراسات متخصصة.. فمن رسالة الجاحظ [١٦٣ ـ ٢٥٥هـ،

(٥٣) المرجع السابق. ص ١٩٢، ١٩٣.

٧٨٠ ـ ٨٦٩م]: فى [الحنين إلى الأوطان] ـ والتى تحدث فيها عن كيف «كانت العرب إذا غزت أو سافرت حملت معها من تربة بلدها رملا وعَفَرًا تستنشقه. . »(٥٤)! ! ـ إلى [المنازل والديار] لأسامة بن منقذ [٤٨٨ ـ ٥٨٤هـ، ١٠٩٥ ـ ١١٨٨م]. . إلى [زبدة حلب] لابن العديم [٥٨٦ ـ ٦٦٠هـ، ١١٩١ ـ ١٢٦٢م]. . إلى [الديارات] للشابشتى [٣٩٠هـ ـ ١٠٠٠م] . . إلى [مطالع البدور ومنازل السرور] لعلى بن عبد الله البهائى [٨١٥هـ ـ ١٤١٢م]. . إلخ . . إلخ . .

بل إن الإسلام، الذى علم الأمة أن وحدتها ـ جامعتها الإسلامية ـ هى فريضة إلهية، هو الذى يعلمنا قرآنه الكريم أن «حب الوطن» هو قرين «حب الحياة»، فالإخراج من الوطن قرين الإخراج من الحياة ـ أى الموت ـ **﴿ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم مافعلوه إلا قليل منهم﴾**(٥٥). . كما جعل الإخراج من الديار أعظم أسباب الجهاد ضد الذين يخرجوننا من الديار أو يظاهرون على هذا الإخراج، وسوى بين ذلك وبين القتال فى الدين والفتنة عن الاعتقاد، وجعلها معايير « الصداقة» و«العداوة» و «الولاء» و«البراء» **﴿ أُذن للذين يُقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير* الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله﴾**(٥٦) . حتى لقد غدت عبارة: « حب الوطن من الإيمان» مأثورة إسلامية، اشتهرت بين العامة باعتبارها من سنة الرسول ﷺ. . فوحدة الأمة الإسلامية، ووحدة دار الإسلام، لا تنتقص من الوطنية، ولكنها توسع دائر الوطن، فلا تحصره فى إقليم ضيق، يحدد العنصر أو العصبية الجاهلية حدوده، وإنما تجعل العقيدة والحضارة معيارا لهذه الحدود . .

---

(٥٤) الجاحظ: [الحنين إلى الأوطان]، جـ ٢ ، ص ٣٩٢ ، من [رسائل الجاحظ] تحقيق: عبدالسلام هارون . طبعة القاهرة، سنة ١٩٦٤م.

(٥٥) النساء: ٦٦ .   (٥٦) الحج: ٣٩ ، ٤٠ .

● وإذا كانت الوطنية التى يعجب بها سلامة موسى هى التى **تجعل «المصرى يقصر جهوده على مصر»** ـ حسب تعبيره ـ فلم يكن الخديوى إسماعيل ـ كما زعم ـ على هذا المذهب فى الوطنية . . فى عهد إسماعيل ، وصلت حدود مصر ـ سلما وحربا ـ إلى « أوغنده» ، عبر « السودان» ، وإلى «زيلع » و«هرر» فى القرن الإفريقى . . بل وكان لها إسهام فى نزاعات البلقان ! ![٥٧] . . فلم تكن « الوطنية» بالمعنى « القطرى الضيق» هى مذهب الخديوى إسماعيل . .

● وعرابى [١٢٥٧ ـ ١٣٢٩هـ ، ١٨٤١ ـ ١٩١١م] الذى يزعم سلامة موسى أن الوطنية كانت لديه تعنى « أن المصرى يقصر جهوده على مصر» هو الذى جمعت وطنيته بين « مصر للمصريين» وبين «الجامعة الإسلامية» . . وعندما سأله جرجى زيدان [١٢٧٧ ـ ١٣٣٢هـ ، ١٨٦١ ـ ١٩١٤م] عن صحة دعوى سعى ثورته إلى إسقاط الدائرة الإسلامية من اهتماماتها؟ قال : «إن هذا الادعاء هو من إرجاف المرجفين . . **لأنى أرى فى ذلك ضياعا للإسلام عن بكرة أبيه»** [٥٨] ! !

● أما مصطفى كامل ، الذى رأى سلامة موسى التناقض بين دعوته إلى «الجامعة الإسلامية» وبين «الوطنية المصرية» ، حتى لقد اعتبرها ردة عن الوطنية ، فإنه هو الذى جعل حب مصر عقيدة أسس عليها حزبه الوطنى ، مع رؤيته للعلاقة الحضارية والتضامنية التى تجمع « الوطن» بدار الإسلام . . حتى لقد جسد النموذج العبقرى فى الجمع بين هذه الدوائر المتكاملة والمتعاضدة فى سلم « الانتماء» . . ومن الصفحات المشرقة التى كتبها فى هذا

---

(٥٧) انظر وقائع هذه الأحداث فى : محمد مختار باشا المصرى ، [التوفيقات الإلهامية] ، جـ ٢ ـ سنوات حكم إسماعيل [١٨٦٢ ـ ١٨٧٩م] ـ تحقيق : د . محمد عمارة ، طبعة بيروت ، سنة ١٩٨٠م .

(٥٨) جرجى زيدان ، [تراجم مشاهير الشرق] . انظر كتابنا : [جمال الدين الأفغانى المفترى عليه] ، طبعة القاهرة ، سنة ١٩٨٤م .

الموضوع، نسوق هذه العبارات التى يقول فيها: «**إننا نطلب استقلال وطننا وحرية ديارنا** . . فمصر للمصريين . . ومحال أن نطلب مالكا أجنبيا عنا . . **لكننا نود أن نكون قوة محالفة للدولة العلية** [العثمانية] . . فمن ناموس الطبيعة أن من اتفقت مصالحهم يجتمعون ويتناصرون . ونحن إذا اعتمدنا على الإسلام وقواعده وأوامره وإرشاداته، وأخذنا من المدنية الغربية فوائدها ومنافعها . . بلغنا أقصى ما يرام من مجد وعز وسؤدد ومقام رفيع . . فميل المسلم لأبناء دينه أمر طبيعى وشرعى، يزكيه أن لتأخر الشعوب الإسلامية أسبابا واحدة . . وهذا هو معنى حركة الجامعة الإسلامية»(٥٩)!

أما فرية إحداث مصطفى كامل لفتنة مع الأقباط، بسبب شعار الجامعة الإسلامية . . فالتاريخ شاهد على أن أول إسهام للأقباط فى العمل الوطنى المنظم كان فى «الحزب الوطنى» الذى قاده مصطفى كامل . . وشهيرة هى نداءاته للأمة: «**إياك والانقسامات، فإنها منشأ الخراب والدمار. إياك وهوس العداوات الدينية، فإنها آفة الآفات . . إن المسلمين والأقباط شعب واحد، مرتبط بالوطنية والعادات والأخلاق وأسباب المعاش. ولا يمكن التفريق بينهما مدى الأبد . . إنهم إخوة لنا فى الوطن، تجمعنا بهم أشرف رابطة، وقد عشنا معهم القرون الطوال على أتم وفاق وأكمل اتفاق** . .»(٦٠) .

ولقد شهد له زعماء الأقباط ـ الذين تعلموا الوطنية فى مدرسته ـ بذلك، فقال عنه مرقص حنا باشا [١٢٨٩ ـ ١٣٥٣هـ، ١٨٧٢ ـ ١٩٣٤م] : إن مصطفى كامل «**قد كَوَّن الوحدة الوطنية، وأرانا طريق الإخاء والحرية . . ورسم لنا طريق الوفاق والتآلف، طريق الحرية والاستقلال . . إنه لم يكن**

---

(٥٩) انظر كتابنا: [الجامعة الإسلامية والفكرة القومية عند مصطفى كامل]، ص ٤٦ ـ ٨٢. طبعة دمشق، سنة ١٩٨٩م.

(٦٠) المرجع السابق. ص ٧٧ .

صديقا لفريق من المصريين، بل كان صديقا لجميع الوطنيين على السواء، إن حياته تعنى أن الأمة نمت وسمت وتغارست أغصانها حول جذع واحد وهو مصر، هو الوطن العزيز» (٦١)!

وإذا كان سلامة موسى معجبا بـ «وطنية» لطفى السيد [١٢٨٨ - ١٣٨٢هـ، ١٨٧٠ - ١٩٦٣م] بينما يرى فى مصطفى كامل ردة عن الوطنية إلى الجامعة الإسلامية ــ بافتعال التناقض بينهما - . . فيكفى لتبديد هذا الزعم أن نسوق رأى لطفى السيد فى وطنية مصطفى كامل!! . . لقد كان يرى فى مصطفى كامل التجسيد للوطنية، حتى لقد كتب عنه فقال: «إن مصطفى كامل كان شعاره: الوطنية، ووسيلته: الوطنية، وغرضه: الوطنية، وكلماته: الوطنية، وكتاباته: الوطنية، وحياته: الوطنية. حتى لبسها ولبسته، فصار بينهما التلازم الذهنى والعرفى؛ فإذا ذكرت مصطفى كامل بخير فإنما تطرى الوطنية، وإذا قلت: الوطنية، فإن أول ما يتمثل فى خيالك شخص مصطفى كامل، فكأنما هو والوطنية شىء واحد. . إن **مصطفى كامل كان تمثال الوطنية. . إن مصطفى كامل كان مصريا لجميع المصريين. .»** (٦٢)!

هكذا سقطت كل دعاوى سلامة موسى ضد وطنية دعاة الجامعة الإسلامية . . وشهد شهوده هو على سقوط هذه الدعاوى. . ولم يبق له إلا الفكر الشائه لهذا المعنى الشاذ من معانى «الوطنية». . والذى يستنكر أن يهتم الإنسان المصرى بأخبار العالم الإسلامى، وأن يكون عضوا حيا فى جسد الأمة الإسلامية. . بينما يطلب منه سلامة موسى أن يقصر جهوده على مصر، ثم يضحى بمصر لأجل العالم، طالما أن هذا العالم ليس إسلاميا!! . .

---

(٦١) المرجع السابق . ص ٧٩ .

(٦٢) المرجع السابق. ص ٧٢.

ذلك هو المعنى الشـائه « للوطنية» عند سلامة موسـى . . والذى عقد له الصفحـات التى هـاجـم فيها « الـرابطـة الـدينية» ، معتبرا إيـاهـا «وقاحـة شنيعـة» . . وذلـك بعـد أن هـاجـم «الـرابطـة الشرقيـة» ، واصفـا إيـاهـا «بالسخـافة» . . وداعيـا إلى التملص منهما . . وإلى «التفـرنج» والـذوبان فى الإنجليز خاصة ، وفى عموم الأوربيين ! . .

* * *

ولما كـان هجوم الـرجل ــ كما شهدت نصـوصــه ـ على الـرابطة الشرقيـة والـرابطة الـدينيـة إنما هو ، فى حقيقتـه ، هجوم على المكـونـات الحضاريـة الإسلاميـة ، التى تمثـل عوامـل تميزنـا الحضارى عـن الغرب الأوربـى ، فإن تـاريخ الإسـلام ، بما فى ذلك خـلافته الـراشدة ، لم تسلـم من افتراءاتـه . . فالفـاروق عمر بـن الخطاب كان حـاكما مستبدا ! ! والخلفاء كـانوا أسـوأ من البابوات ! ! . . وفى ذلك يقول : «إن الحكومة العربية كانت فى أرقى وأحسن أوقاتها حكومة استبدادية . ولا عبرة لما يقال بـأن الإسلام أمر بالشورى ، فإن عمر بن الخطاب نفسه لم يكن يستشير أحدا فيما يراه خيرًا لرعيته . . والخلفاء كانوا ينظرون إلى أنفسهم نظرا بابويا ، بل البابا نفسه إذا قيس إليهم فى بعض الأشياء يعد دستوريا ! ! »[٦٣] .

يقول سـلامة موسـى ذلك . . وهـو يعلم ـ أو مفترض أن يعلـم قبل أن يكتب ــ أنه حتى الـرسول ، ﷺ ، وهو المعصـوم ، كان يلزم نفسـه فى الأمور الاجتهادية بالشورى ، كآلية لاتخاذ القـرارات وإدارة شئون الدولة ، حتى لقد قال ـ وهو رئيس الدولة ـ : «لـو كنت مُؤَمِّرًا أحدا دون مشورة المؤمنين لأَمَّرْتُ ابن أم عبد» ـ [عبد الله بن مسعود][٦٤] . . فبغير شورى المؤمنين لا يستطيع

(٦٣) [اليوم والغد] ، ص ١٨٥ .

(٦٤) رواه الترمذى وابن ماجه والإمام أحمد .

رئيس الدولـة ـ النبـى المعصوم ـ أن يُـؤَمِّر أميرا ! ! . . أمـا عمر بـن الخطاب ـ الذى يتهمه سلامة موسى بالاستبداد ـ فهو القائل : «الخلافة شورى . . ومن بايع أميرا عن غير مشورة المسلمين فلا بيعة له ، ولابيعة للذى بايعه . . »[٦٥]!

أما اتهام الخلافة الإسلامية بأنها كانت «بـابوية» . . فهو زعم نفاه ـ وليس فقط لم يقل به ـ كل المستشرقين الذين درسوا فلسفة الحكم الإسلامى ، ونظام الخلافـة فى تاريـخ الإسلام . . بـل وقالـوا إن فلسفة الحكـم الإسلامـى على العكـس من فلسفـة البـابويـة وحكمها تمامـا . . والمستشرق « سـانتيلانـا» David de Santillana [١٨٤٥ ــ ١٩٣١م] ـ وهـو الضليع فى الشريعـة الإسلامية ومذاهبهـا ـ وصاحب الدراسات القانونيـة الشهيرة ـ يتحدث عن علاقـة الخليفة بالأمـة ، فيصفها « بالـرابطة التعـاونية» تقوم إذا قـام الخليفة بواجبـه ، وتنفسخ إذا عجز عـن ذلك . . «**إن الرابطة التعـاونية الموجودة بين الخليفة والشعب تبقى متينـة وثيقة العرى ما دام الخليفة صالحا للقيـام بواجبه فى حماية المجتمع الإسلامـى ، فإذا لم يعد أهلا لمنح شعبه ما يـريده منه ، بطل سلطانه ، وفسخ العقد شرعـا بين المتعاقدين** . . »[٦٦] . . ثم يقطع بنفـى أية مشـابهة بين « الخلافـة» وبين « البابـويـة» ــ مـع اعترافه بمهـام الخليفـة فى «تعضيد المصالح الدينية والـدنيوية» ـ فيقول : «**والحقيقة أن سلطة الخليفة ، كرئيس دينـى ، لا يمكن أن تعتبر سلطة حَبْرِيَّة أو بـابوية مثلا ، فهـو متجرد تماما من صفة الكهنوت ، لأن حكومة المسلمين ما كانت فى أى زمن أو ظرف حكومة دينية Hierarchy ولم يوجد فيها تعاقب رسولى** . . » [٦٧]!

---

(٦٥) رواه البخارى والإمام أحمد . ـ وانظر فصل « ضرورة الشورى» فى كتابنا : [الإسلام وحقوق الإنسان]، طبعة القاهرة، سنة ١٩٨٩م .

(٦٦) [القانون والمجتمـع] ـ بحث منشور ضمن كتاب : [تـراث الإسلام] . ص ٤٢٧ . ترجمة : جرجيس فتح الله . طبعة بيروت ، سنة ١٩٧٢م .

(٦٧) المرجع السابق . ص ٤٢٥ .

وعندما نتـأمل قول «سانتيـلانا» : «إن حكومة المسلمين مـا كانت فى أى زمن أو ظـرف حكومة دينيـة»، ونقارنه بقـول سلامـة موسى : «لقـد استوى العرب والإفرنـج ، فى القرون الوسطى ، أو كادوا يستوون ، فى نظـام الحكومة الاستبداديـة التى يسيطر عليهـا رئيس دينى هـو البابا أو الخليفـة . . بل إن البابـا إذا قيس بـالخلفاء فى بعض الأشيـاء يعد دستـوريا» [68] ! ! . . ندرك الفارق بين «العـالم» الذى ينصـف الحقيقة ، بصرف النظـر عن مـوقعه مـن الإسلام ومـوقفه من المسلمين ، وبين الذيـن زيفوا حقائق الفكر والتـاريخ ، ليفتعلوا مماثلة بين الإسلام وبين النصرانيـة الأوربية . . بين الخلافة الإسلامية ـ وهى دولة مدنية ملتزمة بالشريعة الإلهيـة ـ بين الكهانة البابوية التى ادعت العصمة فحكمت بالحق والتفويـض الإلهيين . . بين تطورنا التاريخى ، الذى لم يعرف حكومة الفقهاء ، وبين التطور الأوربى المغاير لتطورنا كل المغايرة . . يفتعلون هذه المماثلة ، ليستعيروا « المشكلة الأوربية» حتى يستعيروا لها « الحل الأوربـى» ، أى «التنـويـر ـ العلمانـى» ، الـذى يعـزل السماء عـن الأرض ، والدين عن العمران ، ويحل « العقل . . والعلـم . . والفلسفة» ـ آلهة التنوير الغـربى ـ محل الله والقـرآن والسنـة ، أو محل الشريعة على الأقـل عنـد غير الملحديـن من دعـاة التنويـر ! . . وماهـذه الاستعارات الفـاسدة إلا بهدف إيهامنا بأننا غـرب فى كل شىء . . فى المنطلقات . . والمكونات الحضارية . . والديـن . . والتطور التاريخى ، ومشكـلاته وحلولـه ، لنسير وراء دعوتهم إلى الانسلاخ عن إسـلامنا وتميزنا الحضارى النـابع من تميز إسلامنـا ، الذى ميز تطورنـا الحضارى . . وإلى الذوبـان فى الغرب والاندمـاج فيه . لقد حـاولوا ذلـك ، فى جيـل « الرواد» . ولا يـزالـون يحاولـون ، فى جيل « التـلاميـذ» ، مـدعـومين بالغــرب ، الـذى رأى ويــرى فى هــذا الإلحــاق الحضــارى والتـذويب الثـقافى السبيـل الوحيـد لتأييـد وتـأبيـد تبعيـة عـالم الإسـلام

(٦٨) [اليوم والغد] ، ص ٥٠ ، ١٨٥ .

لمركزه الغـربى فى « الأمـن» و«السياسـة» و«الاقتصاد» . . تلـك هى حقيقـة المقاصـد التى يـريدونها من وراء محاربـة المشروع الإسلامـى للنهضة والتغيير بهذا «التنوير ـ الغربى ـ العلمانى» ! . .

* * *

والنزعة الفرعونية :

وكما تميـزت دعـوة سلامـة مـوسـى ، إزاء «الـرابطـة الشرقية» و«الـرابطـة الدينية» ، بهذه « الصراحة العارية» . . إلى الحد الذى دعانا فيه إلى التضحية بالإسـلام والعالم الإسلامـى والعروبة والعربيـة فى سبيل مصر، ثم دعـانا إلى التضحية بمصر فى سبيـل العالم ، بشرط ألاّ يكـون هذا العـالم إسلاميـا ! بل وبشرط أن يكون أوربيا وغربيا على وجه التحديد ! ! . . كما صنع الرجل ذلك مـع « الـرابطـة الشرقيـة» و«الـرابطـة الدينيـة» ، صنـع أيضـا مـع «النـزعـة الفرعونية» . . فهو مع الفرعونية إذا كانت المقارنة بينها وبين العرب والإسلام والمسلمين ، بل لقـد وجدناه مـع لغة الهكسوس ضـد اللغة العربيـة . . لغة القرآن ! . . **ولكن إذا كانت الفرعونية ستمثل «ذاتية خاصة» لمصر، تحول دون «تفرنجها» وإلحاقهـا بالحضارة الأوربية ، فهـو ضدها ، يدعـو إلى تجاوزها ، ويتحدث عـن استحالة العـودة إليها من جديـد ! !** . . إنه ضد أى تميـز عن **الغرب فرعونيا أو عربيا أو إسلاميا أو شرقيا** . . حتى لقد ذهب ـ كما سبقت إشـارتنـا ـ إلى أن ديـانـاتنـا المسيحيـة منهـا والإسلام لا تختلـف عـن أديـان أوربا ! ! . . رغم مـا هو معروف له مـن موقف الكنيسة الأرثـوذكسية المصرية من مـذاهب الغـرب المسيحية ، والتى تضعهـا فى دائرة «الكفر» بـالنصرانية التى تؤمن بها ! ! . .

لكـن ، هكذا حكمـت « مقاصـد» الـرجل ، فحـددت له الاختيـارات والوسائل و«الأدلة» والآليات ! . .

فهو يفضل الفرعونية على العروبة والشرقية والإسلام، لكن إذا كانت الفرعونية ستصبح « انتماء» مستقلا عن الانتماء للغرب، وبديلا له، فإنه يدعو إلى ضمها مع التاريخ العربى إلى « متحف الآثار» وبرامج « الدراسة فى الحفريات»! . . فيبدأ حديثه فى هذه القضية متسائلا: « ولكن، هل الغاية من التخلص من آسيا، والشرق، والتاريخ العربى، أن نعود إلى وطنية فرعونية مقصورة على مصر وتاريخها؟

لست أشك فى أننا لو فعلنا ذلك لكان أصلح لنا . . خير لنا أن ندرس الفراعنة من أن ندرس العرب، لا لأنهم جدودنا فقط، بل أيضا لأن فى درسهم تفتيقا للأذهان . . ولكن صلتنا بالفراعنة قد انقطعت، إذ لا نتصل الآن بهم بثقافة أو حضارة، وغاية مانرجوه أن يختص عندنا شبان بدرسهم، كما يختص آخرون بدرس العرب، وكلا الفريقين يشتغلان فى درسهما بالآثار. وإذا كان المصريون القدماء لا يدخلون الآن فى عقائدنا أو أدبنا أو علمنا، فليس لأحد أن يقحم أدب العرب أو عقائدهم أو علمهم على آدابنا وعقائدنا وعلومنا وحضارتنا. فالمصرى القديم والعربى القديم من الآثار التى ندرسها، كما ندرس الفينيقى القديم. وإن كان المصرى يمتاز بأنه ينير أذهاننا عن نشوء الحضارات الأولى.

ولكن المهم الذى أرى وجوب تأكيده: أننا ونحن نخلع أنفسنا من الشرق، لا نفعل ذلك لكى نعود إلى وطنية فرعونية. كلا، إنما نريد وطنية مصرية حديثة تنهج منهج القرن العشرين فى الوطنيات والقوميات، وتسير على المبادئ الأوربية فيهما . . »(٦٩) .

فالرفض عام وتام لكل أصالة ولكل تراث ولكل قديم لا يسير « على المبادئ الأوربية»!! . . فالذين «يستمسكون بالشرق يتعللون به فى كراهة

(٦٩) المرجع السابق. ص ١٩٠ ، ١٩١ .

الغـرب، ويستمسكون بـالقديـم كبرياء وأنفـة من أن يقـال إن حضارتنـا، باعتبارنـا شرقيين، قد أفلست أمام حضـارة أوربا»[٧٠]! . . وسلامة موسى يريد أن يحرم الأمة حتـى من «الكبرياء . . والأنفة»، ولا يريد منهـا أقل من التسليم والاعتراف بالهزيمة والإفلاس الحضارى « أمام حضارة أوربا»! ! . . وفى الـوقـت الذى ينكـر على المصريين أيـة «روابط» مع العـرب والمسلمين والشرقيين، يزعـم «**وحدتهم** » **مع الأوربيين فى** « **الدم** . . **والأصل** . . **والثقافة من عهد مدرسة الإسكـندرية ومجمع أثينا**»! ! . . أى منذ ما قبـل الميلاد . . فيقول : «وإذا كنا نحب السير مع أوربا، فليس ذلك لأننا والأوربيين من دم واحد وأصل واحـد فقط، بل لأن ثقافتنا تتصـل بثقافتهم من عهـد مدرسة الإسكندريـة ومجمع أثينـا . وأيضا لأن حضارتها هـى حضارة العـالم الحديث كله»[٧١]!

لكن الرجل، إمعـانا فى « الدونية»، وتكريسا «للهزيمـة النفسية» ـ وهى مؤهلات «التبعية للغـرب والتشبه به والذوبان فيه» ـ عـاد ، فى موضع آخر، ليلغى أى فضل للمصريين القـدماء فى حضارة الإغريـق والرومان! . . فعلى حين يردد الكثيرون تأثير مصر القديمة على فلاسفـة اليونان : طاليس [٦٢٤ ـ ٥٥٠ق . م] ، وفيثاغورس [القرن السادس قبل الميلاد] ، وأفلاطون [٤٢٧ ـ ٣٤٧ق . م] ـ الـذى قـال عـن اليونـان « إنهم أطفــال» إذا مـا قيسـوا بالمصريين! ! . . على حين يـردد الكثيرون ذلك، حتى ليثبتوا الصلات التى تزكى دعوتهـم لوحـدتنا مع الغرب فى الحضارة[٧٢]؟! . . نجد سلامة موسى يعدل عـن سبيل «**المماثلة فى التأسيـس الحضارى**» إلى سبيـل « **الدونيـة** . . **والإفلاس**» مبررا يدعو لـلاندماج فى الغرب الحضـارى الحديث . . فبعد أن

---

(٧٠) المرجع السابق. ص ١٨١ . (٧١) المرجع السابق. ص ١٨٢ .

(٧٢) انظـر: د. مـراد وهبة «ثقـافـة شرق أوسطيـة» ـ صحيفـة [الحياة]، عـدد ١ أغسطـس. سنة١٩٩٣م.

زعـم أننا مثـل الغرب حتـى فى الديـانـات، ادعى أن الغـرب لم يستفد منـا ثقافيا. . فقـال : « وأول ما يجب إثباته، أن أوربا الحديثـة لم تستفد كثيرا من «الشرق» مـن حيث الثقـافـة، فإن الإغـريق، وهـم أول أمـة أوربية عنيـت بالثقافة، لم يكتسبوا شيئا مـن المصريين. لأن الفلسفة الإغريقية، ثم الآداب الإغريقية، لا تمتان بنسب إلى فلسفـة المصريين أو آدابهم. وقد أنشأ الإغريق مدرسة الإسكندرية، ولكن علماءها كانوا كلهم من الإغريق، وكانت لغتهم إغريقية، فلـم يكن للمصريين فضل فى هذه المدرسة، ولم ينبـغ منهم واحد فيها. بل يجوز لنا أن نشك فى دخول المصريين فيها. . »[٧٣]!! . .

وهـو هنـا، إذ ينفـى أى فضـل للشرق والمصريين على الغـرب، قـديما ووسيطا، ينسـى ما قالـه هو نفسه مـن أن أوربا قـد أخذت النزعـة العلمية والتجـريبية عـن العرب والمسلمين، حتـى «إن المجدديـن من أبنـاء وعلماء النهضة الأوربيـة، أمثال روجـر بيكون، كـانوا يهتمـون بالإسـلام وبمعرفـة العربية»[٧٤]! . . ينسـى سـلامة مـوسـى ذلـك، ليكرس الهزيمـة، وينتـزع «الكبرياء والأنفة» منـا. . «فنولِّ وجوهنا شطـر أوربا»[٧٥]، دونما أنفـة أو كبرياء! . .

وعندمـا وقف، كما قـال « فى مفترق الطرق» ، ورأى الحضـارة الأوربية ـ بتعبيره هو ـ «تغزونـا بشراسة الظافر واستكـلاب القوى»!! . . لم يتردد فى دعوتنا لقبول هذا «الغزو الشرس»، بل لقد دعانا إلى «الطفرة» فى قبول نتائج هذا « الغـزو والاستكلاب»!! . . وقال : « . . إن الطفرة، على كـل حال، خير من الجمود، وخاصة فى مثل قطرنا، وفى مثل وقتنا، حين نجد كثيرا من العادات الآسيوية تكاد تزهق أرواحنا وتعمل لإبادتنا، أمام الحضارة الأوربية التـى تغـزونـا بشراسـة الظـافـر واستكـلاب القـوى» [٧٦]! . . فمخطـط

(٧٣)[اليوم والغد]. ص ١٠٨ . (٧٤) المرجع السابق . ص ١١٠ ، ١١١ .
(٧٥) المرجع السابق . ص ٢٠٥ . (٧٦) المرجع السابق . ص ٨٥ .

الرجل ، ورسالته الفكرية أن يذبح الرابطة الشرقية . . والعربية . . والإسلامية . . وأيضا الفرعونية على مذبح الغرب وحضارته . . نضحى بكل هذه الروابط فى سبيل مصر، لنضحى بمصر فى سبيل العالم، بشرط ألا يكون هذا العالم شرقيا ولا عربيا ولا إسلاميا . . بل عالما أوربيا على وجه الخصوص والتحديد ! ! . .

تلك هى رسالة سلامة موسى وجيل الرواد الذين بشروا بالإلحاق الحضارى . . و«بالتنوير ــ الغربى ــ العلمانى» الذى يقتلع المشروع الإسلامى، باعتباره العقبة أمام هذا الإلحاق ! . .

***

الرابطة الحقيقية :

فى الوقت الذى «غلف» فيه آخرون «مذهب» سلامة موسى فى التبعية والإلحاق الحضارى . . . فسماها البعض « وحدة الحضارة ـ العالمية . . والإنسانية» . . وسماها الدكتور مراد وهبة : «الحضارة المتوسطية» ، أى حضارة البحر المتوسط التى تضم العرب والغرب الأوربى . . ثم أخذ يوسع دائرتها ، مع الحديث عن « الرابطة الشرق أوسطية» ـ التى تضم إسرائيل ـ فدعا إلى «ثقافة شرق أوسطية» تقوم على الفيلسوف العربى : ابن رشد [٥٢٠ ــ ٥٩٥هـ ، ١١٢٦ ــ ١١٩٨م] والفيلسوف اليهودى موسى بن ميمون [٥٢٩ ـ ٦٠١هـ ، ١١٣٥ ـ ١٢٠٤م]!! . . كما سماها الدكتور طه حسين : «السبيل الواحدة الفذة التى ليس لها تعدد، وهى أن نسير سيرة الأوربيين ونسلك طريقهم لنكون لهم أندادا ، ولنكون لهم شركاء فى الحضارة ، خيرها وشرها ، حلوها ومرها ، ما يُحب منها وما يُكره ، ما يُحمد منها وما يُعاب»[٧٧]! . . فى الوقت الذى تعددت فيه التسميات لهذا المذهب

---

(٧٧) [مستقبل الثقافة فى مصر] ، جـ١ ص ٤٥ .

الواحد فى الإلحاق الحضـارى، والتغريب الثقافى، والتبعية الفكـرية. . كان لسلامـة موسى فضـل «الصراحة ـ العـارية» فى التعبير عن هـذا الموقف . . والمفهوم . . والمضمون . . لقد قال، دون مواربة أوتمويه : «**إنه لا بد لنا من أن نتفرنج . . فـالتفرنج هو عين الفضيلـة ـ على عكس الشيوخ المأفـونين الذين يعدونه رذيلة . .**»[٧٨]!! . . .

فبعد أن رفض « الرابطة الشرقية» و«الرابطة الدينية» و«الرابطة الفرعونية» ـ أى كل الروابط الشرقية، وجميع ما يميزنـا عن الغرب الأوربى، ثقافيا وفكريا وحضاريا . . تحدث عن « التفرنج»، باعتبـاره « الرابطة الحقيقية» التى علينا أن ننضم إليهـا دون إبطاء، فقـال : «**إن الرابطـة الحقيقية، التـى تثبت على قـاعدة، وتـرسخ ولا تتـزعزع، هـى رابطة الحضـارة والثقافـة، هى رابطتنـا بأوربا**، التى عنها أخـذنا حضارتنا الـراهنة، ومنها تثقفنا ثقـافتنا الجديدة. أجل ، **يجب أن نرتبط بأوربا ، وأن يكـون رباطنا بها قويا**. نتزوج من أبنائها وبناتها، ونأخذ عنها كل ما يجد فيها . . وننظر للحياة نظرها . . ونجعل أدبنا يجرى وفق أدبها، بعيدا عـن منهج العرب، ونجعل فلسفتنـا وفق فلسفتها، ونؤلف عـائلاتنا على غرار عائلاتها . . ونـرسل أولادنا إليها ليتعلمـوا علومها ويتخلقوا بأخلاقها، **فالرابطة الغربية هى الرابطة الطبيعية لنا**»[٧٩] . .

ومضى الرجل « يتغزل» فى الغرب . . فالإنسان الأوربى : أرقى إنسان . . والحضارة الأوربيـة : أرقى درجات التطور الاجتماعـى . . وحضارة الشرق لا تبلغ واحـدا من مائة من الحضـارة الأوربية!! . . وبنص عبـارته : « . . **فإن الإنسان الأوربى أرقى إنسـان ظهر فى العالم للآن** ، والحضارة الأوربية ، على ما فيهـا من عيوب تعـد بـالمئات، هـى آخر درجـات التطور الاجتماعى . ومـن البـلاهـة البـالغـة أن يظـن أحـد الشـيوخ أن حضـارة بغـداد أو

---

(٧٨) [اليوم والغد] . ص١٧٨، ١٩٤ . (٧٩) المرجع السابق . ص ١٨٩ .

القاهرة أو الأندلس كانت تبلغ فى السمو عشرا أو جزءا من ماية مما تبلغه الحضارة الأوربية الآن» [٨٠] !!

أما الإنجليز، الذين كانوا يستعمرون مصر ـ وطن سلامة موسى ـ ويذلون شعبها . . فلقد قال عنهم : «**إن الإنجليز** ، على الرغم من خصومتنا معهم ، وشدة إسفافهم فى استغلال ضعفنا ، **أرقى أمة موجودة الآن فى العالم . . والخلق الإنجليزى يمتاز عن سائر الأخلاق . . والإنسان الإنجليزى هو أرقى إنسان ، من حيث الجسم والعقل والخلق . .**» [٨١] !! . .

ولقد دعا الإنجليز، المحتلين لمصر، إلى «صفقة» : تضمن مصالحهم، ويساعدوننا على القضاء على مراكز الرجعية فى مصر ـ أى مؤسسات ومكونات « الرابطة الشرقية . . والدينية . . والعربية» . . «فنحن إذا أخلصنا النية مع الإنجليز، فقد نتفق معهم إذا ضمنا لهم مصالحهم . وهم، فى الوقت نفسه ، إذا أخلصوا النية لنا ، فإننا نقضى على مراكز الرجعية فى مصر وننتهى منها . **فلنول وجوهنا شطر أوربا**» [٨٢] !!

بل لقد بلغ به الأمر إلى حد تبرير احتقار الأجانب للمصريين !! . . وهجاء المصريين «لحسدهم» الأجانب وكراهيتهم لأنهم نازعوهم البقاء ـ وفق الداروينية ـ فغلبوهم على بلادهم وثرواتهم . . فكتب يقول : «**إن الأجانب يحتقروننا بحق، ونحن نكرههم بلا حق** ـ [!!] ـ . . **لقد كانت أكثر كراهيتنا لهم حسدا ، لأنهم نازعونا البقاء فغلبونا**» !!

ثم يرى الحل فى دمج هؤلاء الأجانب ـ الذين «يحتقروننا» ـ وإعطائهم كل امتيازات المواطنين . . فيقول : «والأجانب ، ماداموا أجانب ، فهم شوكة

---

(٨٠) المرجع السابق . ص ٢٠٣ .

(٨١) المرجع السابق . ص ٣٥ ـ ٣٨ .

(٨٢) المرجع السابق . ص ٢٠٥ .

فى جسم الأمة. فيجب لذلك تمصيرهم، والتزاوج بيننا وبينهم، وحضهم على إرسال أولادهم إلى مدارسنا، حتى يعرفوا لغتنا، ويقرءوا صحفنا وكتبنا، كما يجب أن نسمح لهم بالتوظف فى الحكومة، والانتخاب للبرلمان... ويجب أن نمنع وساوسهم، فنفصل الدين عن الدولة، ونلغى تعليمه فى المدارس..»[83]!!

لقد تحدث عن غلبة الأجانب لنا، بمنطق «تنازع البقاء»، فبرر القهر الاستعمارى، قهر الأقوياء للمستضعفين، وكأنما قوانين الإنسان المتحضر هى قوانين الغابة.. ولم يكلف نفسه السؤال: من الذى أجهض تجربة مصر فى التحديث على عهد محمد على باشا [١١٨٤ - ١٢٦٥هـ، ١٧٧٠ - ١٨٤٩م]؟!.. ومن الذى حرس أمراض الشرق، حتى يرث دياره وثرواته؟!.. ومن الذى مكن لشذاذ الآفاق ومغامرى أوربا من استغلال الإنسان المصرى؟!.. وهل إذا «كره» المصرى هذا القهر وهذا الاستغلال يكون «حاسدا.. بلا حق» لهؤلاء الغالبين المستغلين؟!.. ومستحقا «بحق: احتقار» هؤلاء المتغلبين؟!

* * *

ولم يقنع سلامة موسى «بالتفرنج» الفكرى والثقافى والحضارى.. بل ودعا إلى ذلك أيضا فى الهيئة والأزياء!.. ففى الوقت الذى دعا فيه إلى التملص من العرب والمسلمين والشرقيين، تحدث عن أننا والأوربيين «أمة واحدة»!!.. ودعا إلى لبس «القبعة»، باعتبارها «رمز الحضارة»، الذى يقربنا للأجانب، ويجعلنا وإياهم أمة واحدة.. كما أنها رمز للانسلاخ الفكرى من الشرق، والالتحاق الفكرى بأوربا!.. فكتب يقول: «وقد يكون اصطناع القبعة أكبر ما يقرب بيننا وبين الأجانب ويجعلنا أمة واحدة.

---

(٨٣) المرجع السابق. ص ٢٠٠.

والقبعة هي رمز الحضارة، يلبسها كل رجل متحضر. ونحن إذا لبسنا القبعة فلسنا بذلك نلبس لباس أوربا فقط، بل نصطنع لباسا اتفق المتحضرون على وضعه على رءوسهم.. فإن للمتحضرين عادات يتعارفون بها ويصطلحون عليها، واتخاذ القبعة من هذه العادات. فلسنا نحب أن نخرج على العالم المتمدين بلباس خاص يجعلنا في مركز من الشذوذ يجلب إلينا الأنظار فيعمد السائحون إلى تصويرنا كأننا أمة غريبة عن الأمم التي جاءوا منها...

وقد أدرك مصطفى كمال [أتاتورك] ـ الذي لم تنجب بعد نهضتنا رجلا مثله ولا نصفه ولا ربعه ـ مقدار ما للقبعة من القيمة والإعلان بالانسلاخ من آسيا والانضمام لأوربا، ولم يمتنع عن استعمال السيف في سبيل ذلك... إننا سنبقى، في نظر أنفسنا ونظر الأوربيين، شرقيين، حتى نتخذ القبعة لرجالنا ونسائنا، ونعلن انسلاخنا من الشرق![84].. إن العقلية الأوربية تسهل على الأفندي أن يتقمصها، كما يتقمص اللباس الأوربي أكثر مما يسهل ذلك على الشيخ، وهي أسهل على «المتفرنج»، الذي يلبس القبعة مما هي على الأفندي لهذا السبب نفسه. وعلى هذا القياس أرى، لغرامي بالحضارة الأوربية، أن أحث بني وطني أن يلبسوا القبعة.. لأنها تبعث فينا العقلية الأوربية..»[85]!!..

فـ «الشكل»، عند الرجل، مرتبط «بالمضمون»، بل ومعين عليه.. فبعد أن حكم بأن «ذوقنا ودمنا هما الذوق والدم الغربيان.. وأننا في هيئة الوجه أوربيون[86].. وأن ثقافتنا وحضارتنا ـ بل ودياناتنا ـ أوربية»، دعا إلى «تفرنج» الزى، لأن ذلك أعون على أن «يبعث فينا العقلية الأوربية».. وامتدح أتاتورك، الذي فرض ذلك على أمته بحد السيف!..

(٨٤) المرجع السابق. ص ٢٠١، ٢٠٢. (٨٥) المرجع السابق. ص ٨٢.
(٨٦) المرجع السابق. ص ١٨٠.

وإذا كان الكثيرون ستصدمهم « الصراحة ـ العارية» لأفكار سلامة موسى وعباراته . . فإننا نحمد له هذه الصراحة . . ذلك أن غيره من «رواد» «التنوير ـ الغربى ـ العلمانى» قد دعوا إلى ذات المقاصد : الالتحاق بالنموذج الحضارى الغربى ، والاندماج فى فكره وثقافته وقيمه ومناهجه ، لكن بعبارات وصياغات أخف مما صنع سلامة موسى . . وكذلك يصنع جيل «التلاميذ»! . . وإنه لخير للأمة أن ترى «السم ـ صافيا» من أن تتناوله فى «العسل ـ المصفى»!! . .

لقد كان الرجل واضحا وحاسما وصريحا ، عندما أعلن أن مذهبه هو هذا المذهب . . وعندما لخصه فى هذه الكلمات :

«كلما ازددت خبرة وتجربة وثقافة ، توضحت أمامى أغراضى . . وهى تتلخص فى أنه :

● يجب علينا أن نخرج من آسيا ، وأن نلتحق بأوربا . فإنى كلما زادت معرفتى بالشرق زادت كراهيتى له ، وشعورى بأنه غريب عنى . وكلما زادت معرفتى بأوربا ، زاد حبى لها ، وتعلقى بها ، وزاد شعورى بأنها منى وأنا منها .

● أريد تعليما أوربيا لا سلطان للدين عليه ولا دخول له فيه . .

● وحكومة كحكومات أوربا . . لا كحكومة هارون الرشيد والمأمون . .

● وأدبا أوربيا . . أبطاله مصريون . . لا رجال الفتوحات العربية . .

● وثقافة أوربية . . لا ثقافة الشرق . . ثقافة العبودية والذل والتوكل على الآلهة . . .

● واللغة العامية . . لغة الهكسوس . . لا العربية الفصحى ، لغة التقاليد العربية والقرآن . .

● والتنصل من آسيا . . والشرق . . والانضمام إلى أوربا .

● والتفرنج فى الأزياء، لأنه يبعث فينا العقلية الأوربية . .

هذا هو مذهبى الذى أعمل له طول حياتى، سرا وجهرة . فأنا كافر بالشرق، مؤمن بالغرب . . »!!

هكذا تكلم سلامة موسى . . وعلى هذا النحو الصريح صاغ مذهبه فى «العمالة الحضارية»، التى مارسها ويمارسها كثيرون غيره، ولكن فى ثياب من «المداراة» و«التمويه»! . .

* * *

لقد اكتشفت وأنا أنهى هذه الصفحات عن المشروع الفكرى لسلامة موسى . . أن اليوم ـ ٤ أغسطس ـ هو الذكرى الخامسة والثلاثين لرحيله عن عالمنا . . ذكرنى بذلك مقال نشر اليوم بصحيفة [الأهرام] وصفت فيه كاتبته سلامة موسى بأنه : «**أحد رواد الفكر التنويرى العربى . . وصاحب الرسالة التنويرية . . وأحد الذين مهدوا لنا طريق التنوير**»(٨٧)! . .

فحمدت الله على أن وفقنى لكتابة هذه الصفحات!! . .

---

(٨٧) منى حلمى : «فى ذكراه : القلم الجرىء سلامة موسى » [الأهرام] عدد ٤ أغسطس، سنة ١٩٩٣م.

٣ - العقل اليونانى والحضارة المتوسطية

لم يكن طه حسين [١٣٠٦ - ١٣٩٣هـ ، ١٨٨٩ - ١٩٧٣م] عميلا للغرب ، ولا عدوا للإسلام ، حتى فى المرحلة الأولى من حياته الفكرية ، تلك التى تميزت بالانبهار الشديد بالنموذج الغربى فى النهضة والتحديث ، وبالرفض للنموذج الإسلامى فى النهوض . . وذلك لأسباب كثيرة ، أهمها تراجعه عن بعض « الاجتهادات » التى اكتشف « خطأها» بعد مرحلة الانبهار! . .

والرجل قد تضافرت ، فى تكوينه الفكرى ، العديد من العوامل التى دفعته إلى « الانبهار بالغرب» ، ككثيرين غيره من « نخبة» ذلك التاريخ ! . .

● فالجمود والتقليد السائدان فى الدراسات الإسلامية بالأزهر ــ الذى طلب طه حسين العلم فيه ـ كانا مبعث القلق ، بل وأحيانا «الغضب» ، بل و«اليأس والقنوط» لدى دعاة التجديد والإصلاح من علماء الإسلام فى ذلك الحين . . وإذا كان هذا الغضب واليأس قد بلغا بالإمام محمد عبده إلى الحد الذى قال فيه : «إن بقاء الأزهر متداعيا على حاله فى هذا العصر محال ، فهو إما أن يعمر وإما أن يتم خرابه ، وإننى أبذل جهد المستطيع فى عمرانه ، فإن دفعتنى الصوارف إلى اليأس من إصلاحه ، فإننى لا أيأس من الإصلاح الإسلامى[1]»!! . .

---

(١) [الأعمال الكاملة] ، جـ٣ص ، ١٧٧ .

إذا كان هذا هو حال الإمام مع منبع وصورة العلم الإسلامى . . فما بالنا بحال « المجاور» طه حسين؟! . .

● وصورة الواقع الإسلامى ـ فى السياسة والاجتماع ـ التى كانت ترمز إليها الدولة العثمانية ، فى عصر الاستبداد الحميدى . . والفساد الإدارى . . ودسائس الحاشية . . وانفراط عقد الولايات . . والتهام الغرب لأقاليم السلطنة . . كانت هذه الصورة هى الأخرى عاملا سلبيا فى نظرة طه حسين ـ فى مرحلة طلب العلم الدينى ـ للنموذج الإسلامى للنهضة والإصلاح . . «فالمجاور» طه حسين ـ وهو الذى لم يقدم له الأزهر من علوم الإسلام الحقيقية سوى القشور ـ قد حسب «صورة المسلمين وواقعهم» على الإسلام ! ! . .

● وصورة الحضارة الغربية ، التى كانت وردية فى ذلك التاريخ ، حتى أن مقولات نقدها ، ونبوءات انهيارها ـ ولم تكن قد شاعت ـ كانت تبدو بعيدة عن التصديق ! . . هذه الصورة كانت تبهر وتدهش الذين لم يروا من الإسلام سوى واقع المسلمين ، وخاصة إذا كانوا من أبناء المغلوبين الذين ، عادة ، مايولعون بتقليد الغالبين ، كما يقول ابن خلدون [٧٣٢ ـ ٨٠٨هـ ، ١٣٣٢ ـ ١٤٠٦م] . .

● ثم جاءت العوامل الذاتية الخاصة بطه حسين . . الجامعة المدنية ، بمناهجها الغربية . . وأساتذتها المستشرقين ، والتى احتضنته عندما أصبح طريد الأزهر! . . والبعثة إلى باريس ، تلك التى قاربت أن تكون ، بالنسبة له « غسيل مخ» أحل الانبهار بالغرب محل صورة المسلمين ، التى حسبها ـ ظلما ـ على الإسلام! . . والزوجة الفرنسية ـ ثقافة وعقيدة ـ تلك التى مثلت «المرشد» لـ «الضرير» الباحث فى « التيه»!! . .

لهذه الأسباب ـ ولغيرها مما ماثلها ـ اندفع طه حسين على طريق

«الاجتهاد»، يتلمس لأمته نموذجا لنهضتها من وهدة التخلف والجمود والتقليد التى سقطت فيها . . فكان اختياره للنموذج الغربى سبيلا لهذا النهوض . .

أما أن هذا الخيار التغريبى قد جعل الرجل نموذجا للذين بشروا فينا بمقولات « التنوير ـ الغربى ـ العلمانى » ، فإن المشروع الفكرى لطه حسين يقدم على هذه الحقيقة عشرات الأدلة والبراهين . . لكننا سنقف عند معالم أساسية ، فى مشروعه الفكرى ، تشهد على ريادته لهذا اللون من «التنوير» . .

● ففى كتابه [فى الشعر الجاهلى] ـ الذى أثار سنة ١٩٢٦م أولى معاركه الفكرية ـ نزع طه حسين «القدسية» عن القرآن الكريم ، وتعامل معه كما يتعامل الباحث ـ الملتزم بالشك الديكارتى ـ مع «نص بشرى»، وتجاهل قدسية القرآن ، كوحى إلهى ، بلغ « العقل المسلم» مرتبة « اليقين بصدقه» منذ أن آمن هذا العقل بوجود الإله الذى أوحى بهذا القرآن ، وبصدق الرسول الذى بلغه إلى الناس ، وبإعجازه كل الناس عن أن يأتوا بشيء من مثله . .

ولذلك ، لم يجد طه حسين تناقضا بين قوله عن « ثبوت النص القرآنى» : « . . . ونص القرآن ثابت لا سبيل إلى الشك فيه» . . واعتماده على القرآن فى معرفة حال العصر الجاهلى « . . لأن القرآن هو أصدق مرآة للعصر الجاهلى . . »[٢] . . لم يجد تناقضا بين هذه الأوصاف التى أضفاها على القرآن ـ لأنها من الأوصاف التى توصف بها النصوص غير المقدسة ـ وبين التشكيك فى عقائد إسلامية جاء النص عليها صراحة فى القرآن الكريم . . فرفض تصديق إخبار القرآن عما أخبر به حول :

(أ) علاقة الإسلام بملة إبراهيم ، عليه السلام ، والحنيفية والحنفاء . . وهى علاقة تحدثت عنها آيات محكمة فى القرآن الكريم . .

---

(٢) [فى الشعر الجاهلى]، ص ١٦ . طبعة القاهرة، سنة ١٩٢٦م.

(ب) وقصة بناء الكعبة ورفع قواعدها بواسطة إبراهيم وإسماعيل، عليهما السلام . . وهى ثابتة فى أكثر من موضع بالقرآن الكريم . .

(جـ) وأخبار الرحلة الحجازية لإبراهيم، عليه السلام . . وما لها من علاقة بنسب الرسول، ﷺ . .[٣].

لقد نزع طه حسين القدسية عن القرآن الكريم، وتعامل معه ـ بالشك الديكارتى ـ كما يتعامل الديكارتيون مع النصوص البشرية، غير المقدسة . . وهذا معلم من معالم تعامل فلسفة التنوير الغربى مع الكتب «المقدسة» . .

ولايحسبن أحد أن القول بتكذيب طه حسين للقرآن فى هذه المواطن هو دعوى خصومه، التى اتهموه بها، والتى « برأته» منها النيابة العامة عندما حفظت أوراق هذا الاتهام فى ٣٠ مارس سنة ١٩٢٧م.

فطه حسين نفسه، عندما عاد فى سنة ١٩٤٧م ليتحدث عن كتابه [فى الشعر الجاهلى]، هو الذى يعترف بأنه «شكك فى بعض المعتقدات» الإسلامية الواردة فى القرآن ، وإن كان يقول إنها ـ هذه المعتقدات ـ «لاتمس الدين» . . فهو قد شكك فى «معتقدات ذكرت بالقرآن» . . هذا هو اعترافه الذى يقول فيه، وهو يتحدث عن هذا الكتاب: « . . لقد انتهيت إلى رفض قدر كبير من هذا الشعر الجاهلى . . **وفى إطار ذلك المسعى شككت فى بعض المعتقدات التى لا تمس الدين، وإن كانت قد ذكرت فى القرآن أو فى الأحاديث النبوية، وكانت الصدمة قاسية والاستنكار واسع النطاق** . . »[٤]!!

---

(٣) انظر المصدر السابق. ص ٨٠، ٨١.

(٤) د. طه حسين [من الشاطئ الآخر . طه حسين فى جديده الذى لم ينشر سابقا] ـ وهى نصوص ظلت غير مترجمة عن الفرنسية ـ إلى أن جمعها وترجمها عبد الرشيد الصادق محمودى. وطبعها فى هذا الكتاب. انظر ص ٦٣، طبعة بيروت، سنة ١٩٩٠م.

ورئيس النيابة ــ محمد نور ـ الذى حقق مـع طه حسين فى هذا الاتهام ، لم «يبرئ» طه حسين من التهمة ـ كما يحسب أو يزعم البعض ـ . . وإنما سجل على طه حسين « التورط» و«الضـلال» و«العبارات الماسة بالـدين» . . وأرجع ذلك إلى «شدة تأثر» طه حسين «بالعلماء الغـربيين» ، الذين « حذا حذوهم» ـ كما قال رئيس النيابة ـ فى هذا اللون من البحث فى المقدسات . .

لكن رئيس النيابة حفظ القضيـة ، ولم يحلها إلى المحاكمة ، لأن المتهم كان حسن النية ، «فالقصد الجنائى غير متوافر» ، لأن البـاحـث قد أورد « العبارات الماسة بالـدين» فى ثنايا «البحـث العلمى ، مع اعتقاده أن بحثـه يقتضيها . . حتى تَخَيَّل حقا ما ليس بحق»!! . .

ونص العبارة التى ختم بها رئيس النيـابة التحقيق مع طه حسين ، والذى يعلل حفظ الأوراق ، يتحدث عن الباحث الذى حذا فى بحثه «حذو العلماء من الغربيين . ولكـن لشدة تأثر نفســه بما أخذ عنهم قد تـورط فى بحثه حتى تخيل حقا ما ليس بحق ، أو ما زال فى حـاجة إلى إثبات أنه حق ، فكان يجب عليه أن يسير على مهل ، وأن يحتاط فى سيره حتـى لا يضل ، ولكنه أقدم بغير احتياط فكانت النتيجة غير محمودة .

وحيث إنه ممـا تقدم يتضح أن غرض المؤلف لم يكـن مجرد الطعن والتعدى على الدين ، بل إن العبارات الماسة بالدين ، التى أوردها فى بعض المواضع من كتابه ، إنما أوردها فى سبيل البحث العلمـى ، مع اعتقاده أن بحثه يقتضيها . وحيث إنـه ، من ذلـك ، يكون القصد الجنـائى غير متوافـر ، فلذلـك تحفظ الأوراق إداريا» .

فنحن هنـا أمام إدانـة «للمؤلَّف» ــ بفتح اللام ــ الذى تضمـن «الطعن والتعدى على الدين» ـ مع تبرئة « المؤلِّف» ـ بكسر اللام ـ «لعدم توافر القصد

الجنائى» لديه فيما قام به من «الطعن والتعدى على الدين»[٥] ! . .
فـ«الجناية» ثابتة، لكن «قصدها» لم يقم عليه الدليل! . .

● أما العمل الفكرى الثانى للدكتور طه حسين . . والذى تبنى فيه أغلب مقولات «التنوير ـ الغربى ـ العلمانى» . . فهو كتابه [مستقبل الثقافة فى مصر]، الذى كتبه سنة ١٩٣٦م . . ونشره سنة ١٩٣٨م . .

ففى هذا الكتاب :

(أ) ينظر طه حسين إلى الإسلام نظرة التنويريين الغربيين العلمانيين إلى النصرانية، باعتبارها مجرد رسالة روحية، لا علاقة لها بسياسة المجتمع وتدبير العمران . . فيقول : «إن السياسة شىء والدين شىء آخر . وإن وحدة الدين ووحدة اللغة لا تصلحان أساسا للوحدة السياسية ولا قواما لتكوين الدول . . »[٦]!

(ب) ثم يمضى ممعنا على طريق المماثلة بيننا وبين الغرب الحضارى، حتى يبرر استدعاء مقولات «التنوير ــ الغربى ــ العلمانى» لتكون سبيلا لإخراجنا من تخلفنا الحضارى كما كانت السبيل لإخراج أوربا من عصورها المظلمة . . يمضى ممعنا على هذا الطريق، فيردد، فى الثلاثينيات ما قال به سلامة موسى فى العشرينيات، من أننا، فى الثقافة والفكر والعقل والحضارة، «فرنجة» . . فمقوماتنا الحضارية هى نفس مقومات الحضارة الغربية ـ حضارة الإغريق والرومان ــ من أدب وفلسفة وفن وسياسة وفقه . فالعقل الشرقى هو عقل يونانى منذ القدم . . وحتى بعد أن جاء الإسلام والقرآن، ظل العقل الشرقى يونانيا رومانيا أوربيا، لأن القرآن مجرد مصدق للإنجيل، الذى لم يغير يونانية العقل الأوربى، فلا مجال لحديث عن تغيير القرآن ليونانية عقلنا الشرقى!!

---

(٥) د. جابر عصفور: [التنوير يواجه الإظلام] . ص ١٣، ١٤ .
(٦) [مستقبل الثقافة فى مصر] . جـ١، ص ١٧، ١٦ . طبعة القاهرة، سنة ١٩٣٨م.

لقد ادعى طه حسين هذه الدعوى، التى تمثل جماع أخطر الدعوات التغريبية للتنوير بمعناه الغربى . . فتحدث عن أن العقل الشرقى هو، كالعقل الأوربى، مرده، فى التكوين والمقومات، إلى عناصر ثلاثة :

« ـ حضارة اليونان ، وما فيها من أدب وفلسفة وفن . .

ـ وحضارة الرومان، وما فيها من سياسة وفقه . .

ـ والمسيحية، وما فيها من دعوة إلى الخير وحث على الإحسان . . »[7]

على هذه المكونات والمقومات ـ فى رأى طه حسين ـ قامت وحدة العقل الشرقى بالعقل الأوربى فيما قبل الإسلام . . وهى الوحدة التى قال إنها استمرت كما هى حتى بعد ظهور الإسلام وتديّن الشرق العربى به . . إذ ـ برأيه ـ كما لم يغير الإنجيل، عندما تدينت به أوربا، من الطابع اليونانى للعقل الأوربى، فكذلك القرآن ـ الذى تديّن به الشرق ـ لم يغير من الطابع اليونانى للعقل الشرقى، لأن « القرآن» ليس أكثر من «دعوة للخير وحث على الإحسان» ـ كما هو حال المسيحية ـ وهو «إنما جاء متمما ومصدقا لما فى الإنجيل»[8] !

فهنا يبرز موقف « التنويريين الغربيين» فى التعامل مع النصرانية الغربية . . مجرد «دعوة إلى الخير وحث على الإحسان» لا بأس بها فى «خصوصيات الفرد»، بينما تظل شئون الاجتماع وميادين العمران للكلاسيكيات اليونانية ـ «من أدب وفلسفة وفن» ـ وللكلاسيكيات الرومانية ـ «من سياسة وفقه» ـ . . وطه حسين يستدعى هذا الموقف «التنويرى الغربى» من النصرانية، ليحتذيه فى الموقف من الإسلام . وليتسق له ذلك، رأيناه يجرد الإسلام من شمول منهاجه لشئون الدنيا وميادين

---

(٧) المرجع السابق . جـ ١ ، ص ٢٩ . (٨) المرجع السابق . جـ ١ ، ص ٢١ ، ٢٢ .

العمـران ، فيجعـل قرآنـه ، كـالإنجيـل ، بلا « شريعـة» تـدبـر أمر الـدنيـا والعمران ! ! . .

وبعد هذا الاستدعاء لفلسفة «التنوير ـ الغربى ـ العلمانى» إزاء الدين . . ومحاولة قسر الإسلام كى يذعن لهذه الفلسفة . . يخلص طه حسين إلى دعوى التماثـل بين مستقبلنـا الحضارى ــ فى المقـاصـد والآليات ــ وبين النمـوذج الحضارى الغربى ، بعد أن أوهمنا بتماثل ــ بل وحدة ـ عقلنا والعقل الأوربى وحضارتنا والحضارة الأوربية ، قبل الإسلام وبعد الإسلام . . يخلص إلى هذه النتيجة فيقول : «**لقد كـانت مصر دائما جـزءا من أوربـا ، فى كل مـايتصل بالحياة العقلية والثقافية ، على اختلاف فروعها وألوانها** . . »[٩] !

وهو يعود فى عقـد الأربعينيات إلى ترديد هذه الـدعوى . . فيقول : «**إن الحضارة العربية والحضـارة الفرنسية تقومان على أساس واحـد ، هو فى نهاية الأمـر الحضـــارة اليـونـــانيـة الـــلاتينيـة ، وهـــو فى نهايـة الأمـــر الحضـارة الكلاسيكية** . . »[١٠] ! . .

ثم يدعو إلى أن يقبل الإسلام ، فى النهضـة الإسلامية المنشودة ، الحضارة الأوربيـة كما قبل المسلمـون الأوائل الحضـارة اليـونانيـة ! ! . . فيقـول : «**إن الإسلام تقبل الحضارة اليونانية ، فلم لا يتقبل الحضارة الأوربية**»[١١] ؟ !

ثم ينتهى إلى نتائج المنهاج الذى ينظر «للـذات الحضارية» بعيون مناهج «الآخر الحضـارى» ، فيعلن : «إن السبيل واضحـة بينة مستقيمة ليـس فيها

---

(٩) المرجع السابق . جـ ١ ، ص ٢٦ .

(١٠) [من الشاطئ الآخر] ، ص ١٩١ ، ١٩٢ ـ وتاريخ النص الفرنسى سنة ١٩٤٦م .

(١١) المرجع السابـق . ص ٦٠ ـ وتاريخ النص الفـرنسى سنة ١٩٤٧م ـ . . ولما كـان المقام هو مقام إيراد المقولات التنويرية الغربية . . وليس مقام تفنيدها . . فنحن نحيل ، فى تفنيد هذه المقولات ، على كتـابنا [الغزو الفكرى . . وهـم أم حقيقة؟] . طبعة القاهـرة ـ دار الشروق ، سنة ١٩٨٩م .

عوج ولا التـواء، وهى واحـدة فذة ليـس فيها تعـدد، وهى : **أن نسير سيرة الأوربيين ونسلـك طريقهـم**، لنكـون لهم أنـدادا، ولنكـون لهم شركـاء فى الحضارة، خيرها وشرهـا، حلوها ومرهـا، ما يُحَبّ منها وما يُكـره، ما يُحمد منها وما يُعاب . . » (١٢)!

فنحـن مدعـوون بـرأيـه ـ إلى أن نكـون «غـربـا» لا شرقا . . . وبـالتعبير «العارى» لسلامة موسى : أن نكون «فرنجة . . متفرنجين»!! . .

● وعلى هـذا الدرب . . درب استـدعاء مقـولات « التنـوير ــ الغربـى ـ العلمانى» إزاء الـدين إلى واقعنـا الإسلامـى . . يقف طـه حسين من عـلاقة الإسلام بالعلـم ذات الموقف الذى وقفه فلاسفـة التنوير الغربى مـن علاقة النصرانية بالعلم . .

لقد رأينـا ثنائية التنـاقض بين النصرانية الغـربية وبين العلم، تلـك التى نبعت مـن دعوى الـلاهوت الكنسـى احتكار الكتـب المقدسـة لكل ألـوان العلوم . . وكيـف أثمر هذا الموقف الكنسـى رد الفعل «التنوير ــ العلمانى» الذى عزل السماء والديـن عن أن تكون لهما أية علاقة ـ ولـو فى إطار ضوابط فلسفة التطبيقات العلمية ـ بأى علـم من العلوم . .

ومن الغريـب أن يرى طه حسين تماثلا فى العلاقـة بين الإسلام والنصرانية الغربية إزاء العلـم والعلماء . . من الغريـب ـ بل ومن الشذوذ ـ أن يرى الرجل ذلك، وألا يـدرك تميز الإسلام وحضارتـه عن النصرانية والتطـور الأوربى فى هذا الميدان . . فكل الـدراسات ـ شرقية وغربية ـ تتحدث عـن تألق وازدهار «العلـم» و«العقـل» و«الفلسفة» عندمـا كانـت الحاكمية للإسـلام والمشروعية لشريعتـه فى الـدولة والمجتمـع . . وعـن تـراجعهـا ـ العلـم ـ . . والعقـل . .

---

(١٢) [مستقبل الثقافة فى مصر]، جـ ١ ص، ٤٥ .

والفلسفة ـ مع تراجع الاحتكام إلى الدين . . وهو ما يجعل تطورنا ، فى هذا الأمر، وتطور الغرب الأوربى على طرفى نقيض . .

لكن طه حسين قد ذهب على درب استدعاء مواقف ومقولات «التنويريين ــ الغربيين ـ العلمانيين» إلى حد تبنى موقفهم ، إزاء علاقة النصرانية بالعلم، وهو يتحدث عن علاقة الإسلام بالعلم والعلماء . . وكأنه يتبنى رأى فرح أنطون [١٨٧٤ ـ ١٩٢٢م] القائل بأن النصرانية ـ وهذا أعجب العجب ، لأنها دين لا دولة ـ أكثر تسامحا مع العلم والعلماء من الإسلام . . وهو الرأى الذى نقضه من أساسه، وأثبت عكسه الإمام محمد عبده، فى المحاورات الخصبة التى دارت بينهما سنة ١٩٠٣م . . فى مجلتى [الجامعة] و[المنار][١٣] . .

بل لقد وجدنا فى الكتابات الفرنسية لطه حسين ـ والتى ترجمت بعد وفاته ـ نقدا لمنهاج الإمام محمد عبده فى الجمع بين الدين الإسلامى والعلم . . وحكما على جهود مدرسته التجديدية فى هذا الميدان ــ ميدان التوفيق بين العلم والدين ــ بأنها « أفكار بالية» ، و«مذهب غير صالح للبقاء» ، و«آراء متخلفة» ! ! . . وهى كتابات تجعل وضع تلاميذ طه حسين لأستاذهم فى زمرة الأفغانى ومحمد عبده «تزويرا» لا علاقة له بالمعنى المحترم لمصطلح «التنوير» ! ! . .

يقول طه حسين ، فى نص كتبه بالفرنسية سنة ١٩٣٤م : «لا شك أن الشيخ محمد عبده قد هز العالم الإسلامى بأسره، وأيقظ العقل الشرقى ، وعلم الشرقيين أن يحبوا حرية الفكر. **ولا ريب أيضا فى أنه أتاح لكثير من المسلمين أن يتطلعوا بأمل راسخ إلى يوم يتحقق فيه التوفيق بين العلم**

---

(١٣) انظر هذه المحاورات فى كتاب فرح أنطون : [ابن رشد وفلسفته] ، طبعة الإسكندرية ، سنة ١٩٠٣م . وانظر الجزء الثالث من : [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] ، ص ٢٤١ ـ ٣٥٠، ص ٤٩٦ ـ ٥١٠ .

والدين ،بين التقاليد الشرقية والحضارة الغربية . . ولكن العالم الإسلامى أصابه التغير منذ ذلك العهد . . . ولم يعد محمد عبده مواكبا للعصر . لقد صارت كل أفكار محمد عبده بشأن العلم والدين بالية . فهى ليست بالأفكار التى مضى عليها زمن طويل ، ولكنها لم تعد تتواءم مع انطلاق الشرقيين إلى الحرية الكبرى . وقليل هم المسلمون الذين يهتمون بالتوفيق بين إيمانهم والمعارف التى حصلوها ، وهم يندفعون بابتهاج نحو الحضارة الغربية ، ويتخذونها مثلا أعلى . . . يضاف إلى ذلك أن مذهب محمد عبده ، فى حد ذاته ، لم يكن صالحا للبقاء ، فقد كان يعتمد على تفسير النصوص للتوفيق بين عبارات القرآن ذاتها وحقائق العلم كما نعرفها اليوم . . . »(١٤)! . .

وفى نص فرنسى آخر ـ كتبه طه حسين سنة ١٩٤٧م ـ يحكم على مشروع محمد عبده ومدرسته بالتخلف ، فيقول : « لقد صار المتمسكون بآراء محمد عبده وقاسم أمين يعدون محافظين ، بل ويدرجون أحيانا بين المتخلفين . . »(١٥)!! . .

لقد اندفع طه حسين على درب التبنى لموقف « التنوير الغربى » من علاقة « الدين بالعلم » ، فاستدعاه إلى غير ميدانه ، زاعما تماثل موقف الإسلام من العلم مع موقف النصرانية منه . . وغره فى اندفاعه هذا الوهم الذى حسبه حقيقة ثابتة . . فلقد تحدث عن «اندفاع المسلمين بابتهاج نحو الحضارة الغربية ، يتخذونها مثلا أعلى» !

وأسهم فى هذا التقييم الخاطئ لمذهب محمد عبده فى علاقة الإسلام بالعلم ما حسبه موقفا للأستاذ الإمام «يوفق بين عبارات القرآن ذاتها وحقائق العلم كما نعرفها اليوم»!! . . ولم يكن هذا هو موقف الإمام من علاقة العلم بالدين . . فالرجل كان رافضا للتعامل مع القرآن بحسبانه « كتاب علوم» ،

---

(١٤) [من الشاطئ الآخر] . ص ٣٦ ، ٣٧ . (١٥) المرجع السابق . ص ٦٢ .

وداعيا إلى النظر إليه «ككتاب هداية دينية» يفتح أمام العقل والتجربة أبواب العلم ويحث الإنسان على الضرب فى أرض العلم، مع الاطمئنان إلى انتفاء واستحالة التناقض - أى تناقض - بين «حقائق العلم» و«ثوابت الدين» . .

ذلك هو مذهب الإمام، الذى يقول فى تحديده: «**إنه لو كان من وظيفة النبى أن يبين العلوم الطبيعية والفلكية، لكان يجب أن تعطل مواهب الحس والعقل، وينزع الاستقلال من الإنسان، ويلزم أن يتلقى كل فرد من أفراده كل شىء بالتسليم** . . إن الأنبياء ينبهون الناس، بالإجمال، إلى استعمال حواسهم وعقولهم فى كل ما يزيد منافعهم ومعارفهم التى ترتقى بها نفوسهم، ولكن مع وصلها بالتنبيه على ما يقوى الإيمان ويزيد فى العبرة . . . إن حقيقة البرق والرعد والصاعقة وأسباب حدوثها ليست من مباحث القرآن، لأنها من علم الطبيعة (الخليقة)، وحوادث الجو التى فى استطاعة الناس معرفتها باجتهادهم، ولا تتوقف على الوحى. **وإنما تذكر الظواهر الطبيعية فى القرآن لأجل الاعتبار والاستدلال، وصرف العقل إلى البحث الذى يقوى به الفهم والدين . . يذكر القرآن إجمالا من آثار الله فى الأكوان تحريكا للعبرة، وتذكيرا بالنعمة، وحفزا للفكرة، لا تقريرا لقواعد الطبيعة، ولا إلزاما باعتقاد خاص فى الخليقة** . . »(١٦).

هذا هو مذهب الإمام محمد عبده فى علاقة الإسلام والقرآن بالعلم . . وشتان بينه وبين مذهب اللاهوتيين - الذى سبقت إشارتنا إليه - فى علاقة النصرانية بالعلم . . الأمر الذى يتزايد معه شذوذ استدعاء موقف «التنويريين - الغربيين» فى هذا الأمر لتوظيفه فى عالم الإسلام ! ! . .

لكن طه حسين الذى ظن « المسلمين غير مهتمين بالتوفيق بين إيمانهم والمعارف التى حصلوها»، وحسبهم «مندفعين بابتهاج نحو الحضارة الغربية يتخذونها مثلا أعلى . . » . . قد اندفع هو الآخر وراء هذه المقولات «التنويرية

---

(١٦) [الأعمال الكاملة]. جـ ٤، ص ٤٨٦، ٤٨٧، ٩٤، جـ ٢، ص ٢٧٩.

ـ الغربية»، موظفا إياها فى غير وظيفتها . . وزارعا لبذورها فى غير تربتها . . ولو امتد العمر بالرجل عقدا آخر من السنين، لرأى جماهير المسلمين مندفعين بابتهاج لتلمس معالم مشروعهم الحضارى المتميز، والذى هو مثلهم الأعلى الحقيقى . . وليس نموذج الغرب، ولا «تنوير الغربيين»! . .

* * *

لكن الرجل ، قد ذهب هذا المذهب الخاطئ : مجتهدا يبحث لأمته عن سبل النهوض . . ولم يكن سيئ النية بحال من الأحوال، كما أنه لم يكن «عميلا حضاريا» . . . والدليل المادى على هذه الحقيقة هو عودته عن بعض آرائه هذه، وخاصة فى حقبة ارتباطه بالمشروع الوطنى والقومى، منذ عقد الخمسينيات . . فالمواجهة التى قامت وتصاعدت واحتدمت بين المشروع الوطنى والقومى وبين الغرب، قد كان لها ـ فى تقديرنا ـ الدور الأكبر فى التراجعات الجزئية، التى أشار إليها طه حسين ، حول بعض آرائه السابقة . .

لقد بدأ يائسا من الصورة الإسلامية . . لكنه لم يميز، كما ميز محمد عبده، بين اليأس من «إصلاح المؤسسات الإسلامية» ـ وهو وارد ـ وبين اليأس من «الإصلاح الإسلامى» . . والذى هو قنوط لا يليق بالمالكين الحقيقيين لحقيقة الإيمان بالإسلام! ! . . فلما ارتبط بالمشروع الوطنى والقومى، ووضع فى صفوف المواجهة العدائية مع الغرب ، لم يعد الغرب ـ كما كان ـ «المثل الأعلى الذى يندفع إليه بابتهاج»! . . وهذا دليل صادق على أن سعيه، فى الأولى وفى الثانية، كان سعى «المجتهدين»، الذين يصيبون ويخطئون . . وليس سعى أصحاب النوايا السيئة، من العملاء الحضاريين! . .

ولنا على هذه التراجعات «الجزئية»، التى سمحت « بالإشارة» إليها «الكبرياء المتضخمة!» للرجل، شواهد منها :

● لقـد حذف طـه حسين من كتـابه [فى الشعـر الجاهلى] السطور التـى شككك بها فى المعتقـدات الإسلاميـة الواردة فى القرآن الكـريم . . وهـى التى أحدثـت ـ وفـق عبارته هـو ـ «صـدمة قاسيـة ، واستنكارا واسـع النطاق» ـ حذفها فى الطبعة والصورة الجديدة لهذا الكتـاب ، الذى أصبح عنوانه : [فى الأدب الجاهلى] . .

● أما كتابه [مستقبـل الثقافة فى مصر] ـ وهو الذى مثـل أكثر كتب تلك المرحلة من حياته الفكـرية تجسيدًا للانبهار بالنموذج « التنويـرى ـ الغربى ـ العلمانى» ـ فيكفى أن نعلم أن الرجـل ، وهو الذى توفى سنة ١٩٧٣م ، قد ظل محجما عن إعادة طبع هـذا الكتاب الذى صدر سنة ١٩٣٨م ، أى على امتداد أكثر من خمس وثلاثين عاما . . وكان موقفه من هذا الكتاب استثناء ، ذا دلالة ، من سائر كتبه الأخرى . .

بل لقـد سئل عن رأيـه فى فكره الذى جـاء بهذا الكتاب ـ فى مـارس سنة ١٩٧١م ـــ فكانـت إجابتـه قاطعـة فى الدلالـة على أنه قـد غير آراءه ، المثيرة للجـدل ، والتـى وردت بهذا الكتـاب . . لقـد قـال عنـه : «دهْ كُتـب سنـة ١٩٣٦م . . **قُدُم قوى ، عاوز يتجدد . ويجب أعـود إليه ، وأصلح فيه بعض حاجات ، وأضيف . .**»(١٧) .

وفى هذا أقصـى وأصرح اعتذار وتـراجع يمكـن أن يصدر مـن مثل طـه حسين ! ! . .

● وفى علمانية الدولة والسياسة ، وهو الموقـف « التنويرى ـ الغربى» الذى تبناه طـه حسين فى سنة ١٩٢٥م . . من خلال دفـاعه عن كتـاب [الإسلام وأصول الحكـم] . . وفى كتابه [مستقبل الثقافة فى مصر] الذى قال فيه : «إن

---

(١٧) صحيفة [الأهرام] ، فى ١ مارس ، سنة ١٩٧١م .

السياسة شيء والدين شيء آخر» . و«إن وحدة الدين ووحدة اللغة لا تصلحان أساسا للوحدة السياسية ولا قواما لتكوين الدول . . . »[18] . .

فى هذا الموقف، حدث تراجع هام لطه حسين، فى حقبة ارتباطه الوثيق بالمشروع الوطنى والقومى، التى تصاعد فيها التناقض بين الأمة والغرب حول الاستقلال الوطنى والوحدة القومية . .

ففى سنة ١٩٥٣م ـ وعقب ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢م ـ اختير طه حسين عضوا بلجنة وضع الدستور المصرى الجديد ـ الذى كان مخططا له أن يحل محل دستور سنة ١٩٢٣م ـ . . وفى مداولات هذه اللجنة قال طه حسين كلاما يدعو إلى الالتزام فى الدستور بكل الإسلام، وإلى إلزام المشرع للقوانين بألا يخرج قانون من القوانين عن أحكام القرآن الكريم . . ونص عباراته يقول: « إنه من المقطوع به أن الأغلبية لن تقبل أن تخرج، عند وضع الدستور، على ما أمر به الإسلام . . ولكن، لا بد لنا من أن نحتاط، فنقول : **إنه ليس هناك أى مقتض يسمح لنا بأن نعدل عن نص القرآن . . أريد أن أقول : إنه إذا وجد نص دينى صريح . . فالحكمة والواجب يقتضيان ألا نعارض النص، وأن نكون من الحكمة ومن الاحتياط بحيث لا نضر الناس فى شعورهم، ولا فى ضمائرهم، ولا فى دينهم . . وإذا احترمت الدولة الإسلام فلا بد أن تحترمه جملة وتفصيلا . . ولا يكون الإيمان إيمانا ببعض الكتاب، وكفرا ببعضه الآخر . .** »[19] .

هكذا قطع طه حسين بضرورة التزام كل القوانين بكل نصوص القرآن، ودعا إلى النص على ذلك فى الدستور، احتياطا، ولا يكتفى بالاطمئنان إلى أن

---

(١٨) [مستقبل الثقافة فى مصر] . جـ ١، ص ١٧ ، ١٦ .

(١٩) [لجنة مشروع الدستور] ـ محضر لجنة الحريات والحقوق والواجبات العامة ـ الجلسة السابعة ـ ص ٨١، ١٢١ . طبعة وزارة الإرشاد القومى ـ القاهرة ـ بدون تاريخ .

المشرع لن يخرج عن الإسلام، دين الأغلبية . . وهو هنا يضع الإسلام محورا للمقومات التى تصون وحدة الأمة وهويتها، والتى ينص عليها الدستور . . وفى ذلك فكر مغاير، بل ومناقض لموقف «التنوير - الغربى - العلمانى»، من علاقة الدين بالسياسية والدولة، ذلك الذى سبق له وتبناه . .

وإذا كان هذا هو منحنى فكره فى علاقة الدين بالدولة والسياسة . . فإن ارتباطه بالمشروع القومى، والوحدة العربية، بعد قيام ثورة سنة ١٩٥٢م قد شهد العديد من الأدلة على منحنى فكرى جديد حول علاقة اللغة العربية بالوحدة العربية، كمقوم من مقومات هذه الوحدة . . وإسهامات طه حسين الثقافية والفكرية فى هذا الميدان تستحق دراسة متخصصة وقائمة بذاتها . .

هكذا عدّل الدكتور طه حسين من بعض اجتهاداته، التى تبنت فى المرحلة الأولى من انبهاره « بالتنوير - الغربى - العلمانى » مقولات « تنويرية - غربية»: تشكك فى المقدسات، بعد أن نزعت عنها قدسيتها . . وتدعو إلى الالتحاق بالنموذج الحضارى الغربى، والاندماج فيه . . وتفصل الدين عن السياسة والدولة ومقومات العمران البشرى . . فأقام بهذا التطور الجزئى فى مقولات مشروعه الفكرى البرهان على أنه إنما كان «مجتهدا»، أخطأ فى هذا «الاجتهاد» أم أصاب . . فلم يكن «عميلا حضاريا» . . فحتى عندما مثلت مقولاته « التنويرية - الغربية - العلمانية» «جناية » على « الهوية الإسلامية» للأمة، وعلى خصوصية ثقافتها ومشروعها النهضوى . . فإن «القصد الجنائى» لم يكن متوافرا عند الدكتور طه حسين!! . .

الجبر والاختيار فى تبنى النموذج الغربى :

وعند هذا الحد من الدراسة . . والنماذج التى تبنت الخيار الغربى فى التقدم والنهوض . . ومع الاعتراف ـ الذى ينصف من نختلف معهم ـ بأن هذا التبنى إنما كان فى أحيان كثيرة لونا من « الاجتهاد» فى البحث عن سبل لإنهاض الأمة وتقدمها . .

عند هذا الحد من الدراسة ، يبرز السؤال عن دور الغرب ذاته فى الترويج لنموذجه الحضارى على النطاق العالمى ، وخاصة فى مجتمعات الأمم والحضارات التى قهرها باستعماره الحديث ، على امتداد نحو قرنين من الزمان ! ! . . وهل مارست حكوماته الاستعمارية ومؤسساته الثقافية والفكرية والسياسية والدينية والخيرية ألوانا من الإكراه أو الإغراء فى ترويج نموذجه الحضارى؟ والعمل على إحلاله محل المواريث الحضارية للأمم التى خضعت لاستعماره؟ . . وذلك حتى تتحدد المسئوليات عن «التغريب» بدقة تخلو من غلو الإفراط والتفريط ! . .

● إننا لا ننكر أن صورة الحياة الفكرية ، فى العقود الأخيرة من حياة الدولة العثمانية ، قد مثلت عاملا من عوامل تبرير الانقلاب العلمانى والتغريبى الحاد الذى مثله أتاتورك [١٢٩٨ ـ ١٣٥٧هـ ، ١٨٨١ ـ ١٩٣٨م] ، والذى سلخ به تركيا عن تراثها ومحيطها وهويتها الإسلامية . . وسواء أدخلنا هذا العامل فى « الأسباب» أو فى «الذرائع» ، فإن إغفاله ليس من الموضوعية فى شىء ! . .

لكن ، هل يستطيع منصف أن ينكر تاريخ الغرب فى دفع الدولة العثمانية إلى هذا المصير . مصير «الرجل المريض»؟ ! . . وحتى الأمراض الذاتية العثمانية ، هل ينكر منصف أن الغرب قد «حرسها» ، وحال دون البرء منها ،

انتظارا للحظة «القتل» وتوزيع « الأسلاب»؟! . . لا أظن منصفا ـ حتى من الذين تقف مصادرهم عند الكتابات الغربية وحدها ـ ينكر دور الغرب فى دفع تركيا إلى هذا المنحدر التغريبى الذى مثله وأنجزه الكماليون! . .

ثم هل يستطيع منصف ، الآن ، ألاّ يبصر العلاقة بين مؤتمر « لوزان» [١٣٤١هـ ـ ١٩٢٣م] ـ الذى ضم الحلفاء الغربيين فى الحرب الاستعمارية العالمية الأولى واليونان وتركيا ، وما فرض فيه على تركيا من شروط مكتوبة أو غير مكتوبة لقاء إلغاء معاهدة « سيفر» [١٣٣٨هـ ـ ١٩٢٠م] ـ . . هل يستطيع منصف ألاّ يبصر **العلاقة بين «تسوية لوزان» وبين إلغاء أتاتورك للخلافة [١٣٤٢هـ ـ ١٩٢٤م] والاندفاع فى تبنى النموذج الغربى** . . من الحرف اللاتينى . . إلى الأذان بالتركية . . إلى القبعة . . إلى قوانين الأحوال الشخصية السويسرية . . حتى لقد كادت « الوضعية ـ الغربية» و«التنوير ـ العلمانى» أن يكونا الدين الجديد للدولة التركية ، بدلا من الإسلام؟! . .

هل يستطيع منصف إنكار دور الغرب فى « فرض» هذا الخيار . . إن بالترغيب أو الترهيب؟! . .

● وهل نستطيع أن نغفل دلالة الكتابات الغربية المعاصرة ، التى تخير العالم الإسلامى وأمته بين «قبول» النموذج الغربى فى التقدم والنهضة والتحديث ، وبين أن يوضع فى موقع « العدو . . والخطر الأخضر» ، الذى توجه إليه آليات الصراع الغربى ، تلك التى كانت موجهة إلى « الخطر ـ الشيوعى ـ الأحمر» قبل سقوط المنظومة الماركسية وأحزابها ونظمها؟! . .

إن رئيس المجلس الوزارى الأوربى ـ أى ممثل الغرب الأوربى ـ « جيانى ديميكليس» ، فى سنة ١٩٩٠م ، عندما يسأله مراسل « النيوزويك» الأمريكية :

ـ « ما مبررات بقاء حلف الأطلنطى ـ الناتو ـ بعد زوال المواجهة بين

الغرب الليبرالى والمعسكر الذى كان اشتراكيا » ؟ . . . يجيب :

ـ «صحيح أن المواجهة مع الشيوعية لم تعد قائمة . إلا أن ثمة مواجهة أخرى يمكن أن تحل محلها بين العالم الغربى والعالم الإسلامى »

ـ فلما عاد مراسل « النيوزيك» ليسأل : «وكيف يمكن تجنب تلك المواجهة المحتملة »؟

ـ لم يتردد رئيس المجلس الوزارى الأوربى فى أن يعلن أن الشرط هو تعميم النموذج الحضارى الغربى ، و«قبول» المسلمين له . . وإلا كانت «المواجهة ـ فى منتهى الخطورة» مع العالم الإسلامى . . فيقول : «**ينبغى أن تحل أوربا مشاكلها ، ليصبح النموذج الغربى أكثر جاذبية وقبولا من جانب الآخرين فى مختلف أنحاء العالم . وإذا فشلنا فى تعميم ذلك النموذج الغربى ، فإن العالم سيصبح مكانا فى منتهى الخطورة! ! . .**»[1].

هل يستطيع منصف إغفال دور هذا التهديد الرسمى ـ وأمثاله ـ فى فرض النموذج الغربى ، على المسلمين ، وغيرهم من حضارات وأمم «الجنوب»؟ . .

والرئيس الأمريكى الأسبق « ريتشارد نيكسون» ـ فى كتابه الأخير «الفرصة السانحة» Seize The Moment يتناول هذا المعنى فى صراحة ووضوح . .

فهو يقسم تيارات الفكر فى العالم الإسلامى إلى :

(أ) **تيار التقدم ـ العلمانى ، المنحاز إلى الغرب ـ ونموذجه «تركيا فى انحيازها نحو الغرب والتحضر . . وسعيها إلى ربط المسلمين بالعالم المتحضر ـ(الغرب) ـ من الناحيتين السياسية والاقتصادية»** .

---

(١) نقلا عن [الأهرام] ـ مقال الأستاذ فهمى هويدى : « من يعادى من؟» ، فى ١٧ يوليو، سنة ١٩٩٠م .

(ب) وتيار الرجعية «الديكتاتورية، صاحبة الأيديولوجية المتعصبة»، التى تحلم بوهم الوحدة القومية!!

(جـ) والأصولية الإسلامية «التى تنظر إلى الماضى لتتخذ منه هداية للمستقبل.. والتى تريد استرجاع الحضارة الإسلامية السابقة.. وتطبيق الشريعة الإسلامية.. وتنادى بأن الإسلام دين ودولة..»

وبعد هذا التقسيم والتوصيف لتيارات الفكر فى العالم الإسلامى، يدعو «نيكسون» أمريكا والغرب إلى دعم التيار «العلمانى» فى مواجهته «لأيديولوجية الأصوليين وانغلاق الرجعيين».. قائلا إن فى هذا الدعم للعلمانيين «مصلحتهم ومصلحتنا»!!.. ثم يقول بالحرف الواحد: «**وسوف تلعب السياساتان الأمريكية والغربية مع المسلمين دورا رئيسيا فى تحديد الخيار الذى تختاره الشعوب المسلمة**»[٢]!!..

فالحديث عن أن أمريكا والغرب سينهضان بالدور الرئيس فى «تحديد الخيار الذى تختاره الشعوب المسلمة»!.. فماذا سيبقى، حالئذ، للشعوب المسلمة من حقيقة «الخيار والاختيار»؟!..

● والمفكر الفرنسى «جاك بيرك» ـ وهو الذى يصنف بين أصدقاء العرب والمسلمين ـ نراه، فى أحدث ماكتب عن حضارات البحر المتوسط، يدعو العرب إلى «**قبول**» الانتماء إلى حضارة البحر المتوسط، ففى هذا القبول إزالة للتناقض بينهم وبين «التفرنج».. أى أن هذا الانتماء للحضارة المتوسطية، هو انتماء «للتفرنج»، أى التحاق وإلحاق بالنموذج الغربى.. وبذلك يشعرون ـ بهذا «**القبول**» ـ أن «**التفرنج طبيعى**»، وليس مفروضا عليهم..

---

(٢) [الفرصة السانحة]. ص ٢٨، ١٤٠، ١٤١. ترجمة أحمد صدقى مراد. طبعة القاهرة ـ دار الهلال ـ سنة ١٩٩٢م.

فيقول نص عبارته : «فإذا قبل العرب الدعوة المتوسطية ، يتخلصون تماما من تناقضهم مع «التفرنج» ، ذلك أنه يصبح سمة «طبيعية» ، لا مفروضة عليهم»!! [٣] . . فتفرنج العرب قرار غربى . . وصديقهم يجتهد لإيجاد السبيل الذى يصبح فيه هذا «التفرنج طبيعيا» ، عندما «يقبلونه» ، وذلك بدلا من «فرضه عليهم» ، الأمر الذى يشعرهم «بالتناقض معه» . . !! . .

● وفى إطار البحث عن مساحات «الجبر» و«الاختيار» المتاحة أمام «الإرادتين العربية والإسلامية» ، إزاء النموذج الغربى فى التحديث والنهوض . . وعلى غرار ما أحدثت معاهدة لوزان سنة ١٩٢٣م فى إسقاط الخلافة وإلغائها سنة ١٩٢٤م ـ . . يحق للمرء أن يتساءل عن الجهود الجادة التى بذلتها الدولة المصرية فى سبعينيات هذا القرن العشرين لتقنين الشريعة الإسلامية ، والنص فى المادة الثانية من دستورها على أن مبادئ الشريعة الإسلامية هى المصدر الرئيسى للقوانين ، وهى جهود استغرقت من مؤسسات الفكر والتشريع نحوا من خمس سنوات . . وتجسدت فى عديد من مشروعات القوانين . . يحق للمرء أن يتساءل عن سر طى صفحة هذا التوجه وتلك الجهود ، دونما أسباب معلنة ! ! . . وهل كان لمعاهدة « كامب ديفيد » ـ سنة ١٩٧٩م ـ وتقنين وتكريس الارتباط بالغرب علاقة بطى صفحة هذا التوجه لتقنين الشريعة وتطبيقها ؟ ! . . ووضع مشروعات قوانينها فى «الأدراج» ؟ ! . .

هل كان للقرار الغربى ـ مكتوبا أو غير مكتوب ـ دور فى هذا التحول عن الخيار الإسلامى فى التشريع والتقنين والتقدم والنهوض ؟ ! . .

● والأمر الذى يجعل لهذه التساؤلات «مشروعية ـ خاصة» ، وللإجابة عليها « أهمية كبرى» فى تحديد دور الغرب ـ و«جبره» لنا على تبنى نموذجه

(٣) صحيفة [الحياة] ، عدد ١ أغسطس ، سنة ١٩٩٣م .

فى «التنوير ـ الغربى ـ العلمانى» ، ذلك «**الاعتراف**» الذى سجله الدكتور طه حسين فى كتابه [مستقبل الثقافة فى مصر] حول دور الغرب ، المباشر ـــ بل ومن خلال المعاهدات التى أبرمها مع مصر ، كنموذج ـ فى إلزامنا بنموذجه الغربى فى نظم الحكم والحياة والتفكير والتطور والتحديث ! ! . .

فبعد أن افتتح كتابه بالحديث عن علاقة تأليفه له بتوقيع مصر على معاهدة سنة ١٩٣٦م ، وهى معاهدة الاستقلال المنقوص والمشروط ، وعلى معاهدة سنة ١٩٣٨م الخاصة بالامتيازات الأجنبية فى مصر ـــ معاهدتى «لندن» و«منترو» ـ رأيناه يعلن ، بعبارات صريحة ، أن تبنى النموذج الغربى هو التزام بالمعاهدات التى أبرمناها ، إلى جانب أنه موقف الذين أبرموا هذه المعاهدات من أبناء أمتنا . . فدور الغرب فى « الإلزام» ودورنا فى « الالتزام» حقيقتان يعترف بهما الدكتور طه حسين عندما يقول : «**لقد التزمنا أمام أوربا أن نذهب مذهبها فى الحكم ، ونسير سيرتها فى الإدارة ، ونسلك طريقها فى التشريع . التزمنا هذا كله أمام أوربا . وهل كان إمضاء معاهدة الاستقلال ومعاهدة إلغاء الامتيازات إلا التزاما صريحا قاطعا أمام العالم المتحضر بأننا سنسير سيرة الأوربيين فى الحكم والإدارة والتشريع ؟**

فلو أننا هممنا الآن أن نعود أدراجنا ، وأن نحيى النظم العتيقة ، لما وجدنا إلى ذلك سبيلا ، ولوجدنا أمامنا عِقَابًا لا تُجتاز ولا تُذلل ، عِقَابًا نقيمها نحن لأننا حراص على التقدم والرقى ، وعِقَابًا تقيمها أوربا لأننا عاهدناها على أن نسايرها ونجاريها فى طريق الحضارة الحديثة»[٤] ! ! . .

فنحن أمام «اعتراف» واضح وحاسم وصريح ، على أن هناك ، فى المعاهدات التى أبرمها الغرب مع حكوماتنا ـ « التزاما» بأن «نذهب مذهبها فى الحكم ـــ والإدارة . . والتشريع . . وأننا عاهدنا أوربا على أن

---

(٤) [مستقبل الثقافة فى مصر]. جـ ١ ، ص ٣٦ ، ٣٧ .

نسايرها ونجاريها فى طريق الحضارة الحديثة»!! . . فهل بعد ذلك شك فى دور الغرب فى «إملاء» نموذجه على أمم وشعوب البلاد التى نكبت باستعماره؟ . . وفى أن قبول هذا النموذج الغربى إنما كان من بين «شروط الاستقلال»؟! . .

وهل يستلفت هذا «الاعتراف» ـ مع غيره من الوقائع التى أشرنا إليها ـ نظر الذين يحسبون أن توجههم لاستلهام النموذج الغربى فى «التنوير» و«التحديث» ليس مجرد «اختيار ـ ذاتى» اختاروه بحريتهم، وإنما الأمر الأخطر هو أمر « القطار» الذى وضعوا فيه؟! . .

وهل فى الكشف عن أن «التغريب» هو قرار غربى . . وإلزام غربى ـ يصل الآن إلى «حرب» تجاوزت مرحلة «التهديد» ـ . . هل فى الكشف عن هذه الحقيقة ما يستحق « التأمل» و«مراجعة المواقف»، وخاصة من قبل القطاعات الكبرى من الذين يتخذون هذا التوجه عن «اجتهاد»، وليس «لعمالة حضارية» تشدهم إلى الغرب الاستعمارى كعملاء؟! . .

إن «الحكمة: نور» . . وفى الحديث الشريف: «إن الله يحيى القلوب بنور الحكمة»[٥] . . و«الحكمة: ضالة المؤمن، أنّى وجدها فهو أحق الناس بها»[٦] . . ولعل فى هذه الحقائق من نور الحكمة ما يدعو الفرقاء المختلفين حول هذه القضية إلى الموقف الحق، والكلمة السواء! . .

---

(٥) رواه الإمام مالك فى [الموطأ] . .

(٦) رواه الترمذى وابن ماجه.

وتنوير جيل "التلاميذ"..
غربى ؟.. أم عربى ؟!

رأينـا النشأة الغـربيـة المتميزة لمصطلـح «التنويـر» ، وكيـف كان فلسفـة تصـدت ، فى القـرن الثامـن عشر، للنصرانيـة ولاهـوتها وكنيستها ، عنـدمـا تجاوزت نطاق «خـلاص الروح» وحدود « مملكـة السماء » . . فأجلى التنـوير الدين عن الدولة وسائر ميادين العمران البشرى ، واكتفى فى مرجعية الدولة والاجتماع والسياسة والاقتصـاد ومناهج النظر الفلسفـى والبحث العلمى ، بـل وفى القيم . . اكتفـى فى كل هـذه الميادين بمـرجعية « الـواقع» و«عـالم الشهادة» و«المادة» ، كمصدر للمعـرفة الحقة ، وجعل سبـل المعرفة والإدراك المعتمـدة «العقل » و«التجـريب» وحـدهما . . فنـزع الحرمة والقـداسة عـن المقدسـات الدينية فى شئون العمـران الاجتماعى ، وأحل « آلهتـه» : «العقل» و«العلـم» و«الفلسفـة» محل « الله» و«الدين» و«الكنيسـة» . . فقامت الـدولة وميادين العمران على «العلمانيـة ـ الـلادينية» ، وتـأسست الفلسفـة وارتكز البحـث العلمى على « الوضعية» ـ بمذاهبهـا المختلفة ـ . . وحبس الدين فى المعابد ومدارس الـلاهوت والعلاقات الفردية الخاصة بين مـن يؤمن والخالق الذى يؤمن به ! . .

ثـم رأينا هذا «التنوير ـ الغربى ـ العلمانى» ، عندما جاءنا فى ركاب الغزوة الاستعماريـة الحديثة . . بـل ـ بالأحـرى ـ عندمـا ألـزمنا هـذا الاستعمار ـ باعتراف الـدكتور طـه حسين ـ بـأن نسير سير أوربا فى «الحكـم» و«الإدارة» و«التشريع» . . رأيناه ، عند جيل « رواده» ، يحاول تصوير إسلامنا : نصرانية

غربية . . وخلافتنا الإسلامية : بابوية كهنوتية اغتصبت سلطان الله لتحكم فى الأرض بتفويض السماء . . ليصلوا بذلك إلى تبرير استعارة « الحل الغربى » ـ «التنوير ـ العلمانى» ـ طالما أن «المشكلة» مماثلة لتلك التى استدعت فى الغرب هذا اللون من «التنوير» . . فدعا على عبد الرازق إلى «علمنة الإسلام» والعمران ، وإلى الاقتصار فى السياسة والحكم على مرجعية العقل والتجريب . . ودعا سلامة موسى إلى أن ننسلخ من الشرق والدين ، بل وحتى من الفرعونية ، لنكون «فرنجة» فى كل شىء ، فى العقل . . والفكر . . والثقافة . . والقيم . . وطرائق العيش . . والأزياء . . باعتبار أن عقلنا إغريقى يونانى منذ نشأته . وما الشرق والعرب والإسلام إلا كارثة وجملة معترضة ، علينا أن نقتلع جذورها من كل ميادين الفكر والحياة ، بل وعلينا أن نخجل حتى من أية علاقة بها ، فجميعها لايعدو أن يكون «سخافة قبيحة ووقاحة شنيعة»!! . . ثم رأينا طه حسين يحذو ، فى الثلاثينيات ، حذو سلامة موسى فى العشرينيات ، بعد أن افتتح حياته الفكرية بنزع القداسة عن القرآن الكريم ، واتخاذ الشك الديكارتى سبيلا لتشكيك المسلمين بعقائدهم التى جاءت فى سور القرآن وآياته . .

رأينا ذلك ، فيما تقدم من صفحات هذه الدراسة . . ورأينا كيف تراوحت مذاهب هؤلاء «الرواد» بين «العمالة الحضارية» ، التى تجرد أصحابها من «الانتماء» إلى « مقومات الأمة ومكوناتها » ، فبدوا فى صورة «اللقطاء ـ الثقافيين» ، الذين يحاولون عزل الوطن بل وعزل الأمة عن «تراثها» و«جذورها» ، وأيضا عن «محيطها» ـ عزلها عن لغتها وعقيدتها . . وعن الجامعة العربية والشرقية والإسلامية ، وذلك حتى تبدو الأمة ، هى الأخرى ، فى صورة «اللقيط» ، فيلتقطها الغرب ، ويلحقها بنموذجه الحضارى إلحاق «اللقطاء» بملاجئ « الأيتام»!! . .

رأينا كيف تراوحت مذاهب «رواد التنوير الغربى» بين هذا المذهب ـ

مذهب «العمالـة الفكرية» ـ وبين مـذهب «الاجتهاد» الذى أخطـأ أصحابه طريق الحق والصواب . . فعاد منهم من انبهـر بالنموذج الغربى ، فى مرحلة نضجه عن هذا الانبهار، مع تفـاوت فى درجات العودة إلى الذات ، وتفاوت فى الإفصاح عن هذا التغيير! . .

والآن . . وبينما تقـرع أسماعنا صيحـات « التنويـر» الذى «يـواجه» بـه «جيـل التلاميـذ» ــ تلاميـذ هؤلاء « الـرواد» ــ المشروع الإسلامـى ، محاولين التصدى «بـالتنويـر ـ العلمانى» لمشروع إسـلامية الدولـة والمجتمع والثقـافة والنهضة المنشـودة . . نود أن نشير، فى إيجاز شـديد ، إلى نماذج مـن «تنويـر جيل التلاميـذ» ، لنتبين : أعربى تنويرهـم هذا؟ ـ كما يزعم بعضهـم أحيانا خوفا مـن الجماهير المنتمية بالفطرة والـوعى إلى العروبة والإسـلام ـ . . أم أنه «تنـويـر ـ غـربـى ــ علمانى» ، كـالـذى استعـاره « الـرواد» من الأسـاتـذة المتغربين؟! . .

* * *

ونحن نعلم أن الساحـة الفكرية العلمانية فى وطن العروبـة وعالم الإسلام زاخرة بالمشروعات الفكرية التى انطلق أصحابها من فلسفة «التنوير ـ الغربى ـ العلمانى» ، ليبراليين كان أصحاب هـذه المشروعات أم ماركسيين . . ونعلم أيضا أن الكثير من هذه المشروعات الفكرية تحتـاج إلى دراسات خاصة تتوفر على تقييمهـا ونقدهـا بموضـوعية وشمـول . . لكن المقـام هنا ــ من حيـث مقتضيات الحيز والغـاية ـ يدعونـا إلى اختيار نماذج شاهدة من «تنـوير جيل التلاميـذ» ، كما صنعنا مـع «جيل الـرواد والأساتـذة» ، للبرهنة على طبيعـة وهوية هذا «التنوير» الذى يقـرعون به الأسماع . . وذلك تمهيدا لبيان الفوارق الجوهرية بين هذا «التنوير ـ الغربى ـ العلمانى» وبين «**التجديد الإسلامى**» ، الذى لا بأس إن أطلـق عليه البعض«**التنوير الإسلامى**» . . حتى نصل إلى

كشـف مايقـوم بـه «تلاميـذ التنـوير» مـن «**تزوير**» يضعـون به « التجـديـد الإسلامى» وأعلامـه فى «سلة» ذلك «التنوير ـ الغربـى ـ العلمانى»، تعمية على الأمة، وتضليـلا للقراء، وخيانة لأمـانة القلم والكلمة، والميثـاق الذى أخـذه الله، سبحانـه وتعـالى، على أصحـاب القلم والكلمـة : أن «يبينـوا» للناس، ولا يكتموا الحق، بالإخفاء أو التمويه! ﴿**وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه..**﴾(١)..

إن «تلامذة التنوير ـ العلمانى»، بسبب من حدة المواجهة التى يخوضونها مع المشروع الإسـلامى للنهضـة والتغيير، لم يدعـوا مجالا للشك فى «الهويـة ـ الغربية ــ التغريبية» لهذا التنويـر الذى إليه يدعـون.. ونحن سنحتكم، فى إثبات هذه الحقيقـة ـ وإن لم تكن فى حاجـة إلى إثبات ـ إلى نصوصهـم هـم، وذلك حتى نبدد وهم التزوير الذى يحاوله بعضهـم، عندما يقول إن تنويرهم عربى.. لا غربى!..

● إن التجديد الإسـلامى ـ وإن شئت فقـل «التنوير الإسلامـى» ـ الذى يستنير أهله بنـور الإسلام.. ونـور القرآن.. ونـور الرسـول، ﷺ.. ونور الحكمة ـ يرى فى «**العقل**» سبيلا من سبل المعرفة، يستقل بإدراك أشياء، ولا يستطيع ـ كملكـة من ملكات الإنسان المحدود الطـاقات والنسبى الإدراك ـ أن يستقل بإدراك كل الأشياء.. ولذلك تتزامل وتتكامل معه سبل وهدايات أخرى ــ «**التجربة**».. و«**النقل**» الـذى يـأتـى بخبر الغيـب ونبـأ السماء و«**الوجدان**» ــ.. **أى أن للتجديد الإسـلامى منهاجا فى سُبل المعـرفة يجعلها أربـع هدايـات.. وليست فقـط، كما هو حـالها فى «التنـوير ــ الغربـى»، اثنتان؛ : «العقل» و«التجريب»..**

وهذا التجديد الإسلامى يجعل للمعرفة مصدرين «كتاب الوحى المقروء»

---

(١) آل عمران : ١٨٧ .

و«كتاب الكـون المنظور» ، بما فيهما مـن آيـات الله فى «السـور المقـروءة» وفى «الأنفس والآفاق» . . بينما «التنوير الغربى» يقـف بمصادر المعرفة عند عالم الشهـادة ، المادى ، المحسـوس ، منكـرا الاعتـداد بعـالم الغيب وأنبـائه ــ فى الوحى ـ كمصدر للمعارف والعلوم . .

ولذلك ، آخى ويؤاخى التجديد الإسلامى بين «العقل» و«النقل» . . بين « الحكمة» و«الشريعة» . . بل لقد رفض المقابلة بين «العقل » و«النقل» ، لأن المقـابـل «للعقـل» هـو « الجنـون» وليس «النقـل»!! . . ومـن هنـا كـانـت «الاستنـارة بالإسـلام» : تقـرأ «النقل» بـ «العقـل» . . وتحكـم «العقل» بـ «النقـل» . . وتوازن بين الهدايـات الأربـع ، كسبـل للمعرفـة ، وتجمـع بين مصدرى المعرفة جميعا! . .

هذا هو مـذهـب «التنوير الإسـلامى» فى مصادر المعرفـة وسبلها . . فماذا يقول «تلامذة التنوير الغربى» فى هذه القضية؟ . .

لقد عـرفوا المشروع التنويـرى للدكتـور طه حسين ، فقالـوا إنه : «**تحقيق عصر أنوار عربى ، يكون العقل فيه سيد الأحكام ، فلا ينازعه ولا ينافسه أى خصم آخر مهما كان له فى صدور الناس وأفئدتهم من إعزاز وإكرام**»[٢]! . .

فهم يعترفون بأن تنـويرهم غربى ، يجعل العقـل سيد الأحكام . . ويرون فيما عـداه «خصومـا» لا مكان لها معـه ، مهما كان لها فى صـدور الناس مـن إعزاز وإكرام . . **فنحن أمام تأليه العقل ، الـذى عبدوه إبان الثورة الفرنسية ، عندما أحلوه محل الله والدين! . .**

وهذا المذهب ، لجيل «التلاميذ» ، فى «التنوير الغربى» ، هو الذى جعله

---

(٢) انظر : سمير أبـو حمد : «مشكلة الليبرالية فى الثقافـة العربية المعاصرة» . صحيفـة [الحياة] ـ ١٣ ـ ٥ ـ ١٩٥٣م ـ .

الدكتـور مراد وهبـه شعارا للتنـوير الـذى يريـدون ، فدعـا إلى الانتقال مـن «الأسطورة» ـــ الدين ـ إلى «العقـل» ، رافعا شعار التنويـريين الغربيين : «**لا سلطان على العقل إلا للعقل**»! ! . . أى لا سلطان لديـن . . ولا وحى . . ولا نقل . . ولا وجدان . . فمطلوب من « التنويرى» ، الذى يؤمن « بالعقل» أن يكفر بماعداه! ! . . أما إذا آمن بسلطـان غير سلطان العقل فهو «مشرك» بالعقل . . أو مجنون! ! . .

وذات الصراحـة والـوضوح نجـدهما عنـد واحـد آخـر من رمـوز جيـل «التلاميـذ» ، الذى يحسـم القضية فيقـول : «**إن التجريب قـرين العقل . . والعقل نقيض النقل . . إن العقل والتجريب ـ لا النقل والاتباع ـ هما أساس المعرفة**»[3] !

فـأسـاس المعـرفـة : العقل والتجـريـب . . وعلى «التنـويـريين » الكفـر «بـالنقل» ، أى القـرآن والسنة ، والثقـافـة المستندة إليهما ، والتراث المؤسـس عليهما ، والحضارة المصطبغة بصبغتهما ! . .

هكذا يخيرنا جيل «التلاميذ التنويريين» بين «التنوير ـ الغربى ـ العلمانى» وبين الإسلام وتراثه وحضارته وثقافته ! ! . .

ونحن لا اعتراض لنا على «اختيارهم» . . فلا إكراه فى الدين . . ومن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر . . لكن الاعتراض هو على «التزوير» ، الذى جعل قائل : «إن العقل نقيض النقـل» ، يتحدث عن «تنويره» هذا بـأنه «تنويرى عربى»! ! . .

ولست أدرى كيـف يكـون «تنـويرهـم» هذا «تنـويرا عـربيا» ، بينما هـم يدعون إلى إسقاط « الهويـة» ، وهى «عربية ـ إسلاميـة» ؟ ! . . فعندما سئل

---

(٣) د . جابر عصفور: «عن التجريب والدولة المدنية» ـ صحيفة [الحياة] ـ ١٣ ـ ٦ ـ ١٩٩٣م ـ .

الكاتب نفسه عن «الهوية»، قال : «**لا ينبغى أن ننشغل بسؤال الهوية . . فلا أحد يشغل نفسه بسؤال الهوية القومية**»[٤] .

والسؤال هو : هل يعنى إسقاطهم للهوية العربية الإسلامية « أن لا أحد يشغل نفسه بسؤال الهوية»؟! . . أم أن هذا السؤال، والإجابات عليه، هى محور اهتمامات الدنيا وصراعاتها فى هذا العصر الذى نعيش فيه؟! . .

إن وضوح تعريفهم للتنوير الذى يريدون، لا يدع مجالا لأى شك فى أنهم يريدون «التنوير - الغربى ــ العلمانى»، الذى يؤله العقل وحده، مسقطا «أى مؤثر خارجى . . أو مرشد . . أو موجه» من خارج العقل على فكر «التنويريين» . . ففى تعريفهم للأعمال الفكرية التنويرية، يقولون: «**إن الإنسان الذى توصف أعماله بأنها تنويرية هو ذلك الإنسان الذى يستخدم عقله دون مؤثر خارجى أو بغير مرشد أو موجه . . فيما يقوم به من عمل . .**»[٥]!

تلك هى «الهوية الغربية» للتنوير الذى يدعو إليه جيل «التلاميذ»، محتذين فيها حذو جيل «الرواد»! . .

● وإذا شئنا نماذج تطبيقية لما صنعه هذا «التنوير - الغربى ــ العلمانى» بالإسلام، فى المشروعات الفكرية لجيل «التلاميذ» ، بعد أن قدمنا نماذج من فكر جيل «الرواد» ، فإننا سنتخير معالم وإشارات ذات دلالة على ماذا صنع هذا التنوير الغربى العلمانى بإسلامنا فى أعمال هؤلاء «التلاميذ» . . ومراعاة للحيز والمقام سنقف عند نماذج ثلاثة:

---

(٤) د . جابر عصفور - حوار - صحيفة [الحياة] - ٥ - ٥ - ١٩٩٣م .

(٥) سامح كريم: « التنويريون العرب قديما وحديثا» - مجلة [العربى]، عدد مارس، سنة ١٩٩٣م.

١- تفريغ الإسلام من محتواه

للدكتور حسن حنفى مشروع فكرى كبير ومتميز. . صدر فيه حتى الآن عدد كبير من المجلدات. . ولقد حدثنا فى التقديم له عن أنه قد اختار إخراجه فى صورة مشروع ابن خلدون [٧٣٢ ـ ٨٠٨هـ ، ١٣٣٢ ـ ١٤٠٦م]: مقدمة، توجز فلسفته ومقاصده. . وأجزاء تفصل هذه الفلسفة وتبسط هذه المقاصد. . وحرص أيضا على أن ينبهنا على الفارق بين مشروعه وبين مشروع ابن خلدون. . فمشروع ابن خلدون كان عن «الانهيار» الحضارى، بينما مشروع الدكتور حسن هو « عن النهوض» (١) . .

ولما كان قد صاغ فى مقدمته، التى طبعها بعنوان [التراث والتجديد] ، مذهبه . . ووضع فيها «المقدمات النظرية للمشروع كله»(٢) . . فستكون وقفتنا عند هذه المقدمة. . أى عند كتابه [التراث والتجديد] . .

وإذا نحن شئنا إيجازا للمشروع الفكرى للدكتور حسن حنفى، من خلال كتابه هذا، الجامع «للمقدمات النظرية» لمشروعه كله. . فإننا نقول :إنه محاولة لـ «أَنْسَنَة» الدين، وتفريغه من محتواه، وذلك بإلغاء «ثوابته» و«مطلقاته» و«مقدساته» ، من «الله» إلى «النبوة» إلى «الرسالة» إلى «الوحى» إلى الغيب. . إلغاء كل ذلك. . بإعطائها مضامين ومفاهيم إنسانية. .

---

(١) [التراث والتجديد]، ص ٢١٦ . طبعة القاهرة، سنة ١٩٨٠م.

(٢) المرجع السابق. ص ٢١٦.

أرضية . . أى إلغاء الغيب كمصدر للمعرفة ، وقصرها على عالم الشهادة ، وقصر سبل هذه المعرفة على «العقل» و«التجريب» وحدهما . . أى إلغاء كل ما يجاوز الحس والمشاهدة ، وتأويل وتفسير كل ما له علاقة بالدين والغيب والألوهية والنبوة والرسالة والوحى على النحو الذى «يُؤَنْسِنُه» ويجعله إفرازا بشريا . .

فنحن ، إذن ، بإزاء استعارة لفلسفة « التنوير - الغربى ــ العلمانى» يريد الدكتور حسن أن يتعامل بها مع الإسلام ، كما تعامل التنويريون الغربيون مع النصرانية الأوربية إبان النهضة الأوربية الحديثة . .

فكيف تعامل الدكتور حسن مع الإسلام بهذه الفلسفة التنويرية وبمنهاجها فى التعامل مع الدين؟! . .

● يشبه الدكتور حسن حنفى « التراث» بـ «المخزون النفسى» . . وينتقد مذهب الذين يكتفون به . . ومذهب الذين يكتفون بالجديد ــ الاكتفاء الذاتى للتراث . . والاكتفاء الذاتى للجديد - ويقدم مذهبه هو فى التعامل مع هذا « المخزون النفسى» - التراث - مذهب «التراث والتجديد» ، فإذا به تصفية لهذا المخزون ، وتبخير له ، وتخلص منه ، لا «برفضه» ــ كما يصنع أنصار «الاكتفاء الذاتى بالجديد» - ، وإنما بإعادة تفسيره التفسير الذى يجعله مساويا تماما لـ« جديد» أنصار «الاكتفاء الذاتى بالجديد» [٣]!! . .

فهو يلغيه ويصفيه ، لكن باسمه ، وبلغته ، وتحت مظلته . . وهذا منهاج أذكى ــ ولا نقول «أخبث»! - فى التعامل مع هذا «المخزون»! . . لأنه سبيل «غير مباشر» فى التصفية والإلغاء . . أما الهدف والغاية فلا مساومة فيها . . «فمهمة التراث والتجديد هى التحرر من السلطة بكل أنواعها ، سلطة الماضى ، وسلطة الموروث ، فلا سلطان إلا للعقل ، ولا

---

(٣) المرجع السابق . ص ٢٨ .

سلطـة إلا لضرورة الواقـع الذى نعيـش فيه، وتحريـر وجداننـا المعاصر مـن الخوف والـرهبـة والطـاعـة للسلطـة، سـواء كـانـت الموروث أو سلطـة المنقول»[٤]! . .

هنا تطالعنا « آلهة التنوير الغربـى » ، التى جاء بها الدكتور حسن ليحلها محل « الموروث» ــ كـل الموروث ــ «فلا سلطـان إلا للعقـل، ولا سلطـة إلا لضرورة الواقع الـذى نعيش فيه»!! . . ـ «العقـل» و«المادة» ـ ! . . والتحرر المطلوب هو مماعدا ذلك ، وخاصة « سلطة الموروث والمنقول»! . .

● وعلى درب التفسير والتأويـل لهذا الموروث ـ بـألوانـه المختلفة ــ ذهـب الدكتـور حسن مذاهـب إن أضحكت الجمهور وأبكتـه، فإنها ستذكـر أهل العلم بمذاهـب غلاة الباطنية القدماء، الـذين حولوا كل ظاهـر إلى باطن، وكل واقع إلى خيال ومثال. . وبمذاهب التنويريين الغربيين الذين «أَنْسَنُوا» ـ بمذاهبهم الوضعية ـ كل الإلهيات! . .

ففى تفسيرات وتأويلات مذهـب «التراث والتجـديد» : يتحول « الدين» إلى «أيديولوجية»[٥]. . ويتحـول « الإسـلام» إلى «تحرر»[٦]. . بل ويتحـول «الله» ــ تعـالى الله عما يصفـون ــ إلى : «الأرض ــ والخبـز. . والحريـة. . والعدل. . والعتاد. . والعـدة. . والقوة». . «فالله ـ [بنـص عبارة «التراث والتجديد» ـ لفظة نعبر بها عن صرخات الألم وصيحات الفرح، أى أنه تعبير أدبى أكثر منه وصفا لواقع، وتعبير إنشائى أكثر منه وصفا خبريا»[٧]! ! . .

ولذلك، فـإنه ـ ضمن مهـام « التجديد اللغوى المطلـوب ـ يجب التخلى عـن ألفاظ ومصطلحـات كثيرة، مـن مثل : «الله» و«الـرسـول» و«الديـن» و«الجنة» و«النار» و«الثـواب» و«العقاب». . إلـخ». يجب التخلى عن هـذه

---

(٤) المرجع السابق. ص ٥٥ .　　(٥) المرجع السابق. ص ١٣٠ .
(٦) المرجع السابق. ص ١٣٢ .　　(٧) المرجع السابق. ص ١٢٨ ، ١٣٠ .

الألفـاظ « فى علـم أصـول الـديـن ، **لأنها قطعيــة . . ولأنها تجاوز الحس والمشاهدة . . ولأنها تشير إلى مقولات غير إنسانية»** [8]!! . .

فكل ما يجاوز «الحس والمشـاهدة» ، وكل ما لا «يتأنسـن» ، يجب تأويله وتحويله . . بل والتخلى عنه وإلغاؤه!! . .

● وبما أن حضـارتنـا وتراثنـا ومنهجيتنـا كـانـت تولِّى وجههـا شطـر الله والسماء ، فإن عليهـا ـ فى مذهـب «التراث والتجديد» ـ أن تدير ظهـرها لله والسماء ، وتتمركز حول الإنسان . . وفى ذلك يقول الدكتور حسن : **«وما زلنا نحن ، فى واقعنا المعاصر، يتمركز فكرنا القومى على الله ، ولم نطور المكتسبات الإنسانية فى تراثنا القديم ، بالرغم مما نحن فيه من مآسى الإنسان ، التى كان يمكن أن تجعله محورا أساسيا فى فكرنا القومى . . »** [9].

أمـا كيف نحقـق مـذهـب «التراث والتجـديد» ، فى تـركيـز الفكر حـول «الإنسـان» بدلا مـن «الله» ، فبـوضع «الإنسـان الكـامـل» موضـع «الله» ، وتحويل أسماء الله وصفاتـه إلى الإنسان . . **«فالانتقال من «الله» إلى «الإنسان الكامـل» يعبر عن مضمـون «الله» ، فكل صفـات الله : العلم ، والقـدرة ، والحيـاة ، والسمـع ، والبصر، والكـلام ، والإرادة ، كلهـا صفـات الإنسـان الكامـل . وكل أسماء الله الحسنـى تعنى آمـال الإنسان وغـاياتـه التى يصبـو إليها . «فالإنسان الكامل» أكثر تعبيرا من لفظ «الله» . . »** [10].

ففى مذهـب « التراث والتجديد» ، لن نخسر شيئـا إذا نحن ألغينا «الله» ووضعنا مكـانه «الإنسـان الكامـل» ، لأن الأسماء والصفات ، التـى وصف الدين بها الله ، مـاهى إلا «صفات الإنسان الكامـل . . وآماله وغايـاته التى

---

(٨) المرجع السابق . ص ١٢٤ ، ١٣٧ ، ١٣٩ ، ١٤٤ ، ١٤٥ .

(٩) المرجع السابق . ص ١٨٥ .

(١٠) المرجع السابق . ص ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٦ ، ١٥٣ ، ١٥٤ .

يصبو إليها»! . . فهذا « الانتقال» و«الإلغـاء» و«الإحلال والتبديل» ، إن هو إلا «التصحيح» الذى يكتشفه لنـا «التنوير ـ الغربى» ، فى صـورته التى جاء بها الدكتور حسن حنفى ! . .

ولذلك ، فإن « التراث والتجديد» ـ كعملية معرفية ـ ومنهجية فى التعامل مع الموروث «لا تتحدث عن الأشيـاء فى ذاتها ، مثل « الله» . . بل إن التراث والتجديد يتعامل مـع العالم الإنسانى وحده [11] . . وهو دعـوة إلى الانتقال من العقل إلى الطبيعة ، ومن الروح إلى المادة ، ومن الله إلى العالم ، ومن النفس إلى البدن ، ومن وحدة العقيدة إلى وحدة السلوك . . »[12].

فما وراء المادة والإنسـان : وهـم . . والمطلـوب ــ فى مـذهـب «التراث والتجـديد» ــ هـو التحول عـن هـذا «الوهـم» إلى حقيقـة العالم والإنسـان وحدها ! . .

وإذا كان «الله» ـ فى مـذهب حسن حنفى ـ «لفظـة . . وتعبيرا أدبيا أكثر منه وصفـا لواقـع . . وتعبيرا إنشائيا أكثـر منه وصفا خبريـا» ، فإن «الـواقع» و«الخبر» هو « الإنسان» . . وما «الله» إلا وعى الإنسان بـذاته «مدفوعا خارج العـالم بعيدا عـن الإنسان ، منفصـلا عنـه . . وما صفـاته وأسماؤه إلا آمـال الإنسان وغاياتـه التى يصبو إليها . . فالحقيقة هى الإنســان ، والواقع الذى يعيش فيه . . فقط لا غيرا . .

● وكما اقترح مـذهـب «التراث والتجـديـد» التحـول مـن «الله» إلى «الإنسان» ، بـإحلال «الإنسـان الكامـل» محل «الله» . . كذلـك يقترح بناء جـديـدا للعلوم . . فعلـوم العقيـدة التـى تتحدث عـن «الله» و«الإنسـان» مطلوب إعـادة بنائها لتكـون ثنائيتهـا « العالم» و«الإنسان» ، بـدلا من «الله» و«الإنسـان» . . «فكـل مسـائل علـم الكلام التـى ظهـر فيهـا الله كطـرف

(١١) المرجع السابق . ص ٧٠ .   (١٢) المرجع السابق . ص ٦١ .

للإنســان ، مثل الجبر والاختيار، والحســن والقبح ، والـوعد والوعيـد ، فهى مسائل مـوضوعة وضعا خـاطئا ، **لأن الله ليس طـرفا فى فعـل الإنسان ، بـل العالم** ، والحسن والقبح يحددان علاقة الذات بالموضوع وليس علاقة الموضوع بالله ، والوعد والوعيد يحددان آثار الفعـل فى هذا العالم ، وليست آثاره المترتبة عليه فى عالم آخر[١٣] . . إن طريقة العرض القديمة ـ فى الموضوعات الكلامية ـ تجعل الله طـرفا فى كـل مشكلـة ، ويكون مـع الإنسان : الله المشخـص ، المريد ، الفـاعل ، العـاقل ، القادر . إلـخ . . ولكن التوحيـد ذاته مـوضوع مستقل بذاته . **فالتوحيـد يعنى : وحدة البشرية ، ووحدة التـاريخ ، ووحدة الحقيقة ، ووحـدة الإنسان ، ووحدة الجماعـة ، ووحدة الأسرة . . فالمهـم هو إيجاد الدلالـة المعاصرة للموضـوع القديم ، وتخليصـه من شـوائبه اللاهـوتية والتاريخية والنظريـة ، وإعادة وضع المشكلة الوضع الصحيـح ، وهو الوضع الإنسانى والاجتماعى** . وتكون مهمتنا ، مثلا ، فى إعادة بناء التوحيد التقليدى هى التركيز على التـوحيد كعملية توحيديـة ، وعلى الحرية كعملية تحرر ، وعلى العقـل كعملية تنـويـر ، وعلى العمل كعمليـة تحقيـق وتغيير شامـل ، وعلى الشورى لتغيير النظـم التسلطية ، وعلى الطبيعة مـن أجل إدخال بعـدها فى الشعـور المعـاصر ، وعـدم الاستنكـاف منهـا بنـاء على عـواطـف التطهـر والتطهير . . »[١٤] .

فالمطلوب : علم تـوحيد ، بلا « إله» وبلا «عقيدة» ـ وتلك دلالة اختيار الدكتور حسن لمشروعه عنوانا هو «**من العقيدة إلى الثورة**» . . فالغاية : علم توحيد أرضى إنسانى ، لا علاقة له بالله أو الدين أو السماء ! ! . . وليس ذلك بالغريـب فى مذهب «التراث والتجديد» . . فـإذا كان «الله» مجرد تعبير أدبى وإنشائى . . « فليـس للعقائد صـدق داخلى»[١٥] ! . . «ولا يوجـد دين فى ذاته»[١٦] ! . . «والـوحى ليـس دينا ، بـل هو البنـاء المثالى للعـالم» ![١٧] . .

---

(١٣) المرجع السابق . ص ١٧٥ .
(١٤) المرجع السابق . ص ١٧٦ ، ١٧٧ .
(١٥) المرجع السابق . ص ٦٦ .
(١٦) المرجع السابق . ص ٢٢ .
(١٧) المرجع السابق . ص ١١٤ .

ولا يحول دون ذلك أن «التراث قد نشأ من مركز واحد، وهو **القرآن والسنة . . فهذان المصدران لا تقديس لهما**، أو للتراث، بل هو مجرد وصف لواقع»[18]! . . «والتراث قضية وطنية لا دينية»![19] . . «**ومادة التراث نسقطها كلها من الحساب، ونستبدل بها مادة أخرى جديدة من واقعنا المعاصر**»[20]! . .

فالغاية، فى مذهب «التراث والتجديد»، هى تحويل «العلوم الإلهَية» ـ بعد إلغاء «الله»، وإحلال «الإنسان الكامل» محله ـ . . هى تحويل «العلوم الإلهَية» و«الوحى الإلهَى» إلى «**علوم إنسانية محكمة**»، وذلك تمهيدا لتحويلها إلى «**أيديولوجية**» أى فكرية وضعية لا علاقة لها بالدين والوحى والله والسماء. . وبنص عبارة الدكتور حسن، فإن « التراث والتجديد هو تحويل العلوم العقلية القديمة إلى علوم إنسانية، وأن يصبح الكلام والفلسفة والتصوف والأصول، كل منها علما إنسانيا[21]. . وإذا كان التراث قد أعطانا علوما عقلية، عبر فيها عن آخر ما وصلت إليه قدراته من تعقيل للنص، وتنظير للوحى، وإذا كان التجديد باستطاعته تحويل هذه العلوم التقليدية إلى علوم إنسانية، فإن العصر الحاضر يود القيام **بخطوة أكثر تقدما، وهى تحويل العلوم الإنسانية، وريثة العلوم التقليدية، إلى أيديولوجية، وتلك هى الغاية القصوى من «التراث والتجديد»** . . التراث والتجديد، فى النهاية، إن هو إلا تحويل للوحى من علوم حضارية إلى أيديولوجية، أو ببساطة: **تحويل الوحى إلى أيديولوجية**[22]. . **تحويل الوحى ذاته إلى علم إنسانى** . . »[23]!!

---

(١٨) المرجع السابق. ص١٧٧ . (١٩) المرجع السابق. ص ٢١ .
(٢٠) المرجع السابق. ص ١٧٣ . (٢١) المرجع السابق. ص ٢٠٢ .
(٢٢) المرجع السابق. ص ٢٠٣ . (٢٣) المرجع السابق. ص ٢٠٨ .

وهـذه المهمـة، التـى يتصـدى لها الدكتـور حسـن، بمـذهـب «التراث والتجـديـد»، لم يتطلع إليهـا، فى الـواقـع الإسـلامـى، أحد مـن قبـل . . «فالحركات التجديـدية المعاصرة . . حاولت إعادة بنـاء العلوم التقليدية، فى صورة جـزئية، لأنها كـانت دعـوات «إصلاحيـة» أكثر منهـا دعوة للبحـث الخالـص . . لقـد تنـاولـت بعض أجزاء هـذه العلـوم، دون أن تتنـاولها فى جملتها . . مثـل محاولة إعادة بنـاء علم أصول الديـن فى [رسالة التـوحيد] ـ للشيـخ محمـد عبده ـ ومحاولـة إعـادة بناء الفكر الفلسفـى فى [الـرد على الدهريين] ـ للأفغانى ـ . . . »[٢٤] .

أمـا مشروع الـدكتـور حسـن، فلأنـه «ثـورى»، لا يقـف عنـد حـدود «الإصلاح»، فـإنه هو الذى سيغير «طبيعـة» هذه العلوم تغييرا جـذريا . . سينتقل بها من إطار «العلوم الإلهية» إلى إطار «العلوم الإنسانية» وذلك تمهيدا لتحويلها إلى «أيديولوجية ـ وضعية» لا علاقة لها بالألوهية أو الدين ! ! . .

وعنـدمـا يتحقـق مشروع الـدكتور حسـن حنفـى . . فـإننـا سننتقـل إلى أيديولوجية جديدة، تجعلنا لا نخاف ـ كما يقول صاحب «التراث والتجديد» ـ من العلمانية . . «**فالعلمانية هى : رجـوع إلى المضمون دون الشكل، وإلى الجوهر دون العـرض، وإلى الصدق دون النفـاق، وإلى وحدة الإنسـان دون ازدواجيتـه، وإلى الإنسان دون غيره. فـالعلمانية إذن هـى أسـاس الوحـى، فالوحى علمانى فى جوهره، والدينيـة طارئة عليه من صنع التاريخ، تظهر فى لحظات تخلف المجتمعات وتوقفها عن التطور** . . »[٢٥] ! !

فـلا خشيـة مـن العلمانيـة، لأنها إلغـاء « للـدينيـة» وعـودة «للـوحـى العلمانى» ! ! . . و«الوحى ـ فى «التراث والتجديد» ـ ليس دينا، بل هو البناء المثالى للعالم»[٢٦] ! . . فالعلمانيـة، إذن، ستعود بنـا عن هـذا «البناء المثـالى

---

(٢٤) المرجع السابق. ص ١٧٥ .   (٢٥) المرجع السابق. ص ٦٩ .
(٢٦) المرجع السابق. ص ١١٤ .

للعالم، الذى لا علاقة له بالدين، كما جاء به الوحى، ولا بالوحى كما يفهمه المتدينون بالأديان!!..

بل ولن يكون هناك يومئذ ــ يوم تتحول العلوم الإلهية إلى أيديولوجية وضعية إنسانية ـ لن يكون هناك خوف حتى من «الإلحاد»، وليس فقط «العلمانية». «**فالإلحاد ــ فى مشروع الدكتور حسن ــ هو: التجديد.. هو التحول من القول إلى العمل، ومن النظر إلى السلوك، ومن الفكر إلى الواقع.. إنه وعى بالحاضر.. ودرء للأخطار.. بل هو المعنى الأصلى للإيمان..**»[27]!!..

فبالتراث والتجديد، لن يكون هناك خوف من العلمانية.. ولا من الإلحاد، فهما «الوحى» و«الإيمان» فى عرف صاحب هذا المشروع، الذى لا أظن أحدا من غلاة التنويريين الغربيين قد قال أكثر من هذا الذى قال، فى «مقدمته» الصغيرة، لمشروعه الفكرى الكبير، الذى تغيا به «نهوضنا» الجديد المنشود.. **لقد بلغ الرجل قمة المصارحة والتحديد فى تلخيص مذهبه فى «التجديد» عندما قال: «إن الإلحاد هو التجديد.. وهو المعنى الأصلى للإيمان»** [؟؟؟!!!]...

* * *

بقى أن أقول ــ للتاريخ ـ إننا عندما صدر كتاب الدكتور حسن حنفى [التراث والتجديد] سنة ١٩٨٠م.. اجتمعنا ـ مجموعة من المفكرين ـ به فى جلسة نقدية لهذا الكتاب ـ بمنزل الصديق الأستاذ المستشار طارق البشرى ـ.. ولقد توليت أنا عرض هذه الملاحظات النقدية على الكتاب.. ولم يشأ الدكتور حسن، يومها، أن يجيب على تساؤلات الحضور. إلا بابتسامة، قال لى معها:

ـ هوّ انت كشفت الموضوع؟!..

فلما استأذنته أن أكتب عن الكتاب، رجانى ألا أفعل، وقال:

---

(٢٧) المرجع السابق. ص ٦٧.

ـ لقد طبعته بحروف صغيرة حتى لا يستطيع « المشايخ» قراءته!! . .

وتوالى منذ ذلك التاريخ صدور أجزاء «المشروع التنويرى» ، الذى عرضنا لمقاصده ، ولآلياته ، فى هذه الصفحات! . . مشروع «تصفية المخزون النفسى ـ التراث ـ كل الموروث ـ » باسمه . . وتحت مظلته . . وبذات اللغة المستخدمة فيه ، وذلك بتجريده من محتواه ، مع الاحتفاظ بالقوالب ، التى يُصَبّ فيها أى شىء سواه ! . .

* * *

ومع هذا «العبث ـ التنويرى» ، الذى تجاوز به الدكتور حسن حنفى حدود «المعقول . . والمقبول» ، فإن للدكتور حسن ميزة على «التنويريين ـ المتغربين» . . فهو داعية لاستقلالنا الحضارى ، ومناضل ضد التغريب والإلحاق الحضارى والتبعية . . ولذلك ، فنحن نسأله ـ من موقع الود والأمل :

إذا كنت ـ بمشروعك فى «التراث والتجديد» ـ تجرد الإسلام من محتواه الدينى والإلهى . . أى من الثوابت والمطلقات . . ألا يُسَهِّل هذا على «التغريب» مهمة «الاجتياح» لهذا الحصن الذى حفظ ويحفظ لنا وعلينا الاستقلال ، وضمن ويضمن لنا الاستعصاء على التبعية والذوبان؟! . .

إنك إذا حَوَّلت إسلامنا إلى «علمانية . . وإلحاد» ، فما الذى يبقى مميزا لعقيدتنا عن الأيديولوجية الغربية « المادية . . الإلحادية . . العلمانية»؟! . . وما المبرر للدعوة إلى التمايز الحضارى عن النموذج الحضارى الغربى؟!

إن مشروعك ـ فى «التراث والتجديد» ـ إنما يفتح ، عمليا وواقعيا ، الثغرات للاجتياح التغريبى . . فكيف يتسق مع مقاومتك المعلنة للتبعية والتغريب والإلحاق؟! . .

فهل هناك أمل فى «مراجعة شجاعة» تعيد الموقف الفكرى إلى الإتساق؟! . .

٢ - مركسة الإسلام

لم تنحسر مخاطر «مركسة» الإسلام بـالسقوط المدوى للمنظومة الماركسية، وأحـزابها ونظمها وحكـوماتها، فى بـداية عقـد التسعينيات مـن هذا القـرن العشرين . . فكثيرون مـن الماركسيين يكابرون فيـزعمون أن الذى سقـط هو «التطبيـق السوفيتـى» للماركسيـة، وليست الماركسيـة هـى التى سقطـت، وبخاصة منهجها المادى الجدلى، فى تفسير الـوجود، والمادى والتاريخى، فى تفسير التاريخ! . . مع أن سقوط «التطبيق السوفيتى» إنما حدث لفرط تطبيقه للمادية الجدلية والتاريخية فى كل ميادين الحياة، الأمر الذى نقل مصادمة هذه المادية لفطرة الإنسان إلى كل ميادين الحياة، فكان الخواء، والقنوط من الغد، وموت الإبداع الفـردى، «والتقولب» المميت، بعـد «تصلب» شرايين الروح الإنسانيـة فى تلك المجتمعـات! . . فالسقوط كـان للماركسية قبـل أن يكون «للتطبيق السوفيتى»! . .

ثـم إن الكثير مـن الماركسيين، بعـد سقـوط مشروعهـم «السيـاسـى» و«الاقتصـادى»، قد انسحبوا، بتكوينهم المادى المعادى للدين . . وهم فى حالة استنفار ـ بل وسعار ـ ضـد الإسلام، بسبب تعاظم الصحوة الإسلامية المعاصرة . . انسـحبوا، بعد سقـوط مظلتهـم «الشـمولية»، فاتخذوا مواقعهم تحت مظلـة «الليبرالية»، التـى كـانـوا يكيلون لها الاتهامـات!! . . وذلـك للجـامع الـذى يجمعهـم الآن والغرب الليبرالى ـ جامـع العـداء للإسـلام ـ والحديث عنـه «كالخطـر الأخضر» الذى حـل محل «الخطر الأحمر»، والعـدو

الجديد بعد سقوط «إمبراطورية الشر الشيوعية»! . .

ولقد تلقف الغرب الليبرالى، والحكومات التابعة له هذه الفلول الماركسية . . فهى قد غدت «مؤتمنة» بعد سقوط مشروعها، كحال «الطواشى والخصيان» فى «الحريم»!! . . ولم يبق من مشروعها القديم إلا الفكر المادى، الذى يمكن توظيفه ضد الإسلام ومشروعه فى النهضة والتغيير . . وهكذا «وظف» الماركسيون، و«وظفت» ماركسيتهم وماديتهم، ودربتهم فى الجدل، وعمق عدائهم للدين . . وظف ويوظف كل ذلك فى المواجهة التى صعدها ويصعدها الغرب الليبرالى والحكومات التابعة ضد الإسلام واليقظة الإسلامية المعاصرة! . .

فلم تسقط ولم تنحسر مخاطر «مركسة الإسلام» مع ما حدث للمنظومة الماركسية دوليا، من سقوط! . .

والناظر، فى الواقع العربى، إلى «المشروعات» المادية «لمركسة الإسلام»، يستطيع أن يرصد العديد من هذه «المشروعات»، على تفاوت فى حجمها وفى «فجاجتها» عندما حاولت، بقسر غير مألوف فى الأنساق الفكرية، أن تصب «الدين» فى قوالب «الإلحاد»، وتدفن «الروح» فى قبر «المادة»!! . . فهناك من هذه المشروعات :

● مشروع الدكتور الطيب تزينى . . عن التراث . . ومحاولة اختزاله فى «الثورة» . .

● ومشروع حسين مروة . . عن النزعة المادية فى الفلسفة الإسلامية . .

● ومشروع الدكتور محمود إسماعيل، لاختزال الإسلام فى البعد الاجتماعى الثورى ـ سوسيولوجيا الإسلام ـ . .

ونحن نعتقد أن كل مشروع من هذه المشروعات يحتاج إلى دراسة . . أو إلى باب كبير فى دراسة تشملها وتغطيها . . ولذلك مقام غير هذا المقام المحدود

الذى نحن فيه . . والذى يناسبه «مثل» نضربه على هذا المنهاج الذى يحاول أصحابه «مركسة الإسلام» . .

ولذلك ، فإن المثل الذى سنختاره لن يكون واحدا من هذه المشروعات الكبرى ، وإن جمع كل خصائصها ، ولن يكون من المشروعات الماركسية المشهورة فى دوائر الفكر والثقافة والإعلام ، لنقيم الدليل على أن خطر هذا المنهاج على الإسلام ليس وقفا على النماذج المشهورة فى عالم الثقافة والإعلام . . فكثيرة هى المشروعات التى تعمل على «مركسة الإسلام» فى المدرجات الجامعية ، «تفرض» هذا المنهج على أبنائنا وبناتنا فرضا ، ولا تترك لهم حرية الاختيار ـ كما هو الحال مع المشروعات المعروضة فى عالم الثقافة والإعلام ـ ! ! . . بل و«تفرضه» فى التوقيت والسن العمرية التى لا يستطيع فيها الطلاب «المقاومة» ، لـ «طراوة» العود الفكرى ، و«رخاوة» البديل الثقافى ، وضعف «المناعة» فى محيط تسيطر العلمانية على مؤسساته الثقافية ، ويساق فيه المشروع الإسلامى إلى «قفص الاتهام» ! ! . . وتخلو فيه أغلب الجامعات من التدريس الجاد للثقافة الإسلامية ! ! . .

فى هذه الدوائر . . وهذا المناخ . . وتلك الملابسات ، «تُفْرَض» فى الجامعات ، و«تُقَرَّر» على أبنائنا وبناتنا «مشروعات» كثيرة «لمركسة الإسلام» . . ومنها سنختار النموذج الذى نضرب به المثل . . وهو نموذج ربما لم يسمع به أحد فى دوائر الثقافة والإعلام . . بل ولم أسمع به أنا قبل قراءة الكتاب الذى جسد هذا «المشروع» ! . .

* * *

وعنوان هذا الكتاب هو [القرآن وعلومه فى مصر] ـ فى المدة من سنة ٢٠ هـ حتى سنة ٣٥٨م [١] ـ . . وهو ـ فى الأصل ـ رسالة دكتوراه من كلية

(١) للأستاذ الدكتور عبد الله خورشيد البرى . وطبعة دار المعارف ـ القاهرة ـ سنة ١٩٧٠م .

الآداب، جامعـة القاهرة، قسم اللغـة العربية ــ مدرسة الدكتـور طه حسين الفكرية!! . . وهـذه الرسالة أعـدت وأجيزت فى الستينيات، وقدمهـا كتابا مطبوعا أستاذ جليل، بعثى الأيديولوجية[٢]، وصديق حميم للأستاذ ميشيل عفلق . .

وفى هذا الكتاب ــ الذى تقرب صفحاته من الخمسمائة ــ يعرض المؤلف «للمدرسة المصرية» فى قراءة القرآن وتفسيره . . أمـا منهاج مركسة الإسلام ـ وهو الذى يهمنا أن نشير إلى معالمه ونماذجه هنا ـ فمكانه البابان الأول والثانى من الكتاب . .

وأنا لن أقف عند تركيز المؤلف الأضواء على الإسرائيليات التى تشكك فى النص القرآنى، وهى روايات آحاد، معلولة أو شاذة بمعايير الرواية والدراية سندا ومتنـا . . فى الوقـت الذى يشكـك فيها ينقضها، بحجـة أنها روايات آحاد!! . .

ولن أقف عند خلـو الكتاب ـ وهو عن القرآن ـ مـن «الصلاة»، ولو مرة واحدة، على النبـى، الذى جاء بهذا القـرآن، ﷺ !! . . فتلك أمـور سنها الزنادقة قديما وجمهور المستشرقين فى العصر الحديث! . .

ولكنى سأقـف فقط عند نموذج المؤلـف فى «مركسة الإسلام»، قـرآنا . . ودعوة . . ودولة . . وتجربة صنعها الرسول، ﷺ، وصحابته لإقامة الدين فى واقع الحياة . .

● إن الماركسيـة ـ وهـى التى «ألهت» المادة . . وأنكـرت الألـوهية والنبـوة والرسالـة والوحى والديـن . . وكل ماوراء المادة . . حتى جعلـت كل الفكر انعكاسـا للمادة وثمرة لنشاطها! ــ إن هذه الماركسيـة، فى هذا الكتـاب، **قد اختزلت الإسلام فى «الثورة» . . فهـو «مجرد ثورة»، على سبيل الحصر، ولا أثر**

---

(٢) هو المرحوم الأستاذ الدكتور عبد العزيز الأهوانى .

فيه للدين ! ! . . وبالحرف الواحد يقول هذا الكتاب ــ [وهو عن القرآن وعلومه ! !] ـ : « إن الدين الجديد ليس سوى ثورة شاملة تتناول بالتغيير والتطوير كل شئون الحياة . . » . . ودخول الناس فى الإسلام ، وإيمانهم به ، لا يعدو أن يكون «الانضمام إلى الثورة»[3] ! . .

● والقرآن الكريم ، لا أثر فى هذا الكتاب على أنه وحى إلهى ، والمعجزة المصدقة لرسول الإسلام ، ﷺ ، التى تحدى بها قومه والعالمين . . لا أثر لشىء من ذلك . . إنه فقط «كتاب الثورة» . . وبنص المؤلف « فإن القرآن هو كتاب هذه الثورة المعبر عنها . . [4] إنه كتاب الثورة الإسلامية الكبرى[5] . . والمصدر النظرى الأول[6] . . وكتاب العربية الأقدس[7] . . ومصدر المعرفة بنظرية الثورة . . »[8] ! !

● ونبى الإسلام ورسوله ــ الذى لم يصلّ عليه المؤلف فى كتابه مرة واحدة ! ! ــ لم يحدث أن أشار إليه بما يقرنه بصدق النبوة والرسالة والوحى . . بل قدمه مجرد مصلح اجتماعى . . فعمله ـ بنص الكتاب ـ « لم يكن سوى إعادة بناء شخصية الفرد العربى ، وإعادة تخطيط المجتمع العربى . . » [9] ! ! . . هكذا على سبيل الحصر . . و « اليقين » المادى الماركسى ! ! . .

● وإذا كان الإسلام «مجرد ثورة» . . والقرآن «كتاب نظرية الثورة» . . والرسول هو القائم على «إعادة بناء الشخصية العربية ، وإعادة تخطيط المجتمع العربى» . . فإن التدين بالإسلام لم يكن يعنى سوى «الانضمام إلى الثورة . . » . . والصحابى «مصعب بن عمير» عندما دخل فى الإسلام ، فإنه قد «تخلى عن الأرستقراطية ، وانضم إلى الثوار ، يقاسمهم قسوة النضال ،

---

(٣) [القرآن وعلومه فى مصر] ، ص ١٠٩ .
(٤) المرجع السابق . ص ١٠٩ .
(٥) المرجع السابق . ص ٥ .
(٦) المرجع السابق . ص ١٠٨ .
(٧) المرجع السابق . ص ٦ .
(٨) المرجع السابق . ص ١١٦ ، ١١٧ .
(٩) المرجع السابق . ص ١١٣ .

ويدعو إلى الإسلام، ويقرئ الرفاق الجدد القرآن، ثم ضحى بحياته بعد أن ضحى بطبقته فى سبيل الثورة»[10]!!..

وكذلك الصحابة، الذين آمنوا بالإسلام، وتفقهوا فى القرآن، ومثلوا شريحة «القراء» ـ علماء تلك الفترة الأولى من حياة الدعوة ـ .. هؤلاء كانوا، عند المؤلف: «**القراء المستنيرين الذين بادروا بالانضمام إلى الثورة، متخلين فى بعض الحالات عن طبقتهم، يعيدون إلى الذهن ما يلحظ فى الثورات الكبرى من ظاهرة تخلى بعض المثقفين عن طبقاتهم، فالمثقف الحقيقى يكون عادة شخصا تقدميا..**»[11]!!.. **فهم مجرد** «**مثقفين.. ثوريين.. تقدميين**».. **ولا أثر للدين أو التدين فى هذا الموضوع!!..**

وكذلك الحال مع الصحابة فى عهد عمر بن الخطاب، فهم «**رفاق الثورة**».. وعمل عمر هو «**تعليم الناس نظرية الثورة..**».. كما أن الفقهاء هم «**العلماء بنظرية الثورة..**».. والقراء للقرآن هم «**طليعة فكرية للثورة.. يشكلون فئة المثقفين الثوريين.. وهم على خبرة كافية بنظرية الثورة..**» كما **يمثلون** «**الأوساط اليسارية**».. و«**اليسار الثورى**»[12]، **فى ذلك المجتمع!!..** أما عثمان بن عفان، فهو «ثائر قديم، تخلى عن طبقته الأرستقراطية وانضم إلى الثورة فى وقت مبكر، ووضع ثروته فى خدمة الثورة»[13]!!.. بينما كان عمرو بن العاص «**قائد الرجعيين..**»[14]!!..

● ومادام الأمر ـ فى «مركسة الإسلام» ـ لا يعدو هذا النطاق.. الإسلام: «**مجرد ثورة**».. والقرآن: «كتاب الثورة.. ومصدرها النظرى الأول».. والمعرفة الإسلامية هى: «المعرفة بنظرية الثورة».. والنبى: «لم يكن سوى

---

(10) المرجع السابق. ص ١١٠، ١١٧.
(11) المرجع السابق. ص ١١٢.
(12) المرجع السابق. ص ١١٢، ١١٧، ١٢١، ١٢٧، ١٣١، ١٣٦.
(13) المرجع السابق. ص ١٢٤.
(14) المرجع السابق. ص ١٣٣.

معيد لبنـاء الشخصية العربيـة . . ولتخطيط المجتمع العـربى» . . والعلماء هم : «أهل الخبرة الكافية بنظرية الثورة» . . والمؤمنون هم : «رفاق الثورة» . .

مادام الأمر، فى الإسـلام، لا يعدو هذه الحدود . . فإن الهجـرة من مكة إلى المدينـة ، لم تكن ــ فى التحليل والتفسير الماركسـى لـلإسلام ــ أكثر مـن «**تأمين الثورة ضد مؤامرات الرجعية ، بنقـل مركز الثورة ومقر قيادتها من مكة إلى المدينـة ، حيـث كـانـت قـد اكتسبــت أنصـارا جـددا أقـويـاء أغنيـاء مستنيرين** . . »[(١٥)]!! . .

تلك هى نماذج من صنيع المنهـاج المادى فى «مركسة الإسلام» . . تضعنا أمام الثمـرات المرة «للخطيئة ـ الماركسية» عنـدما ترتكب «جـريمة» التفسير المادى للإسـلام . . وهى «جريمـة» تفرضها و«تُقَـرِّرها» بقايـا الماركسية على أبنائنا وبناتنا فى الجامعـات، فى ظروف «الجبر . . والعجز عن الاختيار» . . وفى سن الافتقـار إلى البديـل الذى يقاوم « الأستـاذ ـ المحـاضر» و«الكتاب ـ المقرر» و«أسئلة . . ودرجات الامتحان»!! . .

إنه «امتحان» قائم خارج دوائر الثقافة والإعلام ! .

(١٥) المرجع السابق . ص ١١٧ .

٣- الهزل.. وغيبة العدالة في تناول الإسلام

لا أعرف حضارة معاصرة بلغت مبلغ الحضارة الإسلامية فى اشتراط «العدالة»، بمعناها الجامع، فى «العلماء» بأكثر مما اشترطتها فى «الأمراء»!!..

صحيح أن «فسق» أى من «العلماء» و«الأمراء» إنما يمثل فتنة فى الأمة والعامة، لا تقف آثارها عند حدود من اقترفها واجترح أعمالها.. والقرآن ينبه على خطر هذا اللون من الفتنة فيقول: ﴿ **واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب**﴾ (١).. إلا أن فتنة فسوق «العلماء» أخطر من فتنة فسوق «الأمراء»، لأن صلاح «العلماء» شرط فى صلاح «الأمراء» وسبب فيه!!.. ولذلك كان تشديد الإسلام وحضارته على العدالة الجامعة فى العلماء.. فصاحب «الكلمة»، وحامل «القلم» يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا!..

ولقد قرن الله، سبحانه وتعالى، بين العلم بسننه فى الكون والفقه لأسراره فى الخلق وبين «الخشية» من جلاله، التى يجب أن يثمرها هذا العلم فى قلوب العلماء.. ففى العلم الطبيعى: ﴿ **ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود* ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور**﴾ (٢).

---

(١) الأنفال: ٢٥. (٢) فاطر: ٢٧، ٢٨.

وإذا كانت هذه هى الخشية الطبيعية لله من الذين يعلمون آيات كتابه فى الكون المنظور، فإن آيات كتابه المقروء مطلوب أن تحدث ذات الخشية ـ إن لم يكن أكثر ـ فى قلوب العلماء بهذه الآيات **﴿لو أنزلنا هـذا القرآن على جبل لرأيتـه خاشعا متصـدعا من خشيـة الله وتلك الأمثال نضربها للنـاس لعلهم يتفكرون﴾** (٣) . .

تلك هى رؤية الإسلام وحضارته للمكانة الطبيعية للذين أوتوا الكتاب، وأخذ الله عليهم الميثاق ألاّ يكتموه، بل يبينوه للناس! . .

وهذه العـدالة الجامعة، التـى اشترطها الإسلام فى العلماء، لا تقـف فقط عند اجتناب «فسـوق الجوارح» و«معاصيها»، وإنما هى أولا « عـدالة الرأى» و«أمـانة الفكـر»، التـى ترجـح الديـن والعقـل على الهوى والشهوة، وتلتـزم الصدق، وتتجنب الكـذب، ديانة ومروءة ـ كما عرفهـا العلماء ـ « . . ففسق الرأى» ، كفسق الجوارح، قـادح فى «عدالة العلماء»! . . والذين يخونون هذه الأمانة، ويلحدون عن طريق هذه العـدالة، إنما يوقعون كل وسائل إدراكهم ومعارفهم فى مسئولية هذا الفسوق والعصيان **﴿ولا تقف ماليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا﴾** (٤) . .

وعن هذه الخصيصـة من خصائص العلم والعلماء فى حضـارة الإسلام، عبر الإمام مـالك بن أنس [٩٣ ـ ١٧٩هـ ، ٧١٢ ـ ٧٩٥م] عندمـا وصف «العلـم» بأنـه «دين»، ودعـا الناس إلى التـدقيق فيمـن يأخـذون عنه هـذا «العلم : الدين»!! . . فقال : «إن هذا العلم دين، فانظروا عمن تأخذونه. لقد أدركت سبعين ممن يقول : قـال رسول الله ، ﷺ ، عند هذه الأساطين ـ [وأشار إلى مسجد المدينـة] ـ فما أخذت عنهم شيئا، وإن أحدهـم لو ائتمن

(٣) الحشر : ٢١ .
(٤) الإسراء : ٣٦.

على بيت مال لكــان أمينا ، إلا أنهم لم يكونوا من أهــل هذا الشأن»[٥] !! . .
فهو يطلب « العدالة الدينية» ـ عدالة الخشية من الله ، تقوى العلماء ـ التى لا تغنى عنها «عدالة الدنيا» . . فالدرايـة فى شئون الدنيا لا تغنى عن الدراية فى شئون العلــم والدين . . و«الــدراية» فى العلم لا تغنــى عن التقوى والعــدالة فيه ! . .

* * *

وإذا كانت الحضارة الغـربية ، التى عزلت ـ بــ «الوضعية» و«العلمانية» ـ عزلت «المعـرفة» عن «الدين» ، بـل وجعلت « وضعيتها» هذه مـن «الدين : وضعا بشريا ، وإفـرازا إنسانيا» . . حتى لقد قبلت ورضيـت أن يكون واضع [تعاليم الــدين الوضعى] لها ، وصـاحب [الفلسفة الوضعيـة] التى صبغت نهضتها الحديثة ، هــو «أوجست كونت» [١٧٩٨ ــ ١٨٥٧م] ، ذلك الذى أعـانتـه على صيــاغـة المذهـب «بَغِــيّ» أثنـاء احترافهــا للبغـاء !! . . ثـم تزوجها !! . . وانفصل عنها ليهيم بامرأة متزوجة من رجل هارب من مطاردة الشرطـة . . ليلهمه هيـامه بها معلما مـن معــالم مذهبـه ، فى «خضوع العقـل للقلب»[٦] !! . .

إذا كــان هذا هـو حال «علـم» و«علماء» المعرفـة الحسية ــ الوضعيـة . . العلمانية ــ الذى رضيته الحضــارة الغربية ، فلـم تر فيــه ما يقدح فى «عــدالة العلماء» ، لأنها لم تشترط أصلا هذه العدالة ، لفصلها «السماء» عن «الأرض» و«الآخرة» عن «الدنيا» و«الوحــى» عن «الكون» و«الشرعى» عن «المدنى» . . فإن هــذا لم يكن حال الحضــارة الإسلامية التــى طلبت من «عــدالة العلماء» أكثر مما طلبت من «عدالة الأمراء» ! . .

---

(٥) مقدمة [الموطأ] ـ ص ٢١ ـ طبعة دار الشعب ـ القاهرة ـ نقلا عن [الديباج المذهب فى معرفة علماء المذهب] ، لابن فرحون .

(٦)[الموسوعة الفلسفية المختصرة] ، ص ٢٦٦ ، ٢٦٧ ـ إشراف : د. زكى نجيب محمود . طبعة القاهرة ، سنة ١٩٦٣م .

وها هــو ذا أبو عثمان عمرو بــن عبيد [٨٠ ـ ١٤٤هـــ ، ٦٩٩ ـ ٧٦١م] فارس الثورة ، وصرح العقــلانية وذروتها نرى «العدالة» قد أكملــت صياغته الإسلامية ، فرأيناه الرجل الربــانى الذى تضرب بتقواه الأمثال ، حتى ليشتهر بين الجمهور بــأنه «خير الناس»!! . . ونقرأ فى المأثــور عنه ـ ليس فقــط فكر الثورة الذى يــزلزل العروش ويقلب النظــم والدول ، ومذاهــب الفلسفــة التى تعلى من مقام العقل ـ وإنما أيضا الأدعية المأثــورة التى كان يقول فيها مناجيا ربه : «اللهم اغننى بالافتقار إليك! ولا تفقــرنى بالاستغناء عنك! . . اللهم أعنى على الدنيا بالقناعة ، وعلى الدين بالعصمة»!! . .

كما تــؤثــر عنــه الحكمــة القــائلـــة : «إن ذكــر غضــب الــرب يمنــع مــن الغضب»! . . والسيرة والسلــوك اللذيــن جسدا هــذه العدالــة حياة واقعيــة عــاشها هذا «الفيلسوف ـ الثائر» . . فمــع أنه القائد المطاع فى قومه وأنصاره ، يحج إلى بيت الله الحرام ، سيرا على قدميه ـ من البصرة إلى مكة ـ أربعين مرة ، فى أربعين عاما . . وخلفه بعيره ، يحمل عليه الفقراء والضعفاء . . !![7] .

ذلك هــو شرط «العدالة» الــذى تطلبه الإسلام فى «العلماء» ، وتلــك هى صورتــه التطبيقية فى حضــارة الإسلام ، وهــذا هو تميــزها فيــه عن غيرهـــا من الحضارات . .

* * *

ولذلــك ، فإن العجب يــزداد ، والدهشة تتــزايد ، عنــدما نرى فى حيــاتنا «الفكريــة» الراهنة بعضا مــن «تلامذة التنــوير ـ الغــربى ـ العلمانى» الــذين يقــدمــون أنفسهم للقــراء على أنهم «مجتهــدون» فى الإســلام ، و«مجددون» فى فكره ، مــع افتقارهم وافتقادهــم للحدود الدنيــا من «دراية» العلم و«عــدالة» العلماء . . بل ومع اتصافهم بقدر مــن «سوء النية» فى عرض حقائق الإسلام

(٧) انظر دراستنا عنه فى كتابنا : [مسلمون ثوار] ، ص ١٦٠ ـ ١٧٥ . طبعة القاهرة ، سنة ١٩٨٨م .

ومذاهب فكره، يدخلهم فى عداد، لا الذين افتقروا فقط إلى «عدالة العلماء»، بل والذين أحلوا «فسق الرأى» محل هذه العدالة!!..

إن أمة من الأمم لاتستغنى عن «الرموز» التى تضفى عليها «الحرمة»، وتتخذ منها «الحوافز» التى تعينها على مواجهة التحديات.. فأرض الوطن.. والعلم الذى يرمز إليه.. والأبطال الذين فنوا فى سبيله.. والموروث الذى يمثل هويته وصبغة حضارته.. وكذلك الدين الذى تتدين به الأمة، والذى يمثل الإيمان به جماع مقومات الاجتماع البشرى للأمة.. وما لهذا الدين من عقيدة وشريعة وقيم وتاريخ ومعارك وبطولات ورموز. إن أمة من الأمم لا تستطيع أن تحيا حياة حقة، ولا أن تجابه تحدياتها الداخلية والخارجية ـ وخاصة إذا كانت مستهدفة تاريخيا وحضاريا، كأمتنا العربية والإسلامية ـ إلا إذا هى أحلت «رموزها» المحل اللائق فى الاحترام والتوقير..

فإذا جاء من «تلاميذ ـ التنوير ـ الغربى ـ العلمانى» من يتخلى عن عدالة العلماء، ويتخذ «فسق الرأى» سلاحا لهدم هذه «الرموز»، فى حقبة تاريخية قد فرضت فيها على الأمة «حرب حضارية»، تسيل فيها الدماء وتهاجم المعتقدات وتضطهد الهوية على امتداد ديار الإسلام.. إذا حدث ذلك، فى مثل هذه الظروف فإننا نكون بإزاء «نزع لسلاح الأمة وهى فى حالة حرب ضروس»!!..

وإذا كان المقام لا يحتمل الإطالة.. فسنضرب المثل على هذا اللون من ألوان التعامل «التنويرى ـ العلمانى» مع رموزنا ـ رموز الإسلام ـ التى أضفت عليها ذاكرة الأمة قدرا عظيما من «الحرمة» و«التقدير»..

إن الصحابى الجليل سعد بن أبى وقاص [٢٣ق. هـ ـ ٥٥هـ، ٦٠٣ ـ ٦٧٥م] هو ثالث من دخل الإسلام.. وأول من رمى بسهم دفاعا عنه وعن نبيه، ﷺ.. وأحد العشرة ـ المهاجرين الأولين ـ الذين مثلوا أولى المؤسسات الدستورية فى تاريخ دولة الإسلام.. وهو فاتح القادسية، الذى أدال دولة

إحـدى القـوتين العظميين فى إمبراطـوريـات ذلك التـاريـخ . . وصـاحـب «المناقب» التى جاءت فى كتب السنة النبوية الصحيحة ، وتلقتها الأمة ، على مر تاريخها ، بالرضا والقبول . . .

فكيف تعـامل «التنـويريـون ـ العلمانيـون» مع «سعـد بن أبـى وقاص : الرمز»؟ . . وكيف عرضوا صورتـه فى كتبهم التى نشروها بحسبانها «اجتهادا» فى الإسلام ، و«تجديدا» فى فكره؟ . .

سنختار نموذج « الأستاذ» حسين أحمد أمين ، الذى كتب عن تأملاته فى «**حقيقة أمر السلف الصالح**» . . ونشر هذه التأمـلات فى إحدى المجلات ، ثم فى كتابين ـ [حول الدعـوة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية][8] ، و[الاجتهاد فى الإسلام : حق هـو أم واجب؟][9] ـ وهى التأمـلات التى خلص منها إلى رأى قاطع قال فيه : «**إن ماضينا هـو ـ إلى حد كبير ـ من نسج خيـالنا نحن وخيال مؤرخينا . .**»[10]!! . .

فإذا كـان هذا الماضـى ـ الـذى هو مـن أمضى أسلحـة الأمة فى الحروب الضروس القـائمة ضـدهـا اليـوم ـ هـو «خيـال» ، نسجـه «خيالنـا وخيـال المؤرخين» . . فماذا يكون نزع سلاح الأمة المحاربة ، التى فُرض عليها القتال ، إذا لم يكن هذا التقييـم لماضى الأمة نزعا للسـلاح ، يتزامن مع نـزع كل أنواع السلاح فى ديار العرب والمسلمين من دون الناس أجمعين؟! . .

إن الثقافة الغربية قد صنعت من أساطير اليونان علما ، تعبدوا ويتعبدون ـ ومعهـم «التنـويريـون ـــ العلمانيـون» من أبنـائنـا ـــ فى محرابه ـــ محراب هـذه

---

(٨) انظر هذه التأملات فى طبعة بيروت ، سنة ١٩٨٥ ـ ص ١٠١ ـ ١١٢ .

(٩) انظر هذه التأمـلات فى طبعة القاهرة ، سنة ١٩٩٣م ـ فى سلسلة «المواجهة ـــ التنوير» ـ ص ١٦٠ ـ ١٧٢ .

(١٠) [حول الدعوة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية] ، ص ١١٢ . و[الاجتهاد] ، ص ١٧٢ .

الأساطيرـ!! . . ومع ذلك، يقـال هذا عن تاريخنا، الذى خضعـت رواياته لقواعد علم «الحديث» فى «الجرح والتعديل» ـ وهو علم يمثل إحدى مفاخر حضارتنـا، باعتراف الغـربيين أنفسهم ـ . . . فهل ينتسـب هذا التقييـم إلى «العدالة العلمية»؟ . . أم إلى «فسق الرأى» ـ بتعبير «سلفنا الصالح»؟!

وإذا كان تاريخنـا خيالا . . فكيف «مسخ» «الأستـاذ» حسين أمين «رمز» سعد بن أبـى وقاص فى الخيال الإسلامى . . فحـوله من مكانته كـواحد من طليعة السابقين إلى الإسـلام، والعُمُد التى أقامـت الدين، وبنت الـدولة، وأحد المبشريـن بالجنة . . حولـه من هذه المكانـة إلى مكانة الرجـل الذى لا يعدل إذا قضى . . ولا إذا قسـم بين الناس؟! . . بل والذى لا يحسـن حتى «الصلاة»، التى أسلـم حتى قبل أن يفرضها الله على المسلمين ؟! . .

وياليته قال إن هذا هو رأيى، الذى أخالف به دنيا المسلمين، من رسول الله ﷺ إلى آخر كتاب السيرة والتاريخ . . ليته صنـع ذلك بحسبانه مذهبا يذهبه أو رأيـا يراه . . . بل الطامة الكبرى أنـه يقدمه بحسبانه «حـديثا» من «الأحاديث» التى ينقلها عن كتب السنة النبوية ـ بروايته وعنعناته ـ ليقول لنا إن «سعدا: الرمـز» هو «خيال المؤرخين» . . أما «سعـد: الحقيقة» و«حقيقة السلفـ» فلا علاقة لها بهذا المقام العظيم!! . .

يسـوق « الأستـاذ» حسين أحمد أمين هـذه «الجنـايـة» على رمـوز الأمـة وأبطـالها، والتـى «نضبطـه» الآن متلبسـا بها . . «ونحـرر» وقـائع «الضبـط» ونعرضها على الأمة، طالبين منها الرأى فى أهل «التنوير ـ الجديد» و«الاجتهاد ـ الشـاذ» ـ لتتبين الأمة أهـل « العدالـة العلمية» من أصحـاب «الفسوق فى الرأى»! . .

لقـد عرض « الأستـاذ» حسين صـورة سعد بـن أبـى وقاص، فى صـورة حديث يقول:

«عن جابر بن سمرة: شكا أهل الكـوفة سعد بن أبى وقاص إلى عمر بن

الخطاب، فقالوا: إنه لا يحسن أن يصلى. فبعث عمر رجالا يسألون عنه بالكوفة، فقيل لهم: أمّا إذا نشدتمونا بالله، فإن سعدا لا يعدل فى القضية، ولا يقسم بالسوية، ولا يسير بالسَّرِيَّة» . .

فهو قد قدم إلى القراء «حديثا»، بسنده، وميزه بين علامة التنصيص - [« . . . »] - ليقول للقراء: هذا هو «سلفكم الصالح» . . وتلك هى «حقيقته» التى لا علاقة لها «بالخيال» الذى صنعتموه أنتم وكتاب التاريخ! . .

وأذكر، أن «الأستاذ» حسين قد كتب هذا، أول ما كتبه، «مقالا» فى مجلة [المصور] - القاهرية - عندما «وظفت» كتاباته لمواجهة التيار الإسلامى، بعد انتخابات سنة ١٩٨٤م، التى دخل فيها بعض ممثليه إلى مجلس الشعب، للمرة الأولى، متحالفين مع «حزب الوفد الجديد» . . ولم أكن أتابع المجلة. . حتى لقينى الأستاذ الدكتور جلال أمين - شقيق «الأستاذ» حسين - فحدثنى عن رغبة حسين فى أن يعرف رأيى فيما يكتب. . فكان مقاله «تأملات فى حقيقة أمر السلف الصالح» هو أول ما قرأته من هذه المقالات. .

واستلفت نظرى، يومئذ، أن الكاتب لا يذكر مصدرا واحدا لأى اقتباس يقتبسه أو نص يستشهد به! . . الأمر الذى «يُصَعِّب» على الإنسان التحقق من صدق الاستشهاد ودقة الاستنتاج! . . وزادت حيرتى أمام «الحديث» الذى قلب به صورة سعد بن أبى وقاص. . إلى أن لقيته - فى دار الشروق - بمصر الجديدة - صدفة - عقب نشره لهذا المقال. . ودار بيننا حديث سألته فيه عن الحكمة فى تصوير تراثنا وأعلامنا ورموزنا على هذا النحو، فى زمن هم أسلحتنا فيه، ونحن «نحارب» . . سألته:

- لمصلحة من تنزع سلاح الأمة، وهى فى حالة حرب؟! . .

ففاجأتنى إجابته:

ـ أنا أريد أن أشكك فى كل شىء! . .

ودار بيننا حوار حاولت فيه التمييز بين «الشك المنهجى» ـ الذى هو السبيل إلى اليقين ــ وبين «الشك العبثى»، الذى يشكك من أجل الشك! . . ثم سألته :

ـ من أين أتيت بـ «الحديث» الذى صورت به سعد بن أبى وقاص على هذا النحو؟!

فقال :

ـ من [طبقات ابن سعد](١١) . .

فلما عدت إلى مكتبتى، راجعت كل ما جاء عن سعد بن أبى وقاص فى [طبقات ابن سعد] فلم أجد أثرا لهذا «الحديث»!! . . لكن الحمية لم تدع للنوم سبيلا إلىّ . . فظللت أبحث فى فهارس «الأحاديث» وكشافاتها حتى وصلت إلى «الحديث» فى صحيحى «البخارى» و«مسلم» وفى [الموطأ] للإمام مالك وفى [مسند] الإمام أحمد . . وهنا كانت المفاجأة المذهلة . . بل الفجيعة فى أمانة وعدالة « الأستاذ» حسين أحمد أمين!! . .

وحتى لا أطيل . . ولا أتدخل أنا فى الحكم والتقييم . . فسأنقل نص الحديث كاملا من البخارى ومسلم . . ثم أدع المقارنة . . والحكم والتقييم للقراء . . وللأمة التى يتقدم إليها «الأستاذ » حسين كرمز «للتنوير» الجديد و«الاجتهاد الإسلامى» الحديث! . .

يقول النص الكامل للحديث :

«حدثنا موسى، حدثنا أبو عوانة قال : حدثنا عبد الملك بن عمير، عن

---

(١١) شهد هذا الحوار عدد من الأصدقاء . . فى دار الشروق ـ أذكر منهم مديرها العام الأستاذ إبراهيم المعلم . . والأستاذ أحمد الزيادى . . وآخرين لا أذكر أسماءهم الآن .

جابـر بن سمـرة قال: شكـا أهل الكـوفة سعـدا إلى عمر، رضـى الله عنه، فعـزله. واستعمـل عليهم عمارا. فشكـوا حتى ذكـروا أنه لا يحسـن يصلى. فأرسل إليه، فقال:

ـ يا أبا إسحق، إن هؤلاء يزعمون أنك لا تحسن تصلى.

ـ قـال أبو إسحق: تُعَلِّمُنـى الأعراب الصـلاة؟!. أمّا أنا، والله، فـإنى كنت أصلى بهم صلاة رسول الله، ﷺ، ما أَخْرِمُ عنها، أصلى صلاة العشاء فأركد ـ [أطيل وأديم وأمد] ـ فى الأولين، وأُخِفّ ـ [أقصر] ـ فى الأخريين.

ـ فقال عمر: ذاك الظن بك يا أبا إسحق.

فأرسل معـه رجلا ـ أو رجالا ـ إلى الكـوفة، فسأل عنه أهـل الكوفة، ولم يدع مســجدا إلا سـأل عنـه، ويثنون معـروفا، حتـى دخل مسجـدًا لبنى عبس، فقام رجل منهم يقال له أسامة بن قتادة، يُكْنَى أبا سَعْدَة، قال: أَمّا إذا نشدتنا، فإن سعـدا كان لا يسير بالسَّرِيَّة [١٢]، ولا يقسم بالسوية، ولا يعدل فى القضيـة. ـ قـال سعد: أمـا والله لأدعون بثـلاث: اللهم إن كـان عبدك هـذا كاذبا، قـام رياء وسمعة، فـأطل عمـره، وأطل فقره، وعـرِّضه بالفتن.

فكـان، بعد، إذا سئـل ـ [أى أسـامة بـن قتادة] ـ يقول: شيـخ كبير مفتـون، أصـابتنى دعـوة ســعد. قال عبـد الملـك ـ [بـن عمير، راوى الحديث] ـ: فأنا رأيته، بعد، قـد سقط حاجباه على عينيه من الكِبَر، وإنه ليتعرض للجوارى فى الطرق يغمزهن»!..

هذا هو النص الكامل للحديث.. يصف فيه عمر ـ حتى قبل سماع رد سعد بـن أبى وقـاص على الشكوى ـ يصف فيـه اتهام سعد بـأنه لا يحسـن

---

(١٢) أى لايخرج قائدًا للسرية فى الغزو. وقد تعنى: إنه لا يسير فينا السيرة النفيسة.

الصلاة، بأنه «زعم»!! . . ويبين فيه سعد أنه إنما كان يصلى فى الناس بصلاة رسول الله، ﷺ، وأن بعض «الأعراب» قد ظنوا أن الإطالة فى الركعتين الأوليين من العشاء، والتقصير فى الأخريين ليس من قواعد الصلاة، فكانت شكوى هذا النفر من «الأعراب». . وفيه تأمين عمر على قول سعد: «ذاك الظن - [أى اليقين] - بك، يا أبا إسحق»! . .

وفى الحديث أيضا، أن «المحقق» الذى أرسله عمر إلى الكوفة، ليتحقق من وقائع شكوى أهلها ضد سعد بن أبى وقاص، قد ذهب بصحبة سعد، فسأل «أهل الكوفة، ولم يدع مسجدا إلا سأل عنه» أهل هذا المسجد. . والجميع «يثنون معروفا» على سعد . . إلا رجلا واحدا، من «أعراب» عبس، هو الذى انفرد باتهام سعد بهذه الاتهامات. . فدعا عليه سعد، إن كان كاذبا، أن يطيل الله عمره، وفقره، ويعرضه للفتن. . فاستجاب الله دعوة سعد بن أبى وقاص، لأن اتهام هذا «الأعرابى» لسعد - وانفراده بهذه الاتهامات دون أهل الكوفة ورواد سائر مساجدها - إنما كان «رياء وسمعة»!! . .

هذا هو الحديث، الذى أخذ منه «المجتهد» حسين أحمد أمين «الاتهام». . وأغلق «علامة التنصيص» دون «التحقيق» و«حكم البراءة»، وثناء عمر بن الخطاب وأهل الكوفة على سعد بن أبى وقاص. . صنع «المجتهد» حسين أمين هذا. . وقدمه إلى القراء فى صورة «حديث» - مسند ومعنعن - ليهدم رموز الإسلام . . وليهدم أبطال حضارته. . وليجرد الأمة من سلاحها، وهى تخوض حربا ضروسا على العديد من الجبهات! . .

فهل هذا هو «الاجتهاد الإسلامى الجديد»؟! . . وهل هذا هو «البديل التنويرى» لـ «عدالة العلماء»؟! . . وهل بهذا «الفسوق الفكرى» نواجه «الغلو الإسلامى»؟! . . أم أن ذلك هو «الغلو العلمانى» الذى يستفز

ضمير الحليم، ويفجر براكين «الغلو» فلا تبقى ولاتذر شيئا فى حياتنا إلا وحكمت عليه بالكفر والجاهلية ومعاداة الإسلام؟!..

هذا مثال لغيبة «الأمانة.. والعدالة» فى الحديث عن الإسلام.. حديث «تلاميذ التنوير ــ الغربى ـ العلمانى».. والذى يقدمونه باعتباره «الاجتهاد الإسلامى الجديد».. بل ويرونه «فرضا» عليهم، وليس مجرد «حق» من «الحقوق»!..

فهل «فرض» عليهم أن «يفرضوا» علينا هذا «الفسوق الفكرى»؟!..

* * *

ومثال آخر على «الهزل» الذى يقدمون، فى معرض تناولهم للإسلام.. بل ولعقائده.. وقيمه، و«الثوابت» فيه..

فلقد سبق وكتب سلامة موسى، فى عشرينيات هذا القرن، داعيا إلى تطوير «العقائد» الدينية بما يتفق ومتغيرات العصر. بل ودعا إلى قيام لجنة تؤلف كتبا «مقدسة» تناسب هذه التطورات المعاصرة.. وإلى أن تنقح هذه الكتب «المقدسة» سنويا، لملاحقة هذه التطورات... وحدثنا عن أنه يتبنى فى هذا «الهزل» رأيا للكاتب الإنجليزى «هـ. ج. ويلز» [١٨٦٦ ـ ١٩٤٦م].. وجاء الاقتراح من سلامة موسى، ومر، دون أن يقف أمامه أحد من العقلاء، باعتباره لونا من «الهذيان» الذى لايدرك صاحبه الفوارق ما بين «الثوابت» و«المتغيرات».. ما بين «الأصول» و«الفروع».. ما بين «الوضع الإلهى» الخالد و«الوضع البشرى» المتطور والمتجدد...

لكن الذين أحلوا «الفسوق الفكرى» محل «العدالة العلمية»، فى واقعنا الثقافى المعاصر، أبوا إلا أن يعيدوا «هزل» سلامة موسى من جديد.. وزادوا على الرجل عندما قدموا «هزله» بحسبانه معلما من معالم «الاجتهاد الإسلامى» الجديد!!..

ففى كتاب عنوانه [الاجتهاد فى الإسلام]، يقدمه «الأستاذ» حسين أحمد أمين باعتباره «التنوير» الذى «يواجه» المشروع الإسلامى . . كتب يقول : «إن المفاهيم والمعتقدات والقيم فى أى دين لا تبقى أبدا على حالها . . . إن إعادة تفسير العقيدة، على ضوء التغيرات المستمرة، من أجل مجابهتها مجابهة إيجابية، أمر لا غنى عنه إن نحن أردنا لهذه العقيدة البقاء . . »[١٣] !

وهو هنا لا يتحدث عن تطور «الفقه» و«القانون» و«النظم» و«الآليات» . . وإنما يطلب تطوير «العقائد» و«القيم»، أى «قطاع الثوابت» فى أى دين من الأديان . . والذى لو تطور وتغير لما كان على وجه هذا الكوكب، فى عصرنا هذا، بل وقبله بعصور، أى دين من الأديان ! ! . .

ونحن نسأل : إلى ماذا؟ . . وعلى أى صورة تتطور عقائد مثل : «الألوهية»؟ . . و « التوحيد »؟ . . و « الخلق »؟ . . و « النبوة والرسالة »؟ . . و«الوحى»؟ . . و«الملائكة»؟ . . و«عالم الغيب . . واليوم الآخر . . والحساب والجزاء»؟ ! . . إلخ . . إلخ . .

وإلى ماذا تتطور «قيم الدين» فى : « الخير»؟ . . و « الحق»؟ . . و«الصدق»؟ . . و«الأمانة»؟ . . و«العدالة»؟ . . و«الإيثار»؟ ! . .

وهل تتطور «العدالة»، مثلا، فى العلم والفكر، فتصبح هذا الذى صنعه «الأستاذ» حسين مع حديث «جابر بن سمرة» عن سعد بن أبى وقاص؟ ! . .

بل إن أمر هذا «الاجتهاد الجديد» لم يقف عند هذه الحدود . . «فالأستاذ» حسين أمين، لتطوير عقائد الدين وقيمه، يقترح قيام لجنة تشترك فيها كل التخصصات التى لا علاقة لها بالدين . . بل ويطلب أن يشترك غير المسلمين فى «لجنة تطوير عقائد الإسلام» . . فيشترك، مثلا، أهل «لاهوت

(١٣) انظر: صفحة ١٨، ٢٠.

التثليث» فى تطوير «توحيد القرآن الكريم»! . . و«عبدة الإله «رام» فى تطوير عقائد المصلين فى «المسجد الببرى»!! . . و«السلفية» يطورون ــ إذا عممنا هذا «الاجتهاد» خارج الإسلام ـ عقائد اليهود والنصارى! ! . . و«ماركس» يطور « الليبرالية»!! . . و«آدم سمث» يطور «البيان الشيوعى»!! . . وهكذا . . تعم نعمة «الاجتهاد» ، فتتطور كل «المعتقدات»!!

يقدم «الأستاذ » حسين هذا «الاجتهاد الجديد» فيكتب متسائلا : «أليس من المصلحة أن تتصدى لإعادة تفسير العقيدة على ضوء المتغيرات المستمرة ، جماعة أو لجنة أو هيئة دائمة تضم نخبة ، **لا من علماء الدين وحدهم ، وإنما أيضا من كبار الخبراء فى علوم الاقتصاد والاجتماع والسياسة ، وفى علوم التاريخ والمستقبل والتحول الاجتماعى ، والأطباء وعلماء النفس واللغة وغيرهم ، سواء كانوا من العلمانيين أو من غيرهم ، مسلمين أو غير مسلمين ، من أجل المساهمة بمداولاتهم ونتائج نقاشهم فى الوصول إلى صياغة** جديدة»[14]؟!

فأصحاب هذه التخصصات ، من المسلمين وغير المسلمين ، ومن العلمانيين والإسلاميين ، ليسوا مدعوين لتطوير رؤى الإسلام فى تخصصاتهم ، وإنما يدعوهم «الأستاذ» حسين لتطوير «عقائد» الإسلام! ! .

ولا يقف عمل هذه «اللجنة الدائمة» عند «التطوير المستمر» للعقائد والقيم . . وإنما هى مدعوة ، كذلك ، **لإعادة النظر فى «الفرائض» و«العبادات»** . . «فالأطباء مطالبون بالإدلاء برأى الطب فى تأثير الصوم على نمو الصبيان ، وصحة الشيوخ . والاقتصاديون مطالبون ببياناتهم عن حجم الإنتاج فى شهر رمضان»[15]!

وواضح من وضع «الأستاذ» حسين لهذا «البند» فى جدول أعمال «اللجنة

(١٤) [الاجتهاد فى الإسلام]، ص ٢٠ .   (١٥) المرجع السابق . ص ٢٣ .

الدائمة لتطوير عقائد الإسلام» نوع «التطوير» الذى يريده هو لفريضة الصوم - وهى واحدة من أركان الإسلام -!! . . والرجل لم يسأل نفسه :

- كيف بنت هذه الأمة حضارتها - التى جعلت منها العالم الأول على هذا الكوكب لأكثر من عشرة قرون - وهى قائمة بأداء فريضة الصوم، عبادة لله؟! . .

- وكيف أحرزت هذه الأمة أعظم الانتصارات الحربية فى رمضان، ومجاهدوها صائمون - [من غزوة بدر الكبرى فى ٢٠ رمضان سنة ٢هـ - ٦٢٤م . . وحتى أحدث انتصاراتها فى العاشر من رمضان سنة ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م]؟! . .

- وكيف لا يزال المنتجون اليوم هم الصائمين! . . والمفطرون هم الصعاليك؟! . .

- وأما تأثير الصوم على نمو الصبيان، وعلى صحة الشيوخ . . فهو تساؤل أجاب عنه «عُمْر» هذه الأمة، و«صمودها» أمام أشرس التحديات!! . .

لم يسأل «الأستاذ» حسين أمين نفسه هذه الأسئلة، ليستقرئ أجوبتها من تاريخ الأمة، وواقعها المعاصر . . وإنما مضى ليقترح «بندا» ثانيا فى «جدول أعمال **اللجنة الدائمة لتطوير عقائد الإسلام**» . . وهو النظر «فى موضوع حصة الأنثى من الميراث، التى هى نصف حصة الذكر، وما إذا كان من المصلحة، على ضوء الظروف الاقتصادية والاجتماعية الراهنة إعادة النظر فيها . . »(١٦)!!

ومرة أخرى - وبصرف النظر عن خطأ - بل وخطيئة منهج الدعوة لتغيير ثوابت الأحكام والفرائض الدينية - . . فإن «الأستاذ» حسين لم يتدبر الأمر فيسأل نفسه :

(١٦) المرجع السابق . ص ٢٣ .

ـ هـل صحيح أن نصيب الأنثـى من الميراث ، فى الإسـلام ، هو دائما على النصف من نصيب الذكـر؟ . . وألا تأخذ البنت ـ وهى أنثى ـ مـن تركة أبيها أكثر كثيرا مما يـأخذ أبوه ـ وهو ذكـر ـ؟ ! . . وألا ترث البنتان أكثـر حتى من عشرات الذكور لـو اجتمعوا معهما فى ميراث؟ ! . . وألا ترث البنت أكثـر من الأم وكلتاهما أنثى ؟ !

وألا تقـوم فلسفة الميراث فى الإسـلام على معيـار «القـرب» من المتـوفى . . ومعيار «عـبء الإنفاق» . . ومعيار «عـلاقة الجيـل الوارث بالمستقبـل التالى لجيل المتـوفى . . أو بالماضـى السابـق لجيله»؟ . . أليسـت تلك هـى معايير أنصبة التوريث ، التى تتقدم على غيرها مـن المعايير، بما فى ذلك ذكورة وأنوثة الوارثين؟ ! . .

لم يسأل « الأستـاذ» حسين نفسه شيئا من ذلـك . . فكل الذى يهمـه هو **«تغيير العقائد والقيم» ونسخ الشرائع والفروض والأحكام ! ! . .**

ثم مضى الرجل ـ «المجتهد ! » ـ ليقترح «بندا» ثالثا فى «جدول أعمال هيئة التطـوير لعقـائد الإسلام» ، وهـو «رأى علماء النفـس والاجتماع فى عواقـب حجـاب المرأة . . وصحة الـزعـم بأن نسـل المحجبـات أضعـف من نسـل السافرات ، لما لهذا الموضـوع من أهمية تتعلق بـالتكوين البدنـى لأفراد الجيل التالى فى مجتمعنا» (١٧) !

وهى ـ قضية الحجاب ـ قضية لا نقول ، فقـط ، إنها فريضة قرآنية وثابت من ثوابت الدين ـ ولكن نقول ، أيضا ، إن «الأستاذ» حسين لو سأل نفسه :

ـ متى ظهـر السفور فى حياة أمتنا؟ ! . . وألم يبـدأ بقلة من النساء الـلاتى اقترين وتقربـن من جنود الحملة الفـرنسية على مصر سنة ١٧٩٨م . . ؟! . .

---

(١٧) المرجع السابق . ص ٢٤ .

وهل كان نسل الأمة ضعيفا قبل ظهور السفور، منذ هذا التاريخ القريب؟ ! . .

ـ ثم . . ألا تزال النسبة التى تزيد عن ٩٠٪ من نساء الأمة ــ فى الريف والبادية والأحياء الشعبية بالمدن ــ محجبات؟ ! . . فهل ضعف نسل هذه الطبقات ـ وهى جسم الأمة الأكبر ـ بسبب الحجاب القائم حتى الآن؟ ! . .

وهل رأى « الأستاذ» «المجتهد» أن نسل «الأحياء الإفرنجية ـ وما ماثلها» فى مدننا أقوى وأنفع وأكثر إنتاجا من نسل المحجبات؟ حتى يقترح ــ مع تطوير عقائد الإسلام ـ تطوير «الحشمة الشرقية» التى عرفها الشرق حتى قبل ظهور الإسلام؟ ! . . والتى تشارك الإسلام فى الدعوة إليها كل الديانات؟ ! . .

أخشى أن أقول إن مثل هذا «الفكر» هو أقرب إلى «الهزل» منه إلى «الجد» . . وأقرب إلى «خفة الظل . . والوزن . . وربما العقل أيضا» منه إلى ما تعارف الجميع على تسميته بالفكر «فضلا عن الاجتهاد» ! ! . .

* * *

وبعد الافتراء على «الواقع» ، يأتى دور الافتراء على «التاريخ» . . فيزعم «الأستاذ» «المجتهد» «أن المسلمين الأوائل قد أبدوا همة عظيمة فى سبيل تطوير العقيدة والشريعة والمفاهيم الإسلامية حتى أغلق باب الاجتهاد»[١٨] ! ! . .

ولم يقل لنا الأستاذ :

ـ كيف طور المسلمون العقيدة والشريعة واجتهدوا فى ذلك ، وهى قد جاءت فى نصوص قطعية الدلالة والثبوت ، قرروا هم أنه لا يجوز معها الاجتهاد؟ ! . .

(١٨) المرجع السابق . ص ٢٥ .

- وما هى الصور التى طوروا عليها عقائد التوحيد . . والألوهية . . والنبوة والرسالة . . والقدر . . والغيب . . والملائكة؟ ! . . والصور التى تطورت إليها الشريعة ، كفلسفة للفقه والقانون ، وكحدود ثابتة وكقواعد للجزاء؟ ! . .

- وألم يحدث إجماع الأمة على أن الاجتهاد والنمو والتطور إنما هى فى الفروع وعلومها . . والنظم والآليات والمؤسسات . . لا فى الأصول والثوابت والقيم والأركان؟ ! . .

لم يسأل « الأستاذ» «المجتهد» نفسه شيئا من ذلك . . ولو جمع إلى «التدبر» ما هو ضرورى من «عدالة العلماء»، ما خاض فى هذا الميدان ، على هذا النحو غير المسبوق فى تناول عقائد وثوابت الإسلام . . وهو التناول الذى يجعلنا نترحم على حجة الإسلام أبى حامد الغزالى [٤٥٠ ـ ٥٠٥هـ ، ١٠٥٨ ـ ١١١١م] ذلك الذى جعل عنوان أحد كتبه : [إلجام العوام عن علم الكلام] ! ! . . .

لكنه النموذج «الهزلى ـ المفتقر إلى العدالة» لـ «تلاميذ» «التنوير ـ الغربى ـ العلمانى» عندما يعبث بثوابت المقدسات ! .

التّجديد الإسلامى
وتزوير تلامذة التنوير

توشك الفروق بين «التنوير الغربى» و«التجديد الإسلامى» أن تجعلهما على طرفى نقيض . .

● ففلسفة «التنوير» ، كما عرفتها أوربا فى القرن الثامن عشر الميلادى ، كانت حركة «إحياء ـ حضارى ـ لا دينى» ، أحلت «العقل . . والعلم . . والفلسفة» محل «الله . . والدين» ، وخاصة فى شئون الاجتماع الإنسانى والعمران البشرى . . بينما «التجديد الإسلامى» ، على مر تاريخ الإسلام وحضارته ، هو «إحياء دينى» ، لأن «التجديد» آلية فكرية تزيل عن ثوابت الدين ومبادئه وأركانه ـ فى العقيدة والشريعة والقيم ـ بدع الزيادة والنقص ، وشوائب التصورات الغربية ، فتعيد للمنابع نقاءها ، ليكون فعلها أفضل وعطاؤها أكثر وموردها أكثر صفاء . . ثم هى أيضا ـ آلية التجديد الإسلامى ـ تطور وتنمى فى الفروع بما يواكب المستحدثات ، ويظلل المساحات الجديدة فى المتغيرات الدنيوية المتطورة والنامية أبدا . . وتفعل الشىء نفسه مع متغيرات الأماكن والأعراف والعادات . .

ففارق أكيد بين «إحياء دينى» و«إحياء لا دينى»! . .

● ولقد جاء التنوير الغربى ثورة على الكنيسة والبابوية واللاهوت ، احتبست النصرانية الغربية داخل الكنائس ومدارس اللاهوت وأطر

العلاقات الفردية بين الإنسان وخالقه، لينفرد إحياؤها العلماني ـ اللاديني ـ بميادين الدنيا والاجتماع البشري والعمران الإنساني ـ دولة . . وسياسة . . واجتماعا . . واقتصادا . . وقيما . . ومناهج للبحث . . ونظريات للمعرفة والإدراك . . إلخ . . إلخ ـ . . بينما مثل «التجديد الإسلامى»، على مر تاريخه، إعمالا لقانون إسلامى، وسنة نبوية شريفة، جعلا منه القاعدة التى يجب أن تسود أبدا فى حياة الفكر الإسلامى . . ففيما روى عن رسول الله، ﷺ، قوله : «يبعث الله لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها»[1] . . حتى لقد تحول « التجديد» إلى علم وفن تؤلف فيه وفى أعلامه الرسائل والأسفار فى تراث الإسلام وتاريخ المسلمين . .

ففارق أكيد بين «ثورة على الدين» وبين «سنة من سنن الدين»! . .

● ولقد جاء «التنوير الغربى» ليقف بمصادر المعرفة والعلم عند سنن الكون المادى وقوانينه، رافضا أن يكون عالم الغيب، والوحى الذى جاء بنبئه مما يعتمد عليه كمصدر للعلم والمعرفة . . بينما كان «التجديد الإسلامى » دائما إسلاميا، يعيد التكامل والتوازن إلى مصادر المعرفة، وهى آيات الله فى كتابيه : كتاب الوحى المقروء، وكتاب الكون المنظور. . فمهمة «التجديد» تحقيق تكامل مصادر المعرفة، عندما يحدث خلل فى تكاملها، بغيبة واحد منها . . وتحقيق التوازن بينهما إذا حدث طغيان من أحدهما على الآخر. .

ففارق بين «تنوير ـ علمانى» يسقط الوحى من مصادر المعرفة ومراجع العلم . . وبين «تجديد إسلامى» يقيم المعرفة والعلم على «ساقى : الوحى . . والوجود»، ويحقق تكاملهما وتوازنهما . .

● ولقد جاءت فلسفة «التنوير ـ الغربى ـ العلمانى» لتقف بسبل المعرفة

---

(١) رواه أبو داود .

عند «العقـل . . والتجريب» ، نافيـة عن السبل الأخرى جـدارة إدراك العلم الحقيقـى والمعرفـة الحقـة . . بينما ظل «التجـديد الإسـلامـى» وفيا للمنهـاج الإسلامى فى تكـامل سبل المعرفـة الإنسانية الأربعة : «العقـل . . والنقل . . والتجريب . . والوجدان» .

ففـارق بين «تنويـر ـ علمانـى» يقف بسبـل المعرفـة عند «المحسـوس . . والمعقـول» ـ أى عنـد مـدركات الإنسـان الحسيـة والعقلية . . وبين «تجديـد إسـلامى» يفتـح للمعـرفـة الإنسانيـة أبـواب «المطلـق» ، ولا يقف بها عنـد «النسبـى» ، المحكـوم بـالقـدرات النسبيـة لملكـات وطـاقـات «العقـل» و«الحواس» . . «فالتأليـه» ، فى «التنوير العلمانى» ، لملكـات الإنسان . . بينما هو، فى «التجـديد الإسـلامى» ، لله سبحـانه وتعـالى ، الذى لم يترك معـارف مخلوقاته ، فقط ، لهذه الملكات ! . .

● ولقد تميـز «التنوير الغـربى» بالسيـاق التاريخى والملابسات الحضـارية والطبيعة الخاصة للنصرانية الغربية ، تلك التـى ظهر فيها ، والتى استدعته ، واستنفرته ليخوض معها صراعه الطويل والمرير . .

فالنصرانية «دين» بـلا «شريعة مدنية للشئون العمرانيـة» ، تدع ما لقيصر لقيصـر وما لله لله ، ورسالة لاهوتها : خلاص الروح . . ومهمة كنيستها : مملكة السماء . . فلما تجاوزت « البابوية» إطار «الروح» واغتصبت السلطة «الزمنية» أيضـا ، فقـدست الـدنيـوى ، وجمدت المتغير، ووضعـت الـدنيا فى قـوالـب الدين . . جاء «التنوير ـ العلمانى» ثورة تعيد البابوية واللاهوت والكنيسة إلى مواقعهـا الطبيعية والأصلية . . بينما السياق الإسـلامى والملابسات التـاريخية والحضـارية الإسلامية ، والطبيعة المتميزة للرسالة الإسلامية ، لم تعرف شيئا من هذا «الفعل» الذى جاء «التنوير الغربى» «رد فعل له» ! . .

فالإسلام قـد تميز بوسطيته الجامعـة بين «الدين» و«الدولـة» ، على النحو الذى لاتتحول فيه «الـدولة» إلى «دين خالص» ، يقدسهـا ويجمدها . . وإنما

تظل، بهذه الوسطية، «دولة . . مدنية» تحتكم إلى «الشريعة . . الإلهية»، وإلى «العقل . . والتجريب» المحكومين بضوابط «الشريعة ـ الإلهية» . . فالأمة، فى دولة الإسلام، هى مصدر السلطات، فى ظل سيادة الشريعة وحاكميتها وحدود الحلال والحرام الدينى . .

وهذا النمط الوسطى المتميز ـ فى النسق الإسلامى ـ هو الذى ميز جميع ألوان العلاقة فى ثنائيات: «الدنيا» و«الآخرة» . . «الفرد» و«المجموع» . . «الذات» و«الآخر» . . «الروح» و«المادة» . . إلخ . . إلخ . .

فافترق «التجديد الإسلامى» عن «التنوير ـ الغربى ـ العلمانى»، لاختلاف السياق والملابسات والمشكلات والتحديات . .

● ولاختلاف الملابسات، فى السياقين الحضاريين ـ الغربى . . والإسلامى ـ كان اختلاف مهمة «التنوير الغربى» عن مهمة «التجديد الإسلامى» . . فالتنوير الغربى قام ليزيح حقبة البابوية ولاهوتها من مجرى سلسلة تواصل مراحل الحضارة الغربية، فأسقط الحقبة الدينية النصرانية من سياق الحضارة والعمران، ليجعل إحياءه الحديث ونهضته الحديثة تواصلا مع الطور والحقبة التى سبقت تدين أوربا بالنصرانية . . الحقبة «الإغريقية ـ الرومانية»، ومؤسسا هذا الإحياء التنويرى على كلاسيكيات وإنسانيات أوربا قبل النصرانية . . فكأنه قد حذف من مكونات حضارته تلك «الجملة المعترضة» ـ النصرانية، على الأقل فى شئون الدنيا وميادين العمران الاجتماعى . . بينما مثل «التجديد الإسلامى» العكس تماما . . فكانت مهمة المجددين، على مر تاريخ الإسلام، تجديد خيوط الاتصال وتوثيقها بالمنابع الجوهرية والنقية للإسلام . . وإزاحة الشوائب والعقبات والبدع من قنوات الارتواء من تلك المنابع، لضمان التواصل الحضارى، وحتى يكون الإحياء دائما وأبدا إسلاميا! . .

هكذا، جعلت الفروق بين «التنوير ـ الغربى ـ العلمانى» وبين «التجديد

الإسلامى» . . جعلت منهما ـ من حيث الفلسفة . . والمنطلقات . . والمقاصد ـ نموذجين من نماذج الإحياء يقفان على طرفى نقيض ! ! . .

* * *

لكن «تلاميذ» التنوير الغربى العلمانى، فى واقعنا العربى الإسلامى، لا يرون هذه الحقائق . . بل لقد بلغ بهم الأمر إلى حد خلط الأوراق على نحو عشوائى . . فزعموا ـ إبان حملتهم التى استدعوا فيها «التنوير ـ العلمانى» ليواجهوا به « المشروع الإسلامى» فى النهضة والتغيير ـ زعموا أن «المجددين المسلمين» هم «تنويريون»، بالمعنى الغربى للتنوير، وذلك عندما وضعوا أعلام التجديد الإسلامى، الذين ارتادوا، فى عصرنا الحديث، ميادين تجديد الإسلام ليجددوا به دنيا المسلمين . . وضعوهم فى سلة واحدة مع النخبة التى انبهرت بالغرب، وتبنت فلسفته فى التنوير، ونمطه العلمانى فى النهضة والإحياء ! . .

فعندما نشروا صحائف «التنوير ـ الغربى ـ العلمانى»، التى سودها «جيل الرواد» ـ من أمثال [الإسلام وأصول الحكم] لعلى عبد الرازق . . و[مستقبل الثقافة فى مصر] لطه حسين . . وكتابات سلامة موسى . . إلخ . . إلخ . . رأيناهم قد وضعوا، وسط هؤلاء: رفاعة الطهطاوى [١٢١٦ ـ ١٢٩٠هـ ، ١٨٠١ ـ ١٨٧٣م]، وجمال الدين الأفغانى [١٢٥٤ ـ ١٣١٤هـ، ١٨٣٨ ـ ١٨٩٧م] ، والإمام محمد عبده [١٢٦٥ ـ ١٣٢٣هـ ـ ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥م] . . بل وكتبوا يقولون: لقد «كان نموذج رجل الدين الذى سعى زمن التنوير إلى تأكيده . . هو نموذج رفاعة الطهطاوى وجمال الدين الأفغانى ومحمد عبده وعبد الرحمن الكواكبى ومحمد فريد وجدى . . وتمثل التراث التنويرى فى كتب الطهطاوى وفرح أنطون وشبلى شميل وإسماعيل أدهم ولطفى السيد . . . »[٢] ! !

---

(٢) د. جابر عصفور: [محنة التنوير]، ص ٣. طبعة القاهرة، سنة ١٩٩٣م.

وهـذا الصنيـع الـذى يضـع «الإيمان» و«الإلحاد» فى سلـة واحـدة!! . .
والذى يخلـط «التنوير ـ الغـربى ـ العلمانى» بـ «التجديد الإسلامـى»، هو صنيع يـرقى فى نظـرنا إلى مستـوى «التزويـر»، الذى يستـدعى وقفـة علمية موضوعيـة نتحقق فيها، بالرجـوع إلى كتابات أعلام «التجديـد الإسلامى»، من صـدق وصحة هـذه الدعوى! . . هـل حقا يقف محمـد عبده مـع فرح أنطـون؟! . . مـع مـاكـان بينهما مـن خـلاف وسجـال؟! . . وهـل يقـف الأفغانـى، المنافح عـن «الاستقلال الحضـارى» مع دعاة استعـارة النموذج الغربى، بخيره وشره، بحلوه ومره، بما يُعاب فيه وما يُحمد، بما يُحب فيه وما يُكره؟! . . وهل يقف الطهطاوى: السنى . . الأشعـرى . . صـاحـب رسالة [القول السـديد فى الاجتهاد والتقليد] مـع إسماعيل أدهم صاحـب [لماذا أنا ملحد؟] . . . ؟! . . هل يقف «المجددون لدين الإسلام، كى تتجدد به دنيا المسلمين»، مع دعاة النهضـة العلمانية التى تطوى صفحة الإسـلام من دنيا وشئون وميادين العمران؟! . .

تلك هى القضية التى تستدعى «تحقيقا» نتبين به حجم ما فى دعواها من «تزوير» . . وهو «التحقيـق» الذى سنقف بوقائعه عند نماذج ثـلاثة من فكر هؤلاء الأعلام المجددين . . الطهطاوى . . والأفغانى . . والأستاذ الإمام! . .

١ ـ رفاعة الطهطاوى

بين التنوير الغربى.. والتجديد الإسلامى

كان رفاعة الطهطاوى [١٢١٦ ـ ١٢٩٠ هـ ، ١٨٠١ ـ ١٨٧٣ م] أول عين للشرق على الغرب فى عصرنا الحديث . . ورغم الخلل فى صور المقابلة بين حال الشرق وحال الغرب يومئذ ، إلا أن التكوين الإسلامى ـ الأزهرى ـ للرجل ، وأيضا تمثيله لمصر الناهضة بقيادة محمد على باشا [١١٨٤ ـ ١٢٦٥ هـ ، ١٧٧٠ ـ ١٨٤٩ م] يومئذ . . قد عصماه من «الانبهار» بالغرب ، ذلك «الانبهار» الذى « أدهش» آخرين ، فشل لديهم ملكات «النقد» و«التمييز» ! ! . .

بل إننا لا نعدو الحقيقة إذا قلنا بعبقرية الطهطاوى فى موقفه النقدى من الحضارة الغربية . . ذلك الموقف النقدى الذى جسد أدق المناهج وأكثرها علمية فى علاقات الحضارات المتميزة بعضها بالبعض الآخر . منهج اكتشاف ميادين الفكر التى تمثل «المشترك الإنسانى العام» ، والدعوة إلى استلهامها . . وتلك التى تمثل «الخصوصيات الحضارية» ، والدعوة إلى الاحتفاظ بالهوية الخاصة والمتميزة فيها ! ! . .

فالطهطاوى ، الذى قرأ أعمال فلاسفة التنوير الغربى العلمانى ، رأيناه قد ميز بين :

● الفلسفة الوضعية ، التى أثمرتها فلسفة التنوير ، تلك التى وقفت ، فى

سبل المعـرفة عنـد «العقل والتجـريب»، رافضـة«الوحـى والشرع». . وبين «علوم التمدن المدنى ـ الطبيعية ــ التجريبية». . فقبل الثانية، لأنها «مشترك إنسـانى عـام»، ورفـض الأولى، داعيا إلى ضرورة الاعتماد على «الشرع» مـع «العقل. . والتجريب». . وهذا هو منهج الإسلام، الرافض لمنهاج «التنوير ـ الغربى ـ العلمانى»! . .

● كـذلك، رفـض الطهطـاوى ـ مـع «الوضعيـة» التـى تعتمد «العقـل المجرد. . والنواميس الطبيعية» وحدهما ـ «العلمانية»، التى تجعل «العقل. . والدنيا» مرجعية للقانـون، دون الشرع الإلهى. . فرأيناه يدعو إلى التتلمذ على أوربا فى العلـوم الطبيعية والمدنية، التـى سبق وأخـذتها عن المسلمين، لأنها هـى المشترك الإنسانـى العـام بين كل الحضـارات، . . مـع إحياء وتجديـد وتقنين الشريعة الإسـلامية والفقـه الإسلامى، ليـواكب القـانون الإسـلامى مستجـدات «الـوقـت. . والحال». . فنـأخـذ عـن أوربـا علـوم «التقـدم الوطنى»، ونغترف قوانيننا من «بحر الشريعة الغراء، الذى لم يدع صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها وأحياها بالسقى والرى»!! . .

● كـذلك رفـض الطهطـاوى «علمانيـة التنويـر الغـربـى»، تلك التـى «هَمَّشَت» الدين والتدين فعزلته عـن شئون الحياة وميادين العمران. . رفض الطهطـاوى «وضعية التنـويـر الغربـى. . وعلمانيتـة». . ودعـا إلى مرجعيـة «الشرع. . والعقـل. . والتجريـب»، بدلا مـن مرجعيـة «العقل المجـرد. . والنـواميس الكـونيـة» وحدهما. . ودعـا إلى «إسـلاميـة» الدولـة والاجتماع، «بإسلامية القانون». . كما دعا إلى إقـامة العمران البشرى والمعارف الإنسانية على كتابـى: «الوحـى» و«الوجـود». . . فكان النمـوذج المتميز «للتجـديد الإسلامى» عن «التنوير ـ الغربى ـ العلمانى». .

وإذا كانت كتـابات الرجل ــ عبر أعمال ومراحل مشروعه الفكـرى ـ هى شاهـدنا على هـذا الذى نقـول، فنقذف بحقه على بـاطل «تـلاميذ التنـوير

الغربى»، ليدمغه فيزهقه!! . . فإننا سنختار من هذه الكتابات نصوصا قاطعة الدلالة على هذه الحقائق، وأيضا شاهدة على تمثيلها لموقفه الثابت من هذه القضايا، منذ أن كتب كتابه الأول ـ وهو فى باريس ـ [تخليص الإبريز فى تلخيص باريز] ـ وحتى نهايات مشروعه الفكرى . .

● فهو يرفض العلمانية الغربية، التى «همشت» الدين، وعزلته عن شئون العمران الدنيوى، وجعلته شأنا فرديا خاصا . . حتى لقد أشاعت «الكفر» فى باريس، جاعلة فيها تلك «المفارقة» بين «التقدم فى العلوم المدنية» وبين الفلسفة اللادينية، فلسفة «البدع والضلالات» . . يرفض الطهطاوى هذا . . بل ويصوغ هذا الرفض شعرا يبدأ به هذا الموقف النقدى، المحتكم للمعايير الإسلامية، فيقول :

«أيوجد مثل باريس ديار شموس العلم فيها لا تغيب
وليل الكفر ليس له صباح أَمَا هذا، وحقكم، عجيب!

فهذه المدينة، كباقى مدن فرنسا وبلاد الإفرنج العظيمة، مشحونة بكثير من الفواحش والبدع والضلالات، وإن كانت من أحكم بلاد الدنيا وديار العلوم البرانية . . التى تجلب الأنس وتزين العمران .

إن أكثر أهل هذه المدينة إنما له من دين النصرانية الاسم فقط، حيث لا يتبع دينه، ولا غيرة له عليه، بل هو من الفرق المُحَسِّنَة والمُقَبِّحَة بالعقل . أو فِرْقَة من الإباحيين الذين يقولون إن كل عمل يأذن فيه العقل صواب . . ولذلك فهو لا يصدق بشيء مما فى كتب أهل الكتاب، لخروجه عن الأمور الطبيعية . إن كتب الفلسفة بأسرها محشوة بكثير من البدع المخالفة لسائر الكتب السماوية»! . .

● ثم يبلغ الطهطاوى قمة الحسم فى رفض «التنوير ـ الغربى ـ العلمانى»، الذى أقام المعرفة الوضعية على «العقل المجرد» . . و«النواميس

الطبيعية» وحدهما ، قائلا إنه لا عبرة بتحسين العقل والتجريب أو تقبيحهما إلا إذا انضم «الشرع . . والوحى» إليهما فى التحسين والتقبيح . . يبلغ فى هذا الموقف النقدى قمة الحسم ، فيقول : «إن تحسين النواميس الطبيعية لا يُعْتَدّ به إلا إذا قرره الشارع . . والتكاليف الشرعية والسياسية ، التى عليها نظام العالم ، مؤسسة على التكاليف العقلية الصحيحة ، الخالية عن الموانع والشبهات ، لأن الشريعة والسياسة مبنيتان على الحكمة المعقولة لنا أو التعبدية التى يعلم حكمتها المولى سبحانه ، وليس لنا أن نعتمد على مايُحَسِّنُه العقل أو يُقَبِّحُه إلا إذا ورد الشرع بتحسينه أو تقبيحه . .

والذى يرشد إلى تزكية النفس هو سياسة الشرع . . ومرجعها الكتاب العزيز . . الجامع لأنواع المطلوب من المعقول والمنقول ، مع ما اشتمل عليه من بيان السياسات المحتاج إليها فى نظام أحوال الخلق ، كشرع الزواجر المفضية إلى : حفظ الأديان ، والعقول ، والأنساب ، والأموال ، وشرع مايدفع الحاجة على أقرب وجه يحصل به الغرض ، كالبيع والإجارة والزواج وأصول أحكامها .

فكل رياضة لم تكن بسياسة الشرع لا تثمر العاقبة الحسنى .

ولا عبرة بالنفوس القاصرة ، الذين حَكَّموا عقولهم بما اكتسبوه من الخواطر التى ركنوا إليها تحسينا وتقبيحا ، وظنوا أنهم فازوا بالمقصود ، بتعدى الحدود .

فينبغى تعليم النفوس السياسة بطرق الشرع لا بطرق العقول المجردة .

ومعلوم أن الشرع لا يحظر جلب المنافع ولا درء المفاسد ، ولا ينافى المتجددات المستحسنة التى يخترعها من منحهم الله تعالى العقل وألهمهم الصناعة . . »[1] !

---

(١) الطهطاوى : [الأعمال الكاملة] ، جـ٢ ، ص ١٥٩ ، ١٦٠ , ٧٩ , ٣٢ , ٤٧٧ , ٣٨٦ ، ٣٨٧ . دراسة وتحقيق : د. محمد عمارة . طبعة بيروت ، سنة ١٩٧٣م .

فعلى حين رفع فلاسفة التنوير الغربى شعار : «لا سلطان على العقل إلا للعقل» ، قال الطهطاوى عنهم : «لا عبرة بالنفوس القاصرة ، الذين حَكَّموا عقولهم» المجردة وحدها ، دون الشرع ! ! . .

وعلى حين قال «التنويريون العرب» ، من جيل «الرواد» : إن الدين لا علاقة له بالسياسة ، وليس مقوما من مقومات الدولة وسياستها . . قال الطهطاوى : إن السياسة ، كالشريعة ، مبنيتان على «الحكمة المعقولة لنا» أو «التعبدية» التى جاء بها الوحى عن الله ، سبحانه وتعالى . . «وكل رياضة لم تكن بسياسة الشرع لا تثمر العاقبة الحسنى»! . .

وعلى حين قال «تلاميذ التنوير المعاصر» ، عندنا : «إن العقل قرين التجريب . . والعقل ضد النقل»! . . قال الطهطاوى : « . . ينبغى تعليم النفوس السياسة بطرق الشرع ، لا بطرق العقول المجردة» ! ! . .

فأى «تزوير» ذلك الذى يضع الطهطاوى ، «المجدد الإسلامى» ، فى سلة ذلك «التنوير ـ الغربى ـ العلمانى»؟ ! . .

● وفى الوقت الذى أقام فيه «التنوير ـ الغربى ـ العلمانى» معارفه على ساق واحدة ، هى «كتاب الكون المنظور» ، رافضا اعتماد الوحى ـ كتاب الله المقروء ـ مصدرا لهذه المعارف . . رأينا الطهطاوى منافحا عن المنهاج الإسلامى الذى يقيم المعارف الإنسانية على كتابى : الوحى ، والكون ، لتجمع بين علوم الشرع والطبيعة ، فيتحدث عن الآمال المعلقة على أهل الأزهر الشريف ، فى أن يضيفوا «**المعارف البشرية المدنية**» إلى «**المعارف الشرعية**» ، فيقول : «إن مدار سلوك جادة الرشاد والإصابة ، منوط ـ بعد ولى الأمر ـ بهذه العصابة ـ [عصبة طلاب الأزهر وعلمائه] ـ التى ينبغى أن تضيف إلى ما يجب عليها من نشر:

(أ) السنة الشريفة ، ورفع أعلام الشريعة المنيفة .

(ب) معرفة سائر المعارف البشرية المدنية، التى لها مدخل فى تقدم الوطنية. . »

ويؤكد على أن مطالبنا ومقاصدنا وغاياتنا من التواصل مع الغرب الحضارى، ليست استعارة خصوصياته وإنسانياته وفلسفاته المغايرة لإسلاميتنا، وإنما استعادة « العلوم الحِكْمِيَّة» . . الطبيعية . . التى هى مشترك إنسانى عام . . تلك التى أخذها المسلمون عن اليونان، ثم طوروها، وأخذها الأوربيون عن المسلمين، ثم طوروها . . فهى طلبتنا وغايتنا، وليست «وضعية العقل لا النقل» ولا «تنوير: لا سلطان على العقل إلا للعقل»!! . . ينبه الطهطاوى على حقيقة تمثيل هذه العلوم الطبيعية . . المادية . . الموضوعية . . المحايدة «للمشترك الإنسانى العام»، فيقول لأهل الأزهر: « . . وإن هذه العلوم الحِكْمِيَّة العملية، التى يظهر الآن أنها أجنبية، هى علوم إسلامية، نقلها الأجانب إلى لغاتهم من الكتب العربية، ولم تزل كتبها إلى الآن فى خزائن ملوك الإسلام كالذخيرة»[٢]! . .

يقول هذا، لا «ليسهل» قبول هذه العلوم على قومه . . فلم يقل ذلك عن فلسفة الغرب ووضعيته وتنويره وعلمانيته . . وإنما قال ذلك فقط عن «العلوم الحِكْمِيَّة العملية»، علوم «التمدن المدنى»، وهى غير الفلسفات والإنسانيات . . فكان عبقريا إسلاميا فى تمييزه بين ما يقبل وما يرفض فى تفاعل الحضارات! . .

● وعلى حين عزلت «علمانية التنوير الغربى» الدين عن «عرش القانون»، وأجلست مكانه «إرادة الإنسان»، حتى ولو أحلت الحرام الدينى وحللت الحرام الدينى . . و«المصلحة» المجردة من «الاعتبار الشرعى» . . وما أسمته بـ «القانون الطبيعى» ـ الذى لم تقل لنا من الذى وضعه؟! . .

---

(٢) المصدر السابق . جـ ١ ، ص ٥٣٣، ٥٣٤ .

على حين صنعت «علمانية التنوير الغربى» ذلك مع القانون. . وسار على دربها «التنويريون العرب» ، فصاح على عبد الرازق : «يا بعد ما بين السياسة والدين»! . . ونفى طه حسين أن يكون الدين أو اللغة من مقومات بناء الدولة. . وتخندق «تلاميذهم» دفاعا عن «القانون الوضعى»، ذى الفلسفة الغربية فى التشريع ، وضد «إسلامية القانون» فى المجتمعات الإسلامية. . على حين تميز «التنوير العلمانى» ـ فى بلاد النشأة . . وفى دوائر «التبعية»! ـ بهذا الموقف من الشريعة الإسلامية. . كان الطهطاوى واضحا وحاسما فى الرفض لعلمانية القوانين فى بلادنا ، بعد أن رفض علمنتها فى الواقع الغربى ، على النحو الذى سبقت إشارتنا إليه . .

فعندما ترجم [مجموع قوانين نابليون]، نبه فى تقديمه لطبعته ، سنة ١٢٨٣هـ ـ ١٨٦٦م ، على أن الغرض من ترجمته هو الإحاطه بالقوانين التى يحكم بها التجار الأجانب فى بلادهم ، لنكون على دراية بها أثناء المخالطات والمعاملات التجارية الخارجية معهم ، وذلك «**حتى لا يجهل أهل هذا الوطن أصول الممالك الأخرى** ، لا سيما وأن علاقات الاقتضاء ، ومناسبات الأخذ والعطاء ، تدعو **إلى الإلمام بمثل تلك الأصول الوضعية ، ليكون من يتعامل معهم فى تسوية الأمور على بصيرة** . . . »[٣]!

فلم تكن ترجمة [مجموع قوانين نابليون] ـ «الوضعية» ـ لتكون قانون الحكم والتقاضى فى بلاد المسلمين! . .

وعندما ترجم الطهطاوى [قانون أحكام التجارة] ـ من مجموعة قوانين نابليون ـ نبه مرة ثانية فى مقدمة طبعتها ، سنة ١٢٨٥هـ ـ ١٨٦٨م على أن الغرض من ترجمتها هو «**معرفة أرباب التجارة عندنا بقوانين المعاملة الجارية عند الأجانب ، والاطلاع عليها لمن يعقد عقود التجارات معهم**»[٤]! . . وليس استبدالها بالفقه الإسلامى فى المعاملات التجارية!! . .

---

(٣) المصدر السابق . جـ٥ ، ص ٣٦٧ . طبعة بيروت ، سنة ١٩٨١م

(٤) المصدر السابق . جـ ٥ ، ص ٣٦٩ .

فلما لمح الطهطاوى بداية الثغرة التى تسرب منها القانون الوضعى الغربى، جزئيا، إلى دائرة جزئية محدودة، هى الفصل فى المنازعات بين التجار المصريين والأجانب فى «المجالس التجارية المختلطة»، أواخر ستينيات القرن التاسع عشر، عندما زادت المخالطات والمعاملات مع أوربا، بعد عقد امتياز حفر «قناة السويس». . عند ذلك هب الرجل مدافعا عن جدارة الشريعة الإسلامية بأن تكون لها الحاكمية فى القانون كله، وعن كفاءتها فى الوفاء بجميع مقتضيات «الوقت والحال»، إذا نحن نهضنا بالاجتهاد فيها والتقنين لتراثها . . . فكتب يقول :

«إن مخالطات تجار الغرب ومعاملتهم مع أهل الشرق أنعشت نوعا همم هؤلاء المشارقة، وجددت فيهم وازع الحركة التجارية، وترتب على ذلك نوع انتظام، حيث ترتب الآن فى المدن الإسلامية مجالس تجارية مختلطة لفصل الدعاوى والمرافعات بين الأهالى والأجانب بقوانين فى الغالب أوربية، مع أن المعاملات الفقهية لو انتظمت، وجرى عليها العمل، لما أَخَلَّت بالحقوق، بتوفيقها على الوقت والحالة، مما هو سهل العمل على من وفقه الله لذلك من ولاة الأمور المستيقظين . . ولكل مجتهد نصيب . . ومن أمعن النظر فى كتب الفقه الإسلامية، ظهر له أنها لا تخلو من تنظيم الوسائل النافعة من المنافع العمومية، حيث بوبوا للمعاملات الشرعية أبوابا مستوعبة للأحكام التجارية، كالشركة، والمضاربة، والقرض، والمخابرة، والعارية والصلح، وغير ذلك.

إن بحر الشريعة الغراء، على تفرع مشارعه، لم يغادر من أمهات المسائل صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها وأحياها بالسقى والرى، ولم تخرج الأحكام السياسية عن المذاهب الشرعية، لأنها أصل، وجميع مذاهب السياسات عنها بمنزلة الفرع . . . »[٥]! . .

---

(٥) المصدر السابق. جـ١، ص ٥٤٤، ٣٦٩، ٣٧٠.

هـذا هو رفـاعـة الطهطـاوى . . يدعـو هنـا إلى «إسـلامية القـانـون»، ويتحدث عـن «بحر الشريعـة الغراء، المتفرع المشـارع، الذى لم يغـادر من أمهات المسائل صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها وأحياها بالسقى والرى»! . .

والذى ارتاد ميدان «اليقظة الإسلاميـة الحديثة»، عندما دعا «ولاة الأمور المستيقظين المجتهدين» إلى «تـوفيق تراثنا فى الفقه الإسـلامى على مقتضيات الوقت والحالة»، تحقيقا لمتطلبات «إسلامية القانون»! . .

وهو الـذى دعا ــ كما سبقت إشارتنـا ـ إلى «إسلاميـة مصادر المعـرفة»، باعتماد «الشرع» مع «النواميس الطبيعية» . . رافضـا اكتفاء «التنوير الغربى» بهذه «النواميس الطبيعية»، وإهداره للوحى والشرع . .

كما دعا إلى «إسلامية سبل المعرفـة»، عندما رفض التحسين والتقبيح ـ فى «التنويـر الغربـى» ـ بالعقـل المجرد والتجـريب وحـدهما، معلقا التحسين والتقبيح بالعقـل على تأييد الشرع لهذا التحسين والتقبيح . . مصـدرا حكمه على فلسفة التنـوير الغـربى بأن «كتبهـا بأسرها محشـوة بكثير من الفـواحش والبدع والضلالات المخالفة لسـائر الكتب السماوية»!! . . ومصدرا حكمه أيضا على فـلاسفة «التنويـر ـ الغربى ــ العلمانى» بأنهم أصحـاب «النفوس القاصرة، الـذين حكّمـوا عقولهم بما اكتسبـوه من الخواطـر التى ركنـوا إليها تحسينا وتقبيحا، وظنوا أنهم فازوا بالمقصود، بتعدى الحدود . . حدود الشرع وسياستـه المبنية على الحكمـة المعقولة لنـا، أو التعبديـة التى يعلـم حكمتها المولى سبحانه . . »!!

هذا هو الطهطاوى . . المجدد الإسلامى . . الذى يحشره «تلامذة التنوير ــ الغربـى ـ العلمانـى» فى زمرة سـلامـة موسـى . . وشبلى شميل . . وفـرح أنطـون . . وإسماعيـل أدهـــم . . وأمثـالهم مـن دعـاة «العلمانيـــة»، ونـزع «الإسلامية» عن الـدولة والقانون والمجتمع والعمران . . بـل ومن الدعاة إلى «الإلحاد»!! . .

فهل هناك «تزوير» أكثر من هذا الذى يقترفه «تلامذة التنوير»؟! . .

٢- جمـال الدين الأفغانى

بين التنوير الغربى.. والتجديد الإسلامى

عنـدما يـوضع جمال الـديـن الأفغانـى [١٢٥٤ ـ ١٣١٤هــ، ١٨٣٨ ـ ١٨٩٧م] ـ صاحـب [الرد على الدهريين] ـ مـع إسماعيل أدهـم [١٣٢٩ ـ ١٣٥٩هـ، ١٩١١ ـ ١٩٤٠م] ـ صاحـب [لماذا أنا ملحد؟] ـ فى «سلة » واحدة ، هى «سلة» «التنوير ـ الغربى ـ العلمانى» ، فإننا نكون بإزاء لون من الجرأة على الحق والحقيقة ، تفقـد أصحابها الحد الأدنى مـن عدالة المفكـرين وأمانة العلماء! . .

وعندمـا يوضع الأفغـانى ، «مـوقظ الشرق» ، و«فيلسوف الإسـلام» ، مع سـلامة مـوسـى [١٣٠٥ ـ ١٣٧٧هــ، ١٨٨٨ ـ ١٩٥٨م] الذى قـال إن الرابطـة الشرقية سخـافة ، والـرابطة الـدينية وقـاحة!! . . فـإننا نكـون بإزاء مستوى جرىء من مستويات «التزوير»!! . .

بل إنه عندما يوضع الأفغانـى وطه حسين فى «مدرسة نهضوية» واحدة ، بزعم أنهما من رموز «التنـوير» ـ بالمعنى الغربى ـ فـإن الأمر يحتاج إلى مراجعة وتحقيق وتصحيح . . فطـه حسين ، فى مرحلة انبهاره بـالتنوير الغربـى ، هو الذى قال ـ فى كتابه [مستقبل الثقافة فى مصر] ـ : إن سبيلنا إلى النهضة هو سبيل أوربا ، فـالطريق واحدة فـذة ليس لها تعدد « أن نسير سيرة الأوربيين ونسلك طريقهم»[١] . . بينما الأفغـانـى هو الـداعـى ، فى النهضـة ، إلى أن

(١) [مستقبل الثقافة فى مصر]، جـ١ ، ص ٤٥ .

يتمسك الشرقيون «بالأصول التى كان عليها آباؤهم وأسلافهم . . » ، والمحذر من سلوك الطريق الغربى فى النهضة الشرقية ، إذ «لا ضرورة ، فى إيجاد المنعة ، إلى اجتماع الوسائط وسلوك المسالك التى جمعها وسلكها بعض الدول الغربية الأخرى . ولاملجئ للشرقى فى بدايته أن يقف موقف الأوربى فى نهايته ، بل ليس له أن يطلب ذلك . وفيما مضى أصدق شاهد على أن من طلبه - [من دعاة التحديث على النمط الغربى] - فقد أوقر [أعجز] نفسه وأمته وِقْرًا وأعجزها وأعوزها»[٢]!!

وإذا كان دعاة « التنوير - الغربى - العلمانى » ، فى وطن العروبة وعالم الإسلام ، من جيل «الرواد» كانوا أم من جيل «التلاميذ» ، قد اجتمعوا على تبنى نموذج التحديث الغربى ، حتى لقد اعتبر طه حسين أننا «ملزمون» بذلك أمام أوربا !! . . إذ «التزمنا أمام أوربا أن نذهب مذهبها فى الحكم ، ونسير سيرتها فى الإدارة ، ونسلك طريقها فى التشريع»![٣] ! - على حد قوله ، بل «اعترافه»!! - . . فإن جمال الدين الأفغانى هو الذى أدان نقل «التمدن الغربى» لينهض به الشرق الإسلامى ، حتى لقد عد أنصاره ، من دعاة «التنوير - الغربى» ، «عملاء» يمثلون ثغرات فى جدار المقاومة الحضارية للأمة ، بل وطلائع لجيوش الأعداء ، يمهدون لهم السبيل ، ويفتحون الأبواب ، ثم يثبتون أقدامهم !! . . فكتب فى إدانة «التحديث على النمط الغربى» ، و«التمدن الأوربى» الذى استورده العثمانيون ، واستلهمته مصر فى عصر محمد على باشا [١١٨٤ - ١٢٦٥هـ ، ١٧٧٠ - ١٨٤٩م] . . كتب الأفغانى فى إدانة هذا «التحديث الغربى» يقول : «لقد شيدالعثمانيون عددا من المدارس على النمط الجديد ، وبعثوا بطوائف من شبانهم إلى البلاد

---

(٢) [الأعمال الكاملة] ، ص ٥٣٣ . دراسة وتحقيق : د . محمدعمارة . طبعة القاهرة ، سنة ١٩٦٨م .

(٣) [مستقبل الثقافة فى مصر] ، جـ ١ ، ص ٣٦ .

الغربية ليحملوا إليهم مايحتاجون إليه من العلوم والمعارف والآداب، وكل ما يسمونه «تمدنا»، وهو، فى الحقيقة، تمدن للبلاد التى نشأ فيها على نظام الطبيعة وسير الاجتماع الإنسانى!

فهل انتفع المصريون والعثمانيون بما قدموا لأنفسهم من ذلك، وقد مضت عليهم أزمان غير قصيرة؟!.. نعم، ربما وجد بينهم أفراد يتشدقون بألفاظ الحرية والوطنية والجنسية وماشاكلها.. وسموا أنفسهم: زعماء الحرية!.. ومنهم آخرون قلبوا أوضاع المبانى والمساكن وبدلوا هيئات المآكل والملابس والفُرش والآنية، وسائر الماعون، وتنافسوا فى تطبيقها على أجود ما يكون منها فى الممالك الأجنبية، وعدوها من مفاخرهم.. فنفوا بذلك ثروة بلادهم إلى غير بلادهم!.. وأماتوا أرباب الصنائع من قومهم!.. وهذا جدع لأنف الأمة، يشوه وجهها، ويحط بشأنها!..

لقد علمتنا التجارب أن المقلدين من كل أمة، المنتحلين أطوار غيرها، يكونون فيها منافذ لتطرق الأعداء إليها.. وطلائع لجيوش الغالبين وأرباب الغارات، يمهدون لهم السبيل، ويفتحون الأبواب، ثم يثبتون أقدامهم[4]!!..».

فكيف يوضع صاحب هذه «الإدانة» لتحديث الشرق بالتنويرالغربى مع دعاة هذا التحديث بذلك التنوير؟!..

* * *

وإذا كان «التنوير ــ الغربى ـ العلمانى» قد أزاح الدين من مرجعية النهضة والدولة والاجتماع والعمران.. ووقف بهذه المرجعية عند الواقع المادى، وعند العقل والتجريب.. وجاء الذين انبهروا به من مفكرينا ومثقفينا فاجتمعوا جميعا على هذا الاستبعاد للدين من مرجعية النهضة

(٤) [الأعمال الكاملة]، ص ١٩٥ ـ ١٩٧.

المنشـــودة . . فقـــال على عبـد الـــرازق [١٣٠٥ ــــ ١٣٨٦هــــ، ١٨٨٧ ـ ١٩٦٦م] : «يا بعد ما بين السياسية والدين»[٥]! . . وقال طه حسين : «إن وحدة الدين، ووحدة اللغة، لا تصلحان أساسا للوحدة السياسية ولا قواما لتكوين الدول»[٦]! . . وقال سلامـة موسى : «إنه إذا كانت الـرابطة الشرقية سخافة، فإن الـرابطة الدينية وقاحة، وإننا أبنـاء القرن العشرين أكبر من أن نعتمدعلى الدين جامعة تربطنا . . والرابطة الحقيقية هى رابطتنا بأوربا، التى أخـذنا عنهـا حضارتنـا وثقافتنـا» [٧]! . . حتـى لقـد عد رابطـة «الجامعـة الإسلامية : ردة عن الوطنية»[٨]؟ ! .

إذا كان هذا هو موقف «التنوير ـ الغربـى» من الدين ـ وهو موقف دعاته مـن «النخبة» التـى انبهرت بـه ـ فكيـف يوضـع الأفغانـى فى هذا المعسكـر الفكـرى . . وهو الـرجل الـذى أصبـح علما، فى تراثنـا الحديث على تيـار: النهضـة الإسلاميـة، وتجديد ديـن الإسلام لتتجـدد به دنيـا المسلمين؟! . . وعلما على الدعوة إلى رابطة «الجامعةالإسلامية»؟! . .

إن إسلامية النهضة لوطن العروبة وعالم الإسلام، واعتمادالإسلام مرجعية أولى وأساسيـة لتجديد شباب النهضـة الإسلامية، كما كـان المرجعية الأولى والأساسية للنهضـة الإسلامية الأولى، كان مـذهـب الأفغانى، الـذى عاش له، وجاهد فى سبيله، ومات منافحا عنـه، وأقام له فى واقعنا ركائز فكرية، وتيـارًا نهضـويا لا زالـت امتـداداته وصـوره المعـاصرة قائمـة وفـاعلة حتـى الآن . . . بل إننـا نستطيع أن نقـول إن هذا التيـار وهذا المذهـب فى إنهاض الأمـة بـالإسـلام، وفى اعتماد الإسـلام المرجعيـة الأولى فى النهـوض، أى فى «إسـلاميـة العمـران والنهضـة والحيـاة الإسـلاميـة» هـو النقيـض لمذهـب

---

(٥) [الإسلام وأصول الحكم]، ص ٦٩ .   (٦) [مستقبل الثقافة فى مصر] ، جـ ١ ، ص ١٦ .

(٧) [اليوم والغد]، ص ١٨٧ ـ ١٨٩ .   (٨) المرجع السابق . ص١٩٢ .

«التنـوير ــ الغربـى ـ العلمانـى» الذى استعـاره نفر مـن أبناء أمتنـا طريقـا للتحديث ! . .

إننا لو ذهبنا لنجمـع نصوص الأفغانى التى كتبها فى « إسـلامية النهضة والعمران» لاحتجنا إلى جمع الجزء الأكبر من أعماله الفكـرية . . ولذلك ، فلا مفر من الوقوف عند نماذج شاهدة من هذه النصوص . .

● لقد كـان مذهبـه واضحا وحـاسما فى مرجعيـة الديـن ، كالمقـوم الأول للاجتماع الإنسانى . . «**فالديـن : قوام الأمم ، وبه فلاحهـا ، وفيه سعادتها ، وعليه مدارها . .**»[٩] .

والعقائد الأسـاسية التى تمثـل حوافـز الإنسان إلى النهوض ، والتـى هى بمثابة الأركان لـوجود الأمم والأعمدة لبنيان اجتماعها ومـدنيتها ، هى عقائد جاء بها الديـن . . فلقد «**أكسب الـدين عقول البشر ثـلاث عقائد ، وأودع نفـوسهم ثـلاث خصال ، كـل منها ركـن لـوجود الأمـم وعماد لبناء هيئتهـا الاجتماعيـة وأسـاس محكـم لمدنيتهـا ، وفى كـل منهـا سـائق يحث الشعـوب والقبـائل على التقدم لغـايـات الكمال والرقـى إلى ذرى السعـادة ، ومن كـل واحدة وازع قـوى يباعـد النفوس عـن الشر ، ويزعهـا عن مقـارفة الفسـاد ، ويصدها عن مقاربة مايبيدها ويبددها :**

العقيـدة الأولى : التصديـق بـأن الإنسـان ملـك أرضـى ، وهـو أشرف المخلوقات .

والثانيـة : يقين كل ذى دين بأن أمتـه أشرف الأمم ، وكل مخالـف له فعلى ضلال وباطل .

والثالثـة : جزمه بأن الإنسـان إنما ورد هذه الحياة الدنيـا لاستحصال كمال يهيئه للعروج إلى عالم أرفع وأوسع من هذا العالم الدنيوى . . .» [١٠] .

---

(٩) [الأعمال الكاملة] ، ص ١٣١ .   (١٠) المصدرالسابق . ص ١٤١ .

فـأركان وجـود الأمم . . وأعمـدة بنيان هيئتهـا الاجتماعية . . والأسـس المحكمةللمـدنية . . وحوافـز التقدم والارتقـاء ، هى العقائد التـى تكتسبها عقول البشر من الدين ! ! . .

فهل فى هـذا المذهب ما يجمـع صاحبه بفـلاسفة «التنـوير ـ الغـربى» ، القـائمة على نقـض الـدين ، واستبعـاده من مـرجعيـة النهضة ، والاكتفـاء والاستغناء عن الدين بالعقل والتجريب؟ ! . .

● وإذا كانت «السعـادة» هى المقصد الأعظم للإنسـان ، فى هذه الحياة ، وفيها وراءها . . كـانت كذلـك قديما وما زالـت ، وستظل المقصد الإنسـانى الأعظم . . فإن الأفغـانى يقطع بأن « السبب المفرد» لهذه السعـادة الإنسانية هو الـدين ! . . « . . **فلـم تبـق ريبة أن الـديـن هـو السبب المفـرد لسعـادة الإنسان»** . فلو قام الدين على قواعد الأمر الإلهى الحق ، ولم يخالطه شىء من أباطيل من يـزعمونه ولا يعرفونه ، فلا ريـب أنه يكون سببا فى **السعادة التامة والنعيم الكـامل** ، ويذهب بمعتقـديه فى **جـواد الكمال** الصورى والمعنوى ، ويصعـد بهم إلى ذروة **الفضـــل** الظاهـرى والباطنى ، ويـرفع **أعلام المدنية** لطلابها ، بل يفيض على التمدين من ديم الكمال العقلى والنفسى ما يظفرهـم بسعادة الدارين . . . » [(١١)].

فالسعـادة التامة . . والنعيـم الكامل . . والكمال الصـورى والمعنوى . . وذروة الفضـل الظـاهرى والبـاطنـى . . والمدنيـة المتميـزة بـالكمال العقلى والنفسى ـــ أى المادى والروحى ـ . . كـل هذه الفضائل والنعم مـن ثمرات الدين ! !

فهل فى هذا وجه شبه مع «التنوير ـ الغربى ـ العلمانى» الذى صنع إحياء حضاريا مجردا من الدين؟ ! . .

---

(١١) المصدر السابق . ص ١٧٣ .

● وإذا كانت «النخبة» التى تغربت، قد بررت تبنيها للنموذج الغربى فى التنوير والنهضة . . بدعوى تماثل تطورنا الحضارى وتطور الغرب الحضارى، ومن ثم تماثل المشكلات، وتماثل الحلول . . فصوَّر على عبدالرازق إسلامنا ـ كالنصرانية ـ دينا لا دولة، ورسالة روحية لا شائبة فيها للحكم والسياسة!! . . وصور رسولنا، ﷺ، داعيا ومبلغا لرسالة دينية، لم يأخذ الناس بشريعتها، ولم يقم فيهم دولة ولا حكومة . . كما كان حال الخالين من الرسل، الذين وقفوا عند حدود البلاغ!! . . وصور طه حسين عقلنا بأنه يونانى . . ولم يغير القرآن من يونانيته، كما لم يغير الإنجيل من يونانية العقل الأوربى، لأن القرآن ـ كما زعم ـ لا يعدو أن يكون مصدقا للإنجيل!! . . واجتمع هؤلاء «التنويريون ـ العلمانيون» على إقامة التناقض بين «العقل» و«النقل»، فدعوا إلى «عقلانية» لا سلطان للنقل فيها، حتى لقد كتب أحدهم يقول ملخصا مذهبهم فى «التنوير»: «**إن التجريب قرين العقل . . والعقل نقيض النقل**»[(١٢)] . . فخيروا الناس بين عقلانية لا نقل فيها ـ أى عقلانية ملحدة ـ وبين دين ووحى ونقل، زعموا استحالة قبوله للعقل والعقلانية!! . . إذا كان هذا هو مذهب أهل «التنوير ـ الغربى ـ العلمانى» . . فكيف يسوغ لعاقل أن يضع فى سلتهم هذه جمال الدين الأفغانى، وهو الذى تحدث عن تفرد الإسلام على كل الديانات الأخرى بـ«العقل» و«البصيرة»، أى جمعه بين «العقل» و«الوجدان»، كسبل للمعرفة، ومن ثم انتفاء التناقض الذى نفذ منه «التنوير ـ الغربى» إلى قلعة اللاهوت النصرانى الأوربى؟! . .

يقول الأفغانى عن هذه الخصوصية الإسلامية الجامعة «للعقل» و«البصيرة» إلى الحد الذى أصبح فيه «العقل الإسلامى» هو «مشرق

---

(١٢) د. جابر عصفور: «عن التجريب والدولة المدنية» ـ صحيفة [الحياة]، عدد ١٣ يونيو، سنة ١٩٩٣م.

الإيمان» ، والسماء التى تشرق فيها شمس العقلانية الإسلامية المتميزة! ! يقول ـ هـذا المجدد ـ الـذى «يزوّر» المتغربـون الحديث عنه ليضعـوه فى سلة شبلى شميل ، وفـرح أنطون ، وسلامة مـوسى ، وإسماعيل أدهـم ـ! . . «إن الدين الإسلامى يكاد يكون متفردا بين الأديان بتقـريع المعتقدين بلا دليل ، وتوبيخ المتبعين للظنون ، وتبكيـت الخابطين فى عشواء العمايـة ، والقدح فى سيرتهم . هذا الـدين يطـالب المتـدينين أن يأخـذوا بالبرهـان فى أصول دينهـم ، وكلما خاطب خاطـب العقل ، وكلما حاكم حاكم إلى العقل ، تنطـق نصوصه بأن السعادة من نتـائج العقل والبصيرة ، وأن الشقاء والضلالة من لـواحق الغفلة وإهمال العقل وانطفـاء نور البصيرة . . وقلما يوجد مـن الأديان مايسـاويه أو يقاربـه فى هذه المزية ، وأظـن غير المسلمين يعترفون لهذا الديـن بهذه الخاصة الجليلة . . .

إن العقل مشرق الإيمان ، فمن تحول عنه فقد دابر الإيمان . وإن فرقا بين ما لايصل العقـل إلى كنهه ، فيعرفـه بأثره ، وبين ما يحكـم العقل باستحـالته . فالأول معروف عند العقـل ، يقر بوجوده ، ويقف دون سرادقات عـزته . أما الثانى فمطـروح من نظره ، ساقط مـن اعتباره ، لايتعلق به عقـد من عقوده ، فكيف يصدق به وهو قاطع بعدمه؟ ! »(١٣) .

فهذا المذهب الإسلامى فى «العقلانية الإسـلامية» المتميزة ، يؤاخى ما بين «العقل» و«الإيمان» ، إلى الحد الذى يجعل فيه « العقل مشرق الإيمان» ، بدون «سمائه» لا يمكن أن يطلـع ويشرق « الإيمان» . . وهو مذهب يُـؤَذِّن فى أهل الفكر والرأى بتميز إسلامى يجعل من تصور مشكلات تطورنا الحضارى على النحو الذى كانت عليه مشكلات تطور حضارة الغرب ، لتتماثل الحلول . . يجعل من هذا التصور « عبثا» لايليق ! . .

---

(١٣) [الأعمال الكاملة] ، ص ١٧٧ .

● وإذا كان هذا هو مقام الدين، عند الأفغانى، فى بناء الأمم، وتأسيس المدنية، واستنفار الشعوب للارتقاء والتقدم. . حتى لقد جعله **«السبب الفرد لسعادة الإنسان»** . .

وإذا كانت هذه هى رؤيته لتميز الإسلام بالعقلانية . . وتميز عقلانيته بالإيمان . . فلم يكن غريبا أن يخالف الأفغانى أولئك الذين أرجعوا بداية تراجع المسلمين وانحطاط تمدنهم إلى النزيف المادى ـــ «الحربى . . والاقتصادى» ـ الذى سببته الغزوة « الصليبية ـ التترية» ـــ على امتداد قرنين من الزمان [٤٨٩ ـــ ٦٩٠هـ، ١٠٩٦ ـ ١٢٩١م] . . **فأرجع الأفغانى بداية هذا الانحطاط إلى «الاختراق الفكرى» الذى أحدثه « الفكر الباطنى» فى تصورات المسلمين . . فبه توجهت « السهام» إلى «سبب النهوض» ، فكانت بداية التراجع والانحطاط . . «لقد ذهب المؤرخون إلى أن بداية الانحطاط فى** سلطة المسلمين كانت من حرب الصليب . والأليق أن يقال : إن ابتداء ضعف المسلمين كان يوم ظهور الآراء الباطلة والعقائد النيشرية (الدهرية) فى صورة الدين، وسريان هذه السموم القاتلة فى نفوس أهل الدين الإسلامى»(١٤) ! !

«فالدواء» الذى رآه فلاسفة التنوير الغربى لتخلفهم وانحطاطهم الحضارى ـ «دواء» : استبعاد الدين من مرجعية النهضة والعمران ـــ قد رآه الأفغانى « الداء» الذى أصاب حياتنا الإسلامية ، فدخل بحضارتنا دور التراجع والانحطاط . . . لقد تمثلت « المادية ـــ اللادينية» و«العلمانية ـ الوضعية» لفلاسفة التنوير الغربى «الدواء» الشافى من « داء الدين واللاهوت» . . ورأى الأفغانى فى هذه «المادية ـ الدهرية» السبب الأول فى «الغبش» الذى أصاب تصورات المسلمين لإسلامهم، والذى أحدث فى

---

(١٤) المصدر السابق . ص ١٦١ .

مسيرتهم الحضارية بداية التراجع والانحطاط ! . . فكيف يوضع الرجل مع دعاة هذا «التنوير ـ الغربى ـ العلمانى» فى سلة واحدة؟ ! . .

● فإذا جاء الأفغانى إلى الحديث عن «وسائل النهوض من السقوط» ، وجدناه ، بعد استعراضه لمذاهب أهل الفكر فى هذا الموضوع ، ومنها مذهب المتغربين ، الذين يرون فى استعارة «التمدن الغربى» السبيل للنهوض ، وهو المذهب الذى أدانه ، بل ورأى فيه خيانة للأمة ، و«خبلا جديدا» ! يفتح فى جدار المقاومة الحضارية الثغرات لجيوش الغالبين وأرباب الغارات ! ! . . **فالمقلدون لتمدن الأمم الأخرى «ليسوا أرباب تلك العلوم التى ينقلونها ، وإنما هم حملة ، نقلة ! . . لا يراعون فيها النسبة بينها وبين مشارب الأمة وطباعها . . وهم ربما لا يقصدون إلا خيرا ، إن كانوا من المخلصين ! . . لكنهم يوسعون بذلك الخروق حتى تعود أبوابا . . لتداخل الأجانب فيهم تحت اسم : النصحاء ، وعنوان : المصلحين ، وطلاب الإصلاح ، فيذهبون بأمتهم إلى الفناء والاضمحلال ، وبئس المصير . . »(١٥) !**

بعد استعراض الأفغانى لمذاهب أهل الفكر فى « وسائل النهوض من السقوط» ، نراه يرفض هذه المذاهب ــ وفى مقدمتها وعلى رأسها مذهب «استعارة التمدن الغربى» ـ ثم يقطع بأن لاسبيل للنهوض من هذا السقوط الحضارى الذى نحن فيه إلا بالإسلام . . فيقول :

«لا أطيل عليك بحثا ، ولا أذهب بك فى مجالات بعيدة من البيان ، ولكنى أستلفت نظرك إلى سبب يجمع الأسباب ، ووسيلة تحيط بالوسائل ، **أرسل فكرك إلى نشأة الأمة التى خملت بعد نباهة . . واطلب أسباب نهوضها الأول . . إنه دين قويم الأصول ، محكم القواعد ، شامل لأنواع الحكم ، باعث على الألفة ، داع إلى المحبة ، مزك للنفوس ، مطهر للقلوب من أدران**

---

(١٥) المصدر السابق . ص ١٩١ ـ ١٩٧ .

الخسائس ، منور للعقول بإشراق الحق من مطالع قضاياه ، كافل لكل ما يحتاج إليه الإنسان من مبانى الاجتماعات البشرية ، وحافظ وجودها ، ويتأدى بمعتقديه إلى جميع فروع المدنية . .

فإن كانت هذه شرعة تلك الأمة ، ولها وردت وعنها صدرت ، فما تراه من عارض خللها ، وهبوطها عن مكانتها ، إنما يكون من طرح تلك الأصول ونبذها ظهريا . . فعلاجها الناجع إنما يكون برجوعها إلى قواعد دينها ، والأخذ بأحكامه على ما كان فى بدايته . . ولا سبيل لليأس والقنوط ، فإن جراثيم الدين متأصلة فى النفوس . . والقلوب مطمئنة إليه ، وفى زواياها نور خفى من محبته ، فلا يحتاج القائم بإحياء الأمة إلا إلى نفخة واحدة يسرى نَفَسها فى جميع الأرواح لأقرب وقت . . فإذا قاموا ، وجعلوا أصول دينهم الحقة نصب أعينهم ، فلا يعجزهم أن يبلغوا فى سيرهم منتهى الكمال الإنسانى .

ومن طلب إصلاح أمة شأنها ماذكرنا بوسيلة سوى هذه ، فقد ركب بها شططا ، وجعل النهاية بداية ، وانعكست التربية ، وانعكس فيها نظام الوجود ، فينعكس عليه القصد ، ولايزيد الأمة إلا نحسا ، ولايكسبها إلا تعسا .

ومن يعجب من قولى : إن الأصول الدينية الحقة تنشئ للأمم قوة الاتحاد ، وائتلاف الشمل ، وتفضيل الشرف على لذة الحياة ، وتبعثها على اقتناء الفضائل ، وتوسيع دائرة المعارف ، وتنتهى بها إلى أقصى غاية فى المدنية ، فإن عجبى من عجبه أشد! . ودونك تاريخ الأمة العربية . . وماكانت عليه قبل الإسلام من الهمجية . . حتى جاءها الدين فوحدها ، وقواها ، ونور عقلها ، وقوم أخلاقها ، وسدد أحكامها ، فسادت على العالم . . . »[16]!

---

(١٦) المصدر السابق . ص ١٩٧ ـ ١٩٩ .

هكذا قطع جمال الدين الأفغانى بأن الإسلام هو سبيل النهضة وأداة الإحياء وطريق التقدم ، والدواء الفريد من هذا السقوط الحضارى الذى نحن فيه ! . .

إنه يزكى تلك الحكمة المأثورة : لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها : الإسلام ! . .

* * *

و إذا كان الأفغانى قد بلور هذا المذهب فى «وسائل النهوض من السقوط» ، قبل قرن من الزمان ، عندما كتب رسالته [الرد على الدهريين] سنة ١٢٩٨هـ ــ ١٨٨٠ . . فلقد تنبأ الرجل ، منذ ذلك التاريخ ، بالآثار المرة لثمرات التغريب والتقليد للتمدن الغربى . . فعبر هذا القرن الذى انقضى ، استعمر الغرب ديار الإسلام . . ثم نهضت الأمة لتحرير أوطانها ، مقدمة ملايين الشهداء . . فلما حانت ساعة الرحيل لجيوش الغزاة عن بلاد الإسلام ، سلم الاستعمار «الدولة» و«مؤسساتها» للنخبة التى تغربت ، والتى قام على صياغة عقولها ومناهجها وولائها الحضارى عبر هذه العقود التى هيمن فيها على منابر العلم ومؤسسات الفكر ومعاهد التعليم . . وبعد عقود من «الاستقلال» ، جربت فيها هذه «النخبة المتغربة» مذاهب الغرب فى «الحكم» و«الإدارة» و«التشريع» ، انتهى بها المطاف إلى هذا الفشل الذريع الذى يمسك بخناق الأمة فى هذه الأيام ! . . فلما استنفر هذا العجز والفشل العلمانى جماهير الأمة لتسير فى الطريق الذى رسمه رائد اليقظة الإسلامية جمال الدين الأفغانى . . طريق : النهضة بالإسلام . . وإسلامية النهضة . . رأينا هذه «النخبة المتغربة» ، من «تلاميذ» «التنوير ــ الغربى ــ العلمانى» يسعون لخلط الأوراق ، فيزورون على الأمة فكر يقظتها ، بوضعهم أسماء أعلام هذه اليقظة فى سلة دعاة التبعية الحضارية ، والتقليد للنموذج الغربى ، والانسلاخ عن الهوية الإسلامية للأمة ! ! . .

بل ورأيناهم ـ وتلك هى قمة الكارثة المعاصرة ـ يسعون، بالعجز والفشل والفساد، إلى «تسليم» الأوطان التى حررتها الأمة بدماء شهدائها إلى هيمنة الاستعمار الغربى من جديد! . .

إنها «الكارثة» التى تنبأ بها الأفغانى قبل قرن من الزمان، عندما قال عن هؤلاء «الصنائع الثقافيين»، الذين «صنعهم الغرب»، فى بلادنا، على عينه: «إن نتيجة هذا التقليد للتمدن الغربى عند هؤلاء «الناشئة المقلدين» ليست إلا توطيد المسالك والركون إلى قوة مقلديهم، فيبالغون فى تطمين النفوس، وتسكين القلوب، حتى يزيلوا الوحشة التى قد يصون بها الناس حقوقهم، ويحفظون بها استقلالهم. ولهذا متى طرق الأجانب أرضا لأية أمة، ترى هؤلاء المتعلمين ـ المقلدين ـ فيها أول من يقبلون عليهم ويعرضون أنفسهم لخدمتهم. . كأنما هم منهم، ويعدون الغلبة الأجنبية فى بلادهم أعظم بركة عليهم. . »[17]!!

هكذا قادت وتقود «التبعية الفكرية» و«التقليد للتمدن الغربى» إلى «مشاركة» بين «المركز» و«التابعين» . . وهكذا تتجلى كارثة هذه «المشاركة»، فى مواجهة تعاظم المشروع الإسلامى المعاصر للنهضة، والتغيير فى صورة:

● تبعية يفرضها الغرب على وطن العروبة وعالم الإسلام. . وهيمنة يحاول بها إعاقة المشروع الإسلامى للنهضة والتغيير. .

● وغلو علمانى يبحث أصحابه فى «الترسانة الفكرية الغربية» عن الأسلحة القديمة التى واجه بها التنوير ـ الغربى ـ العلمانى النصرانية الأوربية فى عصورهم الوسطى والمظلمة، ظانين صلاحها لمواجهة الإسلام ويقظته المعاصرة! . . الأمر الذى وضع هؤلاء النفر من «تلامذة التنوير الغربى» فى

---

(١٧) المصدر السابق. ص ١٩٧.

موقع قريب جدا من قوى الهيمنة الغربية الضاغطة على أمة الإسلام . . وهو ما تنبأ به الأفغانى قبل قرن من الزمان! . .

ومع ذلك كله ، نراهم يبلغون «قمة»، وإن شئت فقل «حضيض» «التزوير»، عندما يضعون موقظ الشرق وفيلسوف الإسلام ورائد مشروع : «النهضة بالإسلام» فى سلة المتغربين الذين دعوا إلى استبدال التمدن الغربى بالتمدن الإسلامى ! . .

إننا، بعد هذا الذى قدمناه عن الأفغانى ـ المجدد الإسلامى ـ والمعادى للتنوير الغربى العلمانى ـ نختم هذه الصفحات بنص صريح ومباشر يدين فيه هذا التنوير، عندما يتحدث عن الشعب الفرنسى ، الذى ظل محافظا على عقائد التدين وخصاله حتى ظهر التنوير فهدمها ، فأصاب هذا الشعب بالضعف والتحلل والهوان ـ فلقد كان ذلك الشعب «مشرقا للتمدن فى سائر الممالك الغربية ، وبما أحرز الفرنساويون من تلك الأصول كانت لهم الكلمة النافذة فى دول الغرب إلى القرن الثامن عشر من الميلاد المسيحى ، حتى ظهر فيهم ولتير ـ [فولتير] ـ وروسو، يزعمان حماية العدل ومغالبة الظلم والقيام بإنارة الأفكار وهداية العقول ، فنبشا قبر « أبيقور» الكلبى [٣٤١ ـ ٢٧٠ ق . م] وأحييا ما بلى من عظام الدهريين ، ونبذا كل تكليف دينى ، وغرسا بذور الإباحة والاشتراك ، وزعما أن الآداب الإلهية جَعْليّات خرافية ، كما زعما أن الأديان مخترعات أحدثها نقص العقل الإنسانى . وجهر كلاهما بإنكار الألوهية ، ورفع كل عقيرته بالتشنيع على الأنبياء ـ [برأهم الله مما قالا] ـ وكثيرا ما ألف ولتير من الكتب فى تخطئة الأنبياء والسخرية بهم والقدح فى أنسابهم وعيب ماجاءوا به . فأخذت هذه الأباطيل من نفوس الفرنساويين ، ونالت من عقولهم ، فنبذوا الديانة العيسوية ونفضوا منها أيديهم . وبعد أن أغلقوا أبوابها فتحوا على أنفسهم أبواب الشريعة المقدسة (فى زعمهم) ، شريعة الطبيعة . وزاد بهم الهوس فى بعض أيامهم ، حتى حمل لفيفًا من

عـامتهـم على أن يتناولـوا بنتـا مـن ذوات الجمال فيهم ويحملـوهـا إلى محراب الكنيسة، ففعلـوا. ونادى زعيم القوم: أيها النـاس، لا يأخذكم الفـزع بعد اليوم من هدهدة الرعد ولا التماع البرق. ولا تظنـوا شيئا من ذلك تهديدا لكم من إله السماء يرسله عليكم ليعظكم بـه ويزعجكم عن مخالفته. كلا، فهذه كلها آثـار الطبيعة (النـاتور)، ولا مؤثـر فى الوجـود سوى (النـاتور). . وإن كانت العبادة مـن رغائب شهواتكم فهاهى ذى (مـدموازيل) أى (العذراء) قائمة فى المحراب على مثال الدمية فاسجدوا لها إن شئتم.

والأضاليل التى بثها هذان الدهـريان (وولتير وروسو) هى التى أضرمت نار الثورة الفرنسية المشهورة، ثم فرقت بعد ذلك أهواء الأمة وأفسدت أخلاق الكثير من أبنائها، فاختلفت فيها المشارب وتباينت المذاهب وأوغلوا فى سبل الخلاف. . وانحصر سعـى كـل قبيل فى التماس مـا يـواتـى لـذته ويـوافـق شهـوته، وأعـرضوا عـن منـافعهم العـامـة، وأعقب ذلـك عروض الخلل لسياستهم الخارجية شرقا وغربا.

نعم، إن نـابليون الأول بذل جهـده فى إعادة الـديانة المسيحيـة إلى ذلك الشعب استدراكا لشأنه، لكنه لم يستطع محو آثار تلك الأضاليل» (١٨).

هكذا أدان الأفغانـى، صراحة ومباشرة، فلسفة التنوير الغـربى ـ المادى العلمانى ـ وفـلاسفتة. . فهل بعد ذلـك مجال لافتراء الذين يضعونـه فى هذا التيار؟!. .

---

(١٨) المصدر السابق. ص ١٦١، ١٦٢.

٣ - الإمام محمد عبده

بين التنوير الغربي.. والتجديد الإسلامي

إن الذيـن يخلطون بين «التجـديد الإسلامـى» ـ وهـو تطويـر وتجدد من داخل النسـق الإسلامى ، ملتـزم بثوابته وفلسفتـه ومبادئه ومقاصـده ـ وبين «التنوير ـ الغـربى ـ العلمانى» ـ الذى يقيـم قطيعة مع الدين ، عندمـا يعزله عن شئون الدولة والاجتماع الإنسانى والعمران البشرى ، مكتفيا بعالم الشهادة والعقل والتجريب ـ إن الذيـن يخلطون بين هذين النمطين من أنماط الإحياء والتقدم والنهوض ، يمعنون فى خلط الأوراق عندمـا يضعون أعلام التجديد الإسلامـى ـ ومنهـم ـ بـل وفى مقدمتهـم الأستاذ الإمـام الشيخ محمـد عبده [١٢٦٥ ـ ١٣٢٣هـ ، ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥م] ـ عندما يضعونـه فى سلة واحدة مع «النخبة» التـى رأت أن نهضتنا الحديثة مرهـونة بإدارة الظهر لخصـوصيتنا الحضاريـة ، والتبنى للنمـوذج الغربى فى النهـوض والتحديـث والإحياء . . فنراهـم يضعون تـراث محمد عبـده مع فـرح أنطون [١٢٩١ ـ ١٣٤٠هـ ، ١٨٧٤ـ١٩٢٢م] ، وشبلى شميل [١٢٧٦ـ ١٣٣٥هـ ، ١٨٦٠ ـ ١٩١٧م] ، وإسماعيل أدهم [١٣٢٩ ـ ١٣٥٩هـ ، ١٨١١ ـ ١٩٤٠م] ، ولطفى السيد [١٢٨٩ ـ ١٣٨٣هـ ، ١٨٧٢ ـ ١٩٦٣م] ، وسلامـة مـوسـى [١٣٠٥ ـ ١٣٧٧هـ ، ١٨٨٨ ـ ١٩٥٨م] ، وأمثالهم مـن الذيـن دعوا إلى «استقـلال» أمتنا عن ماضيها وعن محيطهـا ، وإلى التحاقها بأوربا ، زاعمين أن «العقل : يونانـى» ، و«الحضارة : متوسطية ـ أوربية» . . والطريق إلى النهضـة واحدة

لاتعـــدد فيهـــا ، وهـــى أن نسير سيرة أوربـــا فى «الحكـــم» و«الإدارة» و«التشريـع» . . فإسـلامنا ، كـالنصرانية الأوربيـة ، دين لا دولـة ، ورسالـة روحية لا علاقة لها بـالسياسة أو الحكم . . وقرآننا كـالإنجيل مجرد «بلاغ» لا علاقـة له بـ «الشريعة» الحاكمة فى شئـون الدولـة والعمران . . وتـاريخنا فى الدولة ، كتـاريخ أوربا : استبداد حكم فيـه الخلفاءبالحق الإلهى ، كالبـابوية الأوربيـة . . ومن ثـم ، فـإن «التنـوير ـ الغـربـى ـ العلمانـى» هـو «الحل» لمشكلاتنا التى ضاهت وماثلت مشكلات التخلف الأوربى ! ! . .

يخلط «تلامذة» «التنوير ـ الغربى ـ العلمانى» أوراق مشاريع «التحديث» فى عصرنا الحديـث ، عندما يصورونها مشروعـا واحدا ، يسوقـون فى الحديث عن دعاته أسماء أعلام «التجديد الإسلامى» مع أعلام «التغريب» والتحديث على النمط الغربى . . مع أن هذه القضية لم تكن على هـذا النحو من «خلط الأوراق» عند جيـل «الرواد» مـن دعاة النهضة والإحيـاء والتحديـث ، سواء منهم «المجـددون الإسلاميون» أو الـذين دعـوا إلى تبنى النموذج الغـربى فى النهوض . .

فمحمـد عبده ، الـذى مثل أبـرز عقول التجـديد الإسـلامى فى عصرنـا الحديـث ، لانبالـغ إذا قلنـا إن خيطا ملحـوظا ومتصـلا قـد امتد عبر كـل مشروعـه الفكرى ليبرز تميـز مشروعه النهضـوى والتجديـدى عن النمـوذج الغربـى فى التحديث ، وذلـك انطلاقا مـن تميز إسـلامنا عن نصرانيـة أوربا ولاهوت كنيستها ، ومـن تميز تطورنا الحضـارى عن تاريخ الغـرب فى التطور الحضارى . . ويكفى ـ مراعاة للمقام ـ أن نضرب على ذلك الأمثال :

● **لقد خصـص محمد عبـده واحدا مـن أهم أعمالـه الفكريـة : ـ كتـاب [الإسـلام والنصرانية مـع العلـم والمدنيـة] ـ ليقيـم فيـه الأدلـة على تميز، بـل وتناقض أصـول الإسلام مع أصول النصرانيـة ، كما عرفها الغرب والـلاهوت الكنسى الأوربى . . وعلى تمايـز بل وتناقض الخلافـة الإسلامية مع البـابوية**

ودولتها الثيوقراطيةوسلطتها الدينية . . وعلى تميز الإسلام بالعقلانية التى لم تعرفها النصرانية . . وعلى تميز الإسلام بل وتناقضه فى موقفه من العلم والعلماء ، فكرا وتاريخا ، عن النصرانية فى هذا الميدان . . . فجاء هذا الكتاب بيانا لتميز المشروع الإسلامى النهضوى عن النموذج الغربى فى الإحياء والتحديث . .

ولم يستطع الدكتور طه حسين [١٣٠٦ـ١٣٩٣هـ ، ١٨٨٩ ـ ١٩٧٣م] ، وهو من أبرز دعاة السير سيرة الأوربيين فى «الحكم» و«الإدارة» و«التشريع» . . بدعوى أن عقلنا يونانى وحضارتنا أوربية وليست شرقية . . وبزعم أن إسلامنا ولغتنا العربية لا يصلحان أن يكونا من مقومات بناء الدول ، كما لم تصلح النصرانية لذلك فى النموذج الأوربى ! . . لم يستطع الرجل أن يخلط أوراق محمد عبده بأوراق الداعين للسير وراء النموذج الغربى فى التقدم والتحديث . . فأعلن أن مشروع محمد عبده فى التوفيق بين العلم والدين «لم يعد مواكبا للعصر . . ولقد صارت كل أفكار محمد عبده بشأن العلم والدين بالية . . بل إن مذهب محمد عبده هذا ، فى حد ذاته ، لم يكن صالحا للبقاء . . »! ! . . وتحدث عن «الاندفاع نحو الحضارة الغربية بابتهاج ـ [! !] ـ واتخاذها مثلا أعلى ـ [! !] ـ والنظر إلى آراء محمد عبده باعتبارها الآراء التى يتمسك بها «المحافظون» . . بل «المتخلفون»[١] ! !

فطه حسين يميز مذهبه ـ فى مرحلة انبهاره بالنموذج الغربى ـ عن مذهب محمد عبده . . ويقول إن السبيل هو «الاندفاع نحو الحضارة الغربية . . باعتبارها المثل الأعلى»! ! . . بدلا من مشروع محمد عبده ، الذى رآه متخلفا وباليا وغير صالح فى ذاته ، ولا يتمسك به إلا المتخلفون ! ! . .

فإذا كان هذا هو موقف طه حسين ، فى صراحة التمييز بين «تجديد»

---

(١) د. طه حسين : [من الشاطئ الآخر] ، ص ٣٦ ، ٣٧ ، ٦٢ .

محمد عبده وبين تبنى النموذج الغربى، كمثل أعلى، وسبيل وحيد لنا فى «الحكم» و«الإدارة» و«التشريع». . فما بال «تلامذة» طه حسين يجتهدون فى إجهاد الحقيقة، فيخلطون الأوراق. . ليس فقط أوراق محمد عبده بأوراق طه حسين، وإنما أوراق «المجددين الإسلاميين» بأوراق سلامة موسى وفرح أنطون وشبلى شميل وإسماعيل أدهم ولطفى السيد، وغيرهم من دعاة «التنوير - الغربى - العلمانى»[٢]، والذين احترف بعضهم الدعوة إلى الإلحاد. . وسوى بعضهم بين «الجامعة الإسلامية» وبين الاستعمار الإنجليزى والفرنسى. . ورأى بعضهم فى الرابطة الشرقية سخافة، وفى الرابطة الدينية وقاحة يجب أن يترفع عنها أبناء القرن العشرين!!. .

● وغير اجتهاد محمد عبده التمييز بين الإسلام وبين النصرانية. . وبين الشرق وبين الغرب فى الموقف من علاقة الدين بالعلم. . نجد رفضه الصريح للنموذج الحضارى الغربى، لماديته التى ناقضت وتناقض الوسطية الإسلامية الداعية إلى الجمع ما بين المادة والروح. .

ونحن نسأل، فى عجب، أولئك الذين يضعون محمد عبده فى سلة الذين رأوا أن نهضتنا لا سبيل لها إلا تبنى نموذج الغرب فى المدنية والإحياء. . ألم يقرءوا نقد محمد عبده لهذه المدنية الغربية، ورفضه لماديتها. . والذى يقول فيه: **«إن هذه المدنية هى مدنية الملك والسلطان، مدنية الذهب والفضة، مدنية الفخفخة والبهرج، مدنية الختل والنفاق، وحاكمها الأعلى هو «الجنيه» عند قوم، و«الليرا» عند قوم آخرين، ولا دخل للإنجيل فى شىء من ذلك»**[٣]؟!

وكيف يوضع محمد عبده ضمن الذين دعوا إلى النهضة بـ «التنوير - الغربى»، وهو الذى علق على حيرة الفيلسوف الإنجليزى «سبنسر»

---

(٢) د. جابر عصفور: [محنة التنوير]، ص٣، ٦٦. (٣) [الأعمال الكاملة]، جـ٣ ص٢٠٥.

[١٨٢٠ ـ ١٩٠٣م] ـ عندما لقيه فى سنة ١٩٠٣م ـ وتشاؤمه من نتائج المادية المتفشية فى أوربا، حتى لقد «مُحِيَ الحق من عقول أهل أوربة بالمرة، وسترى الأمم يختبط بعضها ببعض لتتبين أيها الأقوى ليسود العالم. أو ليكون سلطان العالم»(٤)! ـ وهى النبوءة التى حققتها الحروب الكونية الاستعمارية الأوربية، والصراعات والهيمنة القائمة حتى الآن ـ! . . ولقد علق الأستاذ الإمام، متعجبا، من عجز «فلاسفة التنوير الغربى» عن اكتشاف العلاج الروحى فى الدين. . والذى لا علاج سواه من هذا الذى أصابهم بالقنوط. . فقال، متعجبا: «هؤلاء الفلاسفة والعلماء الذين اكتشفوا كثيرا مما يفيد فى راحة الإنسان وتوفير راحته، وتعزيز نعمته، أعجزهم أن يكتشفوا طبيعة الإنسان، ويعرضوها على الإنسان، حتى يعرفها فيعود إليها. هؤلاء الذين صقلوا المعادن حتى كان الحديد اللامع المضيء، أفلا يتيسر لهم أن يجلوا ذلك الصدأ الذى غشى الفطرة الإنسانية، ويصقلوا تلك النفوس حتى يعود لها لمعانها الروحى؟!

حار الفيلسوف ـ [سبنسر] ـ فى حال أوربا، وأظهر عجزه، مع قوة العلم! . فأين الدواء؟ . . الرجوع إلى الدين. . الدين هو الذى كشف الطبيعة الإنسانية وعرفها إلى أربابها فى كل زمان، لكنهم يعودون فيجهلونها. . »(٥)! . .

لقد عرض لـ «الداء» الأوربى. . داء التقدم المادى، المفرغ من روحانية الدين، بسبب علمانية ومادية ووضعية «التنوير ـ الغربى». . ثم قطع بأن الدين هو الدواء. . أفبعد هذا يقال إن مشروعه النهضوى كان هو مشروع الذين دعوا إلى عزل الدين عن العمران، والاكتفاء بالعقل والتجريب، لأن

---

(٤) انظر حوار سبنسر مع الأستاذ الإمام فى: المصدر السابق. جـ٣، ص ٤٩٢، ٤٩٣.
(٥) المصدر السابق. جـ٣، ص ٤٩٥.

الدين لا يصلح أن يكون من مقومات الدولة، ولا أن يكون صديقا للعلم، ومن ثم فإن رابطته وجامعته ردة عن الوطنية، ووقاحة لا تليق بأبناء القرن العشرين؟!! . . أفى هذه «السلة» - ولا نقول «المستنقع»! - يضع منصف، أو عاقل! الأستاذ الإمام؟! . .

● وليس فقط النقد والرفض لواقع النموذج الأوربى الحديث والمعاصر. . وإنما أيضا النقد والرفض لنموذجها التاريخى المتميز بالكهانة والبابوية والدولة الثيوقراطية. . والحديث عن تميز الإسلام، ونموذجه التاريخى عن هذا النموذج «النصرانى - الغربى»، ومن ثم خطأ دعاة «التنوير - الغربى» من أبناء جلدتنا، الذين حاولوا تصوير تاريخنا على نمط التاريخ الغربى، ليوهمونا بوحدة «المشكلات» تمريرا لدعوتهم إلى وحدة «الحلول»!! . .

يرفض محمد عبده ذلك، ويتحدث عن رفض الإسلام للكهانة وللسلطة الدينية التى تميز بها التاريخ الأوربى، والتى لم يعرفها التاريخ الإسلامى، فيقول: «إن الإسلام لم يعرف تلك السلطة الدينية. . التى عرفتها أوربا. . فليس فى الإسلام سلطة دينية سوى سلطة الموعظة الحسنة، والدعوة إلى الخير، والتنفير عن الشر. . وهى سلطة خَوَّلها الله لكل المسلمين، أدناهم وأعلاهم. . والأمة هى التى تولِّى الحاكم. . وهى صاحبة الحق فى السيطرة عليه، وهى تخلعه متى رأت ذلك من مصلحتها، فهو حاكم مدنى من جميع الوجوه. ولا يجوز لصحيح النظر أن يخلط الخليفة، عند المسلمين، بما يسميه الإفرنج «ثيوكرتيك»، أى سلطان إلهى . . فليس للخليفة - بل ولا للقاضى، أو المفتى، أو شيخ الإسلام - أدنى سلطة على العقائد وتحرير الأحكام، وكل سلطة تناولها واحد من هؤلاء فهى سلطة مدنية، قدرها الشرع الإسلامى. . فليس فى الإسلام سلطة دينية بوجه من الوجوه. . بل إن قلب السلطة الدينية، والإتيان عليها من الأساس، هو أصل من أجلِّ أصول الإسلام. . .»[6]!

---

(٦) المصدر السابق. جـ٣، ص ٢٣٣، ٢٨٨، ٢٨٦، ٢٨٥.

فهو هنا ينفى تماثل الشرق والغرب فى التطور التاريخى . . ويؤكد تميز تاريخنا ، بسبب تميز الإسلام . .

● وهو لا يدع مجالا لمن يتوهم أن انتفاء «السلطة الدينية» عن الإسلام تعنى انتفاء علاقته بـ «السلطة . . والدولة . . ونظام الملك . . والاجتماع . . والعمران» ، الأمر الذى يفتح الباب أمام المسلمين « لعلمانية التنوير الغربى» التى عزلت الدين عن هذه الميادين . .

لا يدع الأستاذ الإمام مجالا لهذا الوهم ، فيبادر بالتأكيد على أن الإسلام عندما يرفض «السلطة الدينية» ، فإنه يرفض اعتزاله للسلطة والدولة ، لأنه ليس نصرانية تدع ما لقيصرلقيصر وما لله لله . . وإنما هو دين وشرع ، أى دين ودولة وسياسة وعمران . . فهو لا يقف عند «الاعتقاد الفردى» ، كالنصرانية . . وإنما هو نظام للفرد . . والأسرة . . والدولة جميعا . . وبعبارة الأستاذ الإمام ، فإن الإسلام : «**كمال للشخص ، وألفة فى البيت ، ونظام للملك** . . » . . وهو جامع لذلك بالوسطية ، التى تجمع الدين والدولة والعمران ، واقفة بالعلاقة بينهما دون « كهانة السلطة الدينية وثيوقراطيتها» وفوق «العلمانية» التى تفصل الدين عن العمران . . . فالوسطية هى مذهب الإسلام الذى ميز نظامه عن كل من «الثيوقراطية» و«العلمانية» كليهما . . وفى تقرير هذا المذهب الإسلامى ، فى «**إسلامية الدولة والعمران**» ، يقول الأستاذ الإمام : لقد «ظهر الإسلام ، لا روحيا مجردا ، ولا جسدانيا جامدا ، بل إنسانيا وسطا بين ذلك ، آخذا من كل القبيلين بنصيب ، فتوافر له من ملاءمة الفطرة البشرية مالم يتوافر لغيره ، ولذلك سمى نفسه : دين الفطرة . وعرف له ذلك خصومه اليوم ، وعدوه **المدرسة الأولى التى يرقى فيها البرابرة على سلم المدنية** . .

إن الإسلام دين وشرع ، فهو قد وضع حدودا ، ورسم حقوقا . . ولا تكتمل الحكمة من تشريع الأحكام إلا إذا وجدت قوة لإقامة الحدود وتنفيذ

حكم القاضى بالحق، وصون نظام الجماعة. وتلك القوة لا يجوز أن تكون فوضى فى عدد كثير، فلا بد أن تكون فى واحد، وهو السلطان أو الخليفة. . والإسلام لم يدع ما لقيصر لقيصر، بل كان من شأنه أن يحاسب قيصر على ما له، ويأخذ على يده فى عمله. . فكان الإسلام: كمالا للشخص، وألفة فى البيت، ونظاما للملك امتازت به الأمم التى دخلت فيه عن سواها ممن لم يدخل فيه. . »[7].

ولست أدرى ـ بعد هذا الحسم والوضوح فى موقف الإسلام من السياسة والدولة والعمران. . والذى جعله «المدرسة الأولى للرقى على سلم المدنية». . و«الدين. . والشرع» ، الذى تقتضى حكمة «تشريعه» وجوب قيام « سلطة تنفيذية» تنفذ أحكام «السلطة القضائية» التى تقضى «بشريعته» ، وهى سلطة «الخلافة». . الأمر الذى ضمن للإسلام ، بوسطيته الجامعة، أن يكون «كمالا للشخص. . وألفة فى البيت. . ونظاما للملك». . حتى لقد «ميز الأمة والحضارة والتاريخ» لمن تدين به عن نظائرها لدى الذين لم يدخلوا فيه. . .

لست أدرى ، بعد هذا الموقف الحاسم والواضح، كيف يجوز لعاقل ومنصف أن يضع الأستاذ الإمام، صاحب هذا الموقف، فى سلة واحدة مع دعاة « التنوير ـ الغربى ـ العلمانى». . من أمثال على عبد الرازق، الذى قال: «يا بعد ما بين السياسة والدين»!! . . وطه حسين، الذى نفى صلاح الدين لأن يكون مقوما للدولة، أو أن يكون له مدخل فى السياسة؟! . . فضلا عن سلامة موسى الذى رأى فى الرابطة الدينية وقاحة يجب أن يأنف منها ويبرأ أبناء القرن العشرين؟! . .

كيف جاز ذلك الزعم الغريب فى مذهب «تلامذة التنوير ـ الغربى ـ العلمانى»؟! . .

---

(٧) المصدر السابق. جـ ٣، ص ٢٨٧، ٢٢٥، ٢٢٦.

● وهذا النفر من دعاة «التنوير ـ الغربى ـ العلمانى»، الذين أوهموا الناس أن دعوتهم إلى إحياء تراث «التنوير» إنما هى «لمواجهة المشروع الإسلامى الداعى إلى إسلامية النهضة والدولة والمعرفة والعمران»، بلغت بهم الجرأة حد تقديم اسم الأستاذ الإمام كواحد من الذين تصدى تراثهم ومشروعهم النهضوى لـ «إسلامية النهضة والمعرفة والعمران».. مع أن الرجل كان فى طليعة الذين واجهوا النموذج الغربى فى التحديث، وهو نموذج وضعى ـ علمانى، وقدموا بديلا عنه: النموذج الإسلامى للإحياء والتقدم، وهو الذى يتميز عن النموذج الغربى بالدعوة إلى «إسلامية النهضة»، وفى كل الميادين!!..

إن كل الدعاة المعاصرين إلى إحياء الأمة بالإسلام، وتجديد دنيانا بدين الإسلام، وطبع نهضتنا بصبغة الإسلام، واختيار الإسلام مرجعية لهذه النهضة العربية والإسلامية المنشودة.. إن كل الدعاة إلى هذا المشروع الإسلامى فى النهضة والتقدم والإحياء، إنما هم الأبناء الشرعيون لفكر وتراث ومشروع الأستاذ الإمام.. ويكفى برهانا على هذه الحقيقة ـ التى لم نكن نظن أنها فى حاجة إلى برهان ـ أن نتأمل هذه الكلمات للأستاذ الإمام، والتى يقول فيها إن الإسلام هو السبيل لأى إصلاح يمكن أن يكتب له الفلاح فى دنيا المسلمين... يقول: «إن أهل مصر قوم أذكياء.. يغلب عليهم لين الطباع، واشتداد القابلية للتأثر. **لكنهم حفظوا القاعدة الطبيعية، وهى: أن البذرة لا تنبت فى أرض إلا إذا كان مزاج البذرة مما يتغذى من عناصر الأرض، ويتنفس بهوائها، وإلا ماتت البذرة، بدون عيب على طبقة الأرض وجودتها، ولا على البذرة وصحتها، وإنما العيب على الباذر.**

أنفس المصريين أشربت الانقياد إلى الدين حتى صار طبعا فيها، فكل من طلب إصلاحها من غير طريق الدين فقد بذر بذرا غير صالح للتربة التى أودعه فيها، فلا ينبت، ويضيع تعبه، ويخفق سعيه، وأكبر شاهد على ذلك

ماشوهد من أثر التربية التى يسمونها أدبية، من عهد محمد على إلى اليوم. . فإن المأخوذين بها لم يزدادوا إلا فسادا ـ وإن قيل إن لهم شيئا من المعلومات ـ فما لم تكن معارفهم وآدابهم مبنية على أصول دينهم فلا أثر لها فى نفوسهم. . . .

إن سبيل الدين، لمزيد الإصلاح فى المسلمين، سبيل لا مندوحة عنها، فإن إتيانهم من طرق الأدب والحكمة العارية عن صبغة الدين، يحوجه إلى إنشاء بناء جديد، ليس عنده من مواده شىء، ولا يسهل عليه أن يجد من عماله أحدا. وإذا كان الدين كافلا بتهذيب الأخلاق، وصلاح الأعمال، وحمل النفوس على طلب السعادة من أبوابها، ولأهله من الثقة فيه ما ليس لهم فى غيره، وهو حاضر لديهم، والعناء فى إرجاعهم إليه أخف من إحداث ما لا إلمام لهم به، فلم العدول عنه إلى غيره؟! . . »[8].

إننا إذا تأملنا هذه النصوص للأستاذ الإمام. . ورأينا كيف رفع لمشروعه النهضوى شعارًا يقول: «إن سبيل الدين، لمزيد الإصلاح فى المسلمين سبيل لا مندوحة عنها. . لأن نفوسهم قد أُشربت الانقياد إلى الدين حتى صار طبعا فيها، فكل من طلب إصلاحها من غير طريق الدين فقد بذر بذرا غير صالح للتربة التى أودعه فيها. . »

وإذا نحن تذكرنا كلمات جمال الدين الأفغانى. . عن ذات الموضوع ـ سبيل الإصلاح الإسلامى ـ التى يقول فيها:

«إن الدين قوام الأمم، وبه فلاحها، وفيه سعادتها، وعليه مدارها. . وهو السبب المفرد لسعادة الإنسان السعادة الكاملة والنعيم الكامل. . يذهب بمعتقديه فى جواد الكمال. . ويصعد بهم إلى ذروة الفضل. . ويرفع أعلام المدنية لطلابها. . »[9].

---

(٨) المصدر السابق. جـ٣، ص ١٠٩، ٢٣١. (٩) [الأعمال الكاملة]، ص ١٣١، ١٧٣.

ثم استحضرنا عبارات الطهطاوى التى يقول فيها :

«إن بحر الشريعة الغراء، على تفرع مشارعه، لم يغادر من أمهات المسائل صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها وأحياها بالسقى والرى. ولم تخرج الأحكام السياسية عن المذاهب الشرعية، لأنها أصل، وجميع مذاهب السياسات عنها بمنزلة الفرع» (١٠) .

ثم قارنا ذلك بمذاهب «التنوير - الغربى - العلمانى» فى عزل الدين عن الدولة والعمران، وإحلال العقل والعلم والفلسفة محل الله والدين، وإقامة المعرفة الإنسانية على العقل والتجريب وعالم الشهادة مع استبعاد الوحى والغيب والوجدان من مصادر المعرفة وسبل إدراكها . . .

إذا نحن صنعنا ذلك، أدركنا يقينا، أننا بإزاء مشروعين للإحياء والنهضة والتحديث :

● مشروع التجديد الإسلامى . . للنهضة والإصلاح والإحياء بالاسلام، كمرجعية تفجر فى الأمة كل الطاقات الإبداعية فى كل الميادين . . وله أعلامه الذين مثلوا مناراته الحديثة منذ الطهطاوى وحتى هذا التاريخ . . .

● ومشروع «التنوير - الغربى - العلمانى» ، الذى جاءنا فى ركاب الغزوة الاستعمارية الحديثة . . فانبهر به من انبهر من مفكرينا ومثقفينا - كاجتهاد خاطئ، تم العدول عنه فى مرحلة النضوج - أو كعمالة حضارية من الكارهين لبديله المتمثل فى الإسلام ! ! . .

فهما مشروعان للتحديث والإحياء والتقدم . . وليس مشروعا واحدا - «للتنوير» - كما زعم ويزعم الذين خلطوا الأوراق، فحشروا «التجديد الإسلامى » فى زمرة «التنوير - الغربى - العلمانى» . .

* * *

(١٠) [الأعمال الكاملة] ، جـ١ ، ص ٣٧٠ .

إنه لا يكفى أن ينشر «تلاميذ التنوير - الغربى - العلمانى» كتابا للشيخ محمد عبده، ضمن كتب على عبد الرازق وسلامة موسى وطه حسين - من رواد «التنوير الغربى» - لإقناع الناس بأن الأستاذ الإمام قد كان من حزب التغريب، الداعى إلى السير سيرة أوربا فى «الحكم» و«الإدارة» و«التشريع» .. ففكر المفكر هو الموقف الذى يحدد المعسكر الذى يقف فيه والمذهب الذى يدعو إليه والتيار الذى يبشر به بين الناس..

بل لقد اكتشفنا أن هذا الذى صنعه «تلامذة التنوير - الغربى - العلمانى» - بنشرهم كتابا للأستاذ الإمام ضمن سلسلة «المواجهة» للمشروع الإسلامى بـ«التنوير»، إنما مثل «تزويرا» مزدوجا!!..

فهم قد ارتكبوا «تزويرا»، وقالوا «زورا» عندما وضعوا اسمه مع دعاة العلمانية والمادية والإلحاد - من أمثال فرح أنطون.. وإسماعيل أدهم.. وشبلى شميل - وأضرابهم.. بينما فكر الرجل هو على هذا النحو الذى ضربنا له الأمثال!..

ثم هم قد صنعوا «زورا.. وتزويرا» حتى فى الكتاب الذى نشروه له فى هذه «السلسلة»، سلسلة التنوير والمواجهة.. فهذا الكتاب - وهو [الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية] - قد أحدثوا فيه تزويرا لا يليق بـ«تجار الكتب» و«مزورى الطباعة»، فضلا عن أن يليق بالأساتذة والمفكرين والمثقفين من أهل «التنوير»!!..

● لقد حدث «تزوير» فى عنوان الكتاب.. الذى كتبه الأستاذ الإمام، فى الأصل، مقالات رد بها على فرح أنطون دعواه أن النصرانية أكثر تسامحا مع العلم والعلماء من الإسلام.. وبعد أن نشرت هذه المقالات فى [المنار] جمعها الشيخ محمد رشيد رضا [١٢٨٢ - ١٣٥٤هـ، ١٨٦٥ - ١٩٣٥م]، وطبعها فى كتاب مستقل عنوانه [الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية] - ولقد استأذن رشيد رضا الأستاذ الإمام فى اختيار هذا العنوان فوافق عليه.. وبنص

عبارة رشيد رضا ـ فى تأريخه للأستاذ الإمام ـ : «[الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية] : وهو مقالات كتبها ـ [الأستاذ الإمام] ـ لمجلة المنار، ثم جردناها منها وطبعناها على حدتها، وسميناها بهذا الاسم بإذنه، فجاءت كتابا مستقلا أعيد طبعه مرارا» (١١) . .

ولقد أعيد طبع هذا الكتاب، بنفس العنوان، مرتين فى حياة الأستاذ الإمام، الأولى فى السنة الخامسة من صدور [المنار] ، والثانية سنة ١٣٢٣هـ ـ ١٩٠٥م، ثم تكررت طبعاته بذات العنوان .

وإذا كان الأستاذ الإمام قد كتب هذا الكتاب ردا على قول فرح أنطون : «إن العلم والفلسفة قد تمكنا إلى الآن من التغلب على الاضطهاد المسيحى . ولذلك نما غرسهما فى تربة أوربا وأينع، وأثمر التمدن الحديث، ولكنهما لم يتمكنا من التغلب على الاضطهاد الإسلامى . وفى هذا دليل واقعى على أن النصرانية كانت أكثر تسامحا» (١٢) . . **فإن «تزوير» العنوان ـ بحذف كلمة «النصرانية» ـ يتجاوز تزوير « العنوان» إلى تزوير «رسالة الكتاب»!! . .**

● ولقد حدث ذلك بالفعل، **فلم يقف «تزوير» «تلامذة التنوير الغربى» عند عنوان الكتاب، وإنما تجاوزوه إلى «تزوير» المحتوى، فقاموا بحذف ماكتبه الأستاذ الإمام عن النصرانية، فى معرض مقارنته بين أصولها وبين أصول الإسلام، وتأثير ذلك على موقف الدينين من العلم والمدنية!! . . لقد حذفوا أكثر من ثلاثين صفحة** (١٣) **فيها هذه العناوين وماكتبه تحتها :**

«الجواب الإجمالى للأستاذ الإمام على دعوى فرح أنطون» .

---

(١١) [تاريخ الأستاذ الإمام]، جـ١ ص ٧٨٧ . طبعة القاهرة، سنة ١٩٣١م .

(١٢) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] ، جـ٣، ص ٢٤٨ .

(١٣) انظرها فى المصدر السابق . جـ٣ ، ص ٢٤٧ ـ ٢٧٨ .

«جواب تفصيلى» . . وفيه : «نفى القتال بين المسلمين لأجل الاعتقاد» . .

و«تساهل المسلمين مع أهل العلم والنظر من كل ملة» .

و«طائفة من الحكماء والعلماء الذين حظوا عند الخلفاء»

- وهى مباحث أساسية فى موضوع الكتاب - . . .

بل وحذفوا ماكتبه الإمام عن أصول النصرانية - وهو من أنفس ماكتبه فى مقارنة النصرانية بالإسلام - ومنها الأصول الستة للنصرانية ، والتى قدم لها ببحث عن :

«طبيعة الدين المسيحى»

و«تمهيد» لهذه الأصول الستة . . ثم توالت عناوينها :

«الأصل الأول للنصرانية : الخوارق» . .

و«الأصل الثانى للنصرانية : سلطة الرؤساء» . .

و«الأصل الثالث للنصرانية : ترك الدنيا» . .

و«الأصل الرابع للنصرانية : الإيمان بغير المعقول» . .

و«الأصل الخامس للنصرانية : أن الكتب المقدسة حاوية لكل ما يحتاج إليه البشر فى المعاش والمعاد» . .

و«الأصل السادس للنصرانية : التفريق بين المسيحيين وغيرهم حتى الأقربين» . .

ثم حذفوا المباحث التى استخلص فيها الأستاذ الإمام دلالات هذه الأصول على موقف النصرانية من العلم والمدنية . . وهى المباحث التى ذكرها تحت عناوين :

«نتائج هذه الأصول وآثارها» . .

و«مقاومة النصرانية للعلم» . .

و«مراقبة المطبوعات ومحكمة التفتيش» . .

و«اضطهاد المسيحية للمسلمين واليهود والعلماء عامة» . .

و«مقاومة السلطة المدنية وحدية الاعتقاد» . .

و«مقاومة الجمعيات العلمية والكتب» . .

و«البروتستانت والإصلاح» . .

و«الفصل بين السلطتين فى المسيحية» . .

و«اعتقادالمسلمين فى المسيح والمسيحية» . .

كل هذه المباحث قد حذفتها طبعة «المواجهة بالتنوير» من كتاب الأستاذ الإمام ، الذى توسلت بإدراجه فى سياق على عبد الرازق وسلامة موسى وطه حسين وفرح أنطون إلى «تزوير» التجديد الإسلامى بوضعه فى سلة «التنوير ـ الغربى ـ العلمانى»، فارتكبت «مذبحة فكرية» قل نظيرها فى ميدان تزوير الكتب ونسخ المؤلفات ! ! . .

● وبعد هذا «التزوير» بالحذف والبتر، **اقترفت هذه الطبعة «تزويرا» آخر بالحشو والإضافة ، فأدخلت فى هذا الكتاب ما ليس فيه ! ! . .**

لقد حشروا فى هذه الطبعة المزورة، مباحث لاعلاقة لها بموضوع الكتاب . . وذلك مثل :

بحث : «الإنسان عالم صناعى» ـ وهو من مقالات صحيفة [العروة الوثقى] كتبه جمال الدين الأفغانى ، وليس الأستاذ الإمام . . ونشر فى [العروة] سنة ١٨٨٣م . . أى قبل تأليف كتاب [الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية] بعشرين عاما . . ولا علاقة له بموضوع المعركة الفكرية التى كتب لها وفيها هذا الكتاب(١٤) ! ! . .

---

(١٤) انظره فى هذه الطبعة ـ «المزورة» ، ص ٥ ـ ١٢ ـ طبعة الهيئة العامة للكتاب ـ القاهرة ، سنة ١٩٩٣م .

أبحاث : «المسألـة الإسلامية بين هانـوتو والإمام» [(١٥)] . . وهـى ست مقالات كتبها الأستاذ الإمـام ردا على الكاتب والسياسى الفرنسـى «جابرييل هانـوتو» [١٨٥٣ـ ١٩٤٤م] . . وليس على فـرح أنطون . . وكتبهـا فى سنة ١٩٠٠م . . أى قبل سنـوات من كتـابة مبـاحث [الإسـلام والنصرانية مـع العلم والمدنيـة] . . ونشرها فى صحيفة [المؤيـد] وليس فى [المنار] ــ التى رد فيهـا على فـرح أنطــون ! ! . . الأمـر الـذى لايترك عـذرا يبرر هــذا الخلـط والتزوير ! ! . .

لكن . . شاء الله ـ ولا راد لمشيئتـه ـ أن يوقع «تلامذة التنويـر ـ الغربى ـ العلمانـى» فى «تزويـر مادى» ، اقترفـوه فى حق الأستـاذ الإمام ، ليضـاف إلى «التزوير الفكرى» الذى تمثل فى دعواهم التى ادعوها . . والتى زعموا فيها أن تيار «التجديد الإسلامى» إنما كان يمثل فى حيـاتنا الفكرية دعوة إلى «التنوير ـ الغربى ـ العلمانى» . . وهى الدعـوى التى نقضناها ، عندما أشرنا إلى معالم المشروع النهضوى ، والطابع الإسلامى للنهضـة التى جاهد فى سبيلها أعلام هذا التجـديد . . من الطهطـاوى . . إلى الأفغانى . . إلى الأستـاذ الإمام . . وغيرهـم من أعـلام التجديد . . وصدق الله العظيـم إذ يعلمنا فيقول : ﴿**ولا تقف مـا ليس لـك به علـم إن السمع والبصر والفـؤاد كل أولئـك كان عنـه مسئولا**﴾ [(١٦)] . . وإذ يقـول : ﴿ **قـل هل يستـوى الأعمى والبصير أم هـل تستوى الظلمات والنور** . . ﴾ [(١٧)] ؟ ! . . وإذ يقول : ﴿ **أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لايستوون** ﴾ [(١٨)] ؟ ! . .

نعم . . ﴿**لايستوون**﴾ ! . . صدق الله العظيم .

---

(١٥) انظرها فى المرجع السابق . ص ١٣ ـ ٩٣ . وفى [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] . جـ ٣ ص ١٩٩ ـ ٢٤٠ .

(١٦) الإسراء : ٣٦ . (١٧) الرعد : ١٦ . (١٨) السجدة : ١٨ .

وبعد ..

فلقد رأينا ـ عبر فصول هذه الدراسة وصفحاتها ـ:

● تلك الموجة الثقافية والحملة الإعلامية، التى تعلق فيها مثقفونا العلمانيون بشعار «التنوير»، عنوانا على حملة فكرية يواجهون بها المد الإسلامى و«المشروع الإسلامى» للنهضة والتغيير. وهى الحملة التى أصدروا فيها سلسلة غير مسبوقة من الكتب ـ قارب عددها الخمسين كتابا ـ وكانت إصداراتها تتوالى بمعدل غير مسبوق ـ فى كل يوم كتاب !! ـ حملت جميعها عنوان: «التنوير ــ المواجهة» . . أى مواجهة التوجه الإسلامى بـ«التنوير»!! . .

● ثم قدمنا دراسة موضوعية، اجتهدت فى تحرير مفهوم مصطلح «التنوير» ـ فى نشأته الأوربية ـ بالقرن الثامن عشر الميلادى، والملابسات الأوربية المتميزة لهذه النشأة. . والمواجهة التى مثلتها «فلسفة التنوير» الأوربى ـ الوضعية . . العلمانية ـ مع النصرانية والكنيسة واللاهوت . .

وعرضنا، كذلك، للمفهوم المغاير تماما لكلمة «التنوير» فى الاصطلاح العربى، والمفهوم الإسلامى . . فتجلى لهذا المصطلح مفهومان متغايران، بل ومتناقضان، لدى الغربيين وعند الإسلاميين . .

ثم عرضنا لمفاهيم «التنوير» عند الذين رفعوه شعارا لحملتهم فى مواجهة المشروع الإسلامى . . لنتبين هوية «تنويرهم» هذا . . أعربى هو؟ . . أم غربى؟ . .

● ثم أمسكنا بداية «خيوط» «فلسفة التنويـر» الغربى، فى حياتنا الفكرية الحديثة، منذ عصر «الرواد»، الذين اختاروا - صراحة ودون مواربة - لنهضة أمتنا أن تكـون على نمط النمـوذج الغربـى فى النهوض، فـدعوا إلى أن نسير سيرة أوربا فى «الحكم» و«الإدارة» و«التشريع» . .

وقدمنا من المشروعـات الفكرية «التنويرية» لهؤلاء «الـرواد» نماذج ثلاثة، شاهدة على أن «تنويرها» إنما كان غربيا، أرادوا به - فى صراحة لا مواربة فيها - استبعاد الإسلام مـن «مرجعية النهضة» الشرقية، كما صنع التنـوير الغربى مع النصرانية إبان النهضةالأوربية الحديثة . . وهذه النماذج الشاهدة هى:

١ - نموذج الشيخ على عبد الرازق . . وعلمنة الإسلام . . والعمران . .

٢ - ونمـوذج سلامة موسـى . . والتفرنج . . والانسـلاخ عن الشرق . . والعروبة . . والإسلام . .

٣ - ونموذج الدكتور طه حسين . . ويونـانية عقلنا الشرقى . . ومتوسطية حضـارتنا . . والالتـزام أمـام أوربـا بأن نسير سيرتها فى «الحكـم» و«الإدارة» و«التشريع» . .

● وبعد هـذه النماذج من المشروعـات الفكرية لجيـل «الرواد»، عـرضنا لهوية «تنوير جيل التـلاميذ» . . أغربية هى؟ أم عربية؟! . . ثـم وقفنا - بعد تقديم الشواهد على «غربية هوية تنويرهم» - أمام نماذج ثلاثة من المشروعات الفكرية لجيل «التلاميذ»:

١ - نمـوذج تفريغ الإسلام مـن محتواه الدينى والإلهى والغيبـى . . وذلك تحت شعـارات الإسلام، وبلغـة إسـلاميـة، وباصطـلاحـات المسلمين . . واخترنا مثالا على هذا النموذج مشروع الدكتور حسن حنفى . .

٢ - ونموذج «مـركسة الإسلام» . . وتقديمه «كمجـرد ثورة»، لا يعدو أن يكون «بنـاء فوقيـا» أفرزه «البناء التحتـى» المادى . . واخترنا مثـالا على هذا

رسالة دكتوراه عن «القرآن وعلومه» للدكتور عبد الله خورشيد البرى . .

٣ ــ ونموذج التناول الهزلى ، والخالى من الأمانة والعدالة الفكرية فى التعامل مع الإسلام وفكره وتراثه وأعلامه . . وضربنا لهذا النموذج مثلا بـ«اجتهادات» « الأستاذ » حسين أحمد أمين . .

● ثم خلصنا ، بعد ذلك ، إلى دراسة كشفنا بها «التزوير» الذى يقترفه دعاة «التنوير ـ الغربى» ، عندما «يحشرون» أسماء أعلام «التجديد والاجتهاد الإسلامى» ، ويضعونها فى «سلة» «التنوير ـ الغربى ـ العلمانى» . . وفى هذا المقام وقفنا ، أيضا ، عند نماذج ثلاثة :

١ ـ نموذج رفاعة الطهطاوى . . المجدد الإسلامى . . والذى كان أول عين للشرق على الغرب فى عصرنا الحديث . . وكيف كان صاحب عبقرية فى نظرته النقدية ، التى رفضت «الوضعية الغربية . . والتنوير العلمانى الغربى» . . منتصرا للرؤية الإسلامية المتميزة . .

٢ ــ ونموذج جمال الدين الأفغانى . . رائد الدعوة إلى إنهاض الأمة بالإسلام . . وتجديد دينها لتتجدد به دنياها . .

٣ ــ ونموذج الإمام محمد عبده . . المهندس الأعظم لمعالم المشروع النهضوى الإسلامى الحديث . . وهو الذى ــ رغم ذلك ـ «زور» «التنويريون ــ المتغربون» واحدا من أهم كتبه . . حتى يضعوه وأعلام التجديد الإسلامى فى «سلة» «التنوير ـ الغربى ـ العلمانى» ! . .

***

كاشفين النقاب ــ عبر فصول وصفحات هذا الكتاب ـ عن واحدة من أخطر حملات «التزوير الفكرى» ، التى توسل أصحابها بمصطلحات براقة وجذابة ، يعشقها «الجمهور» . . ولا يدرك تميز مفاهيمها ومضامينها فى الثقافات والحضارات المختلفة إلا «أهل الذكر والاختصاص» ! ! .

حتى إذا ما اختلطت الأوراق . . وأصبح «التجديد الإسلامى» «تنويرا ـ غربيا ـ علمانيا» . . حل هذا «التنوير ـ العلمانى» محل «التجديد ـ الإسلامى» ، فنسخ «التنوير» إسلامنا . . وأزاحه من «مرجعية مشروعنا الحضارى» . . كما صنع التنوير الغربى مع النصرانية فى النهضة الأوربية الحديثة ! ! . .

* * *

إن فلسفة التنوير الغربى قد أقامت «قطيعة معرفية كبرى» مع الموروث المسيحى الغربى . . تلك بداهة يعرفها الجميع . . وفى كتابات «الشجعان ـ غير المرائين» من مثقفينا المعاصرين ، الذين يدعون إلى هذا التنوير الغربى ، نجد الإعلان عن هذه الرغبة المتوخاة من تبنيه : إقامة «القطيعة المعرفية الكبرى» مع النقل الدينى والموروث الإسلامى ، وإحلال العقل والتجريب محل «النقل الدينى» ، بدلا من الجمع بينها جميعا . .

وفى دراسة «صريحة» حول هذه القضية ، ينقل كاتبها عن الباحث الفرنسى «أميل بولا» ـ أحد كبار الباحثين المعاصرين فى علم الاجتماع الدينى ـ كيف مثل التنوير «قطيعة معرفية كبرى» مع الموروث النصرانى الغربى . . ليؤكد على تماثل ملابسات التطور ومشكلاته ـ حتى ليدعى وجود «كهانة» فى حياتنا وفكرنا الإسلامى ـ ومن ثم ضرورة تبنى فلسفة التنوير الغربى لإحداث «القطيعة المعرفية الكبرى» مع الموروث الإسلامى . . . يقول «أميل بولا» :

«كان المسيحى الناتج (أو المتولّد) عن حركة الإصلاح البروتستانتى حريصا ـ على المستوى الدينى ـ على عدم تقديم الطاعة إلا لله وكتابه ، لا لكهنته ولا لخليفته (أى البابا) . وأما الآن ـ أى مع التنوير ـ فقد تم اجتياز عتبة ثانية : **فلم يعد الإنسان يخضع إلا لعقله الذى يستطيع أن يحاكم الأشياء** بذاتها . . .

إن هذه الأيديولوجيا ـ الأم التى كشفها عصر التنوير للعالم ، **والتى تضاد**

المسيحية عن طريق الخروج منها ـ تحمل اسما رمزيا ، كان مثقلا بالمعنى ومشحونا بدلالة الواقع فى القرن الماضى : إنه الليبرالية . وكانت جدتها من القوة بحيث إنها قاومت كل محاولات الكاثوليكية للقضاء عليها أو على معارضتها . وكانت سلالتها التالية خصبة وصراعية داخلية ، لأنه من رحمها خرجت الاشتراكية . ومن هنا تبدو أهمية البحث عن منشأ التشكيلات الأيديولوجية وصعوبة هذا البحث . من هنا صعوبة دراسة الطريقة التى اقتسمت بها الفضاء الاجتماعى .

إن هذه الأيديولوجيا ـ التنوير ـ هى الأم ، بمعنى أن كل مايتفرع عنها يتولد عن تطويراتها وتناقضاتها ، دون أن ينقض القطيعة الإبستمولوجية الكبرى التى تفصل بين عصرين من الروح البشرية : عصر الخلاصة اللاهوتية للقديس توما الأكوينى ، وعصر الموسوعة لفلاسفة التنوير، هذا إذا أردنا أن نختار لحظتين رمزيتين وحدّيّتين . فمنذ الآن فصاعدا راح الأمل بمملكة الله ينزاح لكى يخلى المكان لتقدم عصر العقل وهيمنته . وهكذا راح نظام النعمة الإلهية ينمحى ويتلاشى أمام نظام الطبيعة . وانتهى عهد التعالى العمودى لكى يحل محله عهد المحسوسية والعلاقات الأفقية والحادية .

بالطبع ، يمكن للمعجم اللاهوتى القديم أن يستمر، ولكنه لم يعد يوهم أحدا ، فنفس الكلمات لم يعد لها نفس المعانى . لقد أصبح الإنسان وحده مقياسا للإنسان . وأصبح حكم الله ، والسلطات الدينية التى تنتسب إليه ، خاضعا لحكم الوعى البشرى الذى يطلق الحكم الأخير باسم الحرية ، هذه الحرية التى تمثل مكسبه الجديد ، الذى لا يزال هشا ، ولكنه غير قابل للنقض أبدا . . »[1] ! !

---

(١) انظر : هاشم صالح ـ مجلة [الوحدة] ـ التى تصدر بالمغرب ـ عدد فبراير ـ مارس ١٩٩٣ م . ص ٢٠ ، ٢١ ، وهو ينقل عن كتاب «أميل بولا» [الحرية ، العلمنة : حرب شطرى فرنسا ومبدأ الحداثة] ـ منشورات سيرف . باريس ، سنة ١٩٨٧ م .

هذا هو «التنوير ـ الغربى» ـ بقلم أبنائه، وكما يتبناه أنصاره من مثقفينا :

● قطيعة معرفية مع الموروث الدينى . . لا تكتفى بالإصلاح الدينى، وإنما تتخذه سلما لإحلال «الخضوع للعقل» محل «طاعة الله وكتابه»!! . .

● وما «الليبرالية» و«الاشتراكية» إلا «أسماء رمزية» لأيديولوجية التنوير هذه . . وخلافهما فقط فى «الفضاء الاجتماعى»!! . .

● ومنذ تبنى فلسفة التنوير لا بد من «إزاحة الأمل بمملكة الله» وأن يستبدل بها «عصر العقل وهيمنته»! . . وإزاحة «نظام النعمة الإلهية»، ليحل محله «نظام الطبيعة»!! . .

● ولا بأس من بقاء «المعجم الدينى» فى دائرة الاستعمال . . شريطة تغيير مضامين ما فيه من مصطلحات! . . «فنفس الكلمات لم يعد لها نفس المعانى»!! . . فـ «الإنسان» حل محل «الله» . . و«حكم الإنسان» حل محل «حكم الله»!! . .

هذا هو «التنوير ــ الغربى» عارية فلسفته من الزينة، وصريحة أيديولوجيته من التمويه! . .

* * *

ونحن نذكّر القارئ، أمام اعتراف فلاسفة التنوير الغربى، بأن بقاء «المعجم الدينى» إنما هو مشروط بتغيير معانى مصطلحاته . . . كيف يدعو كتاب عنوانه [الإسلام وأصول الحكم] . . وباسم الإسلام، إلى أن تكون مرجعية الدنيا كلها، إلى «حرية الناس . . وماتهديهم إليه عقولهم، وعلومهم، ومصالحهم، وأهواؤهم، ونزعاتهم»[٢] . . دون أن يوضع «الدين» مع هذه العقول، والعلوم، والمصالح، والأهواء، والنزعات!! . .

---

(٢) [الإسلام وأصول الحكم]، ص ٧٨ .

فالمطلوب هو « القطيعة المعرفية الكبرى» مع الدين، حتى ولو كانت الدعوة إلى هذه القطيعة» فى كتاب عن الإسلام وأصول الحكم، يستخدم « المعجم الدينى» فى الكتابة والتأليف!!

وكيف يتحول معنى «الإيمان» إلى «الالحاد»؟!.. فى كتاب عن [التراث والتجديد] يقول صاحبه إنه يريد إعادة بناء العقيدة الإسلامية وعلومها من جديد.. فيقول: إن «الالحاد هو التجديد.. وهو تطابق مع الواقع.. ووعى بالحاضر ـ ودرء للأخطار.. وهو المعنى الأصلى للإيمان»!!.. ولا داعى للخوف منه، ولا من العلمانية، فهما حتميان»[3]!!..

وكيف يتحول الإسلام من «دين وعقيدة ووحى» إلى «مجرد ثورة»[4]؟!..

وكيف يحل «الإنسان الكامل» محل «الله»[5]؟!..

إنها «القطيعة المعرفيةالكبرى» مع الدين والموروث الدينى.. حتى مع استخدام «المعجم الدينى»، الذى يتم تغيير معانى المصطلحات والمفردات فيه!

* * *

ونحن، فى نهاية هذه الدراسة، نريد أن نقول لمختلف الفرقاءالمتصارعين فى حياتنا الفكرية والثقافية:

● **إننا، فى رفضنا للتنوير الغربى، الذى يُحلّ الإنسان محل الله.. لا نريد أن نحل الله محل الإنسان.. وإنما نريد الجمع بين الإيمان بالذات الإلهيّة، وبين الإيمان بالإنسان الخليفة لله فى عمران الأرض!..**

---

(٣) د. حسن حنفى [التراث والتجديد]، ص ٦٧، ٦٩.

(٤) د. عبد الله خورشيد البرى [القرآن وعلومه فى مصر]، ص ١٠٩.

(٥) [التراث والتجديد]، ص ١٤١، ١٤٢، ١٤٦، ١٥٣، ١٥٤.

● ونحن ، فى رفضنا للتنوير الغربى ، الذى يُحلّ العقل والتجريب محل النقل والدين . . لا نريد أن نكتفى بالنقل والدين عن العقل والتجريب . . وإنما نريد أن تصدر معرفتنا عن كتابى «الوحى» و«الوجود» . . وأن نسلك إلى هذه المعرفة سبل : «العقل» و«النقل» و«التجريب» و«الوجدان» مجتمعة ومتكاملة ! ! . .

● ونحن ، فى رفضنا للتنوير الغربى ، الذى يقيم «قطيعة معرفية كبرى» مع الموروث الدينى . . لا نريد أن نحل الموروث الدينى محل مستجدات التطور والعصر، فى الواقع . . وفى الفكر . . وإنما نريد أن نجعل «التجديد» ـ الذى يواكب التطور والمتغيرات . . مع احتفاظه بالثوابت والروح الحضارية والتواصل الحضارى ـ نريد أن نجعل «التجديد» بديلا لـ «القطيعة» ولـ«الجمود» كليهما ! ! . .

إننا نريد «التجديد» ــ الذى هو «تنوير إسلامى» ــ ليفجر فى عقولنا وحياتنا الفكرية والعملية «نور الإسلام» و«نور الحكمة الإنسانية» معا . . لتسير «ملكات الإنسان» فى «نور الله» . . فلا يعمى الجمود «بصيرة العقل» عن «نور الله» . . ولا تحرم «القطيعة الفكرية» هذا «العقل» من هذا «النور الإلهى»! . . نريد أن نقيم بين «العقل» وين «النقل» هذه العلاقة المثلى ، التى عرفتها حضارة الإسلام إبان ازدهارها وعطائها . . والتى صورها حجة الإسلام الغزالى [٤٥٠ ــ ٥٠٥هـ ، ١٠٥٨ ـ ١١١١م] ، عندما قال :

«فمثال العقل : البصر السليم عن الآفات والآذاء .

ومثال القرآن : الشمس المنتشرة والضياء .

فأخلق بأن يكون طالب الاهتداء ، المستغنى بأحدهما عن الآخر، فى غمار الأغبياء .

فالمعرض عن العقل ، مكتفيا بنور القرآن ، مثاله : المتعرض لنور الشمس

مغمضا للأجفان، فلا فرق بينه وبين العميان! .

فالعقل مع الشرع: نور على نور»[6] ! . .

تلك هى دعوتنا . . وهذه هى «الرسالة» التى نرجو أن يكون قد نجح فى حملها إلى القارئ هذا الكتاب :

إماطة اللثام عن التمايز ــ بل والتناقض ــ بين «التنوير ــ الغربى ـ العلمانى» وبين «التجديد ـ الإسلامى» . . ودعوة مختلف الفرقاء فى حياتنا الفكرية، المتصارعين حول هذه القضية ــ قضية : «هوية» مشروع نهضتنا المنشودة . . ومكانة الإسلام فى مرجعية مشروعنا النهضوى ـ دعوتهم جميعا إلى كلمة سواء، تجمع عقل الأمة لمواجهة ما فرض ويفرض عليها من تحديات .

القاهرة

٧ من ربيع الأول سنة ١٤١٤هـ

٢٥ من أغسطس سنة ١٩٩٣م

---

(٦) [الاقتصاد فى الاعتقاد] ، ص ٢ ، ٣ .

المصـــادر

● القرآن الكريم .

● كتب السنة :

١ ـ [صحيح البخارى] طبعة دار الشعب . القاهرة .

٢ ـ [صحيح مسلم] طبعة القاهرة سنة ١٩٥٥م .

٣ ـ [سنن الترمذى] طبعة القاهرة سنة ١٩٣٧م .

٤ ـ [سنن النسائى] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٤م .

٥ ـ [سنن أبى داود] طبعة القاهرة سنة ١٩٥٢م .

٦ ـ [سنن ابن ماجه] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٢م .

٧ ـ [سنن الدارمى] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦م .

٨ ـ [مسند الإمام أحمد] طبعة القاهرة سنة ١٣١٣هـ .

٩ ـ [الموطأ] ـ للإمام مالك ـ طبعة دار الشعب . القاهرة .

● الكتب . . والموسوعات . . والدوريات :

د . إبراهيم بدران ،
د . محمد أسعد فارس ـ إعداد : [موسوعة العلماء والمخترعين] طبعة بيروت سنة ١٩٧٨م .

ابن منظور : [لسان العرب] طبعة دار المعارف . القاهرة .

أبو البقاء الكفوى : [الكليات] طبعة دمشق سنة ١٩٨١م

أحمد عطية الله : [القاموس الإسلامى] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٣م .

الأفغانى : [الأعمال الكاملة] دراسة وتحقيق : د. محمد عمارة . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨م .

بطرس البستانى : [دائرة المعارف] طبعة القاهرة .

التهانوى : [كشاف اصطلاحات الفنون] طبعة الهند سنة١٨٩٢م .
د . جابر عصفور : [التنوير يواجه الظلام] طبعة القاهرة سنة١٩٩٣م .
: [محنة التنوير] طبعة القاهرة سنة١٩٩٣م .
الجاحظ : [رسائل الجاحظ] تحقيق : الأستاذ عبدالسلام هارون . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٤م .
الجامعة الأمريكية ـ القاهرة ـ : [حضارة مصر الحديثة]ـ طبعة القاهرة، سنة ١٩٣٣م .
جمعية المستشرقين : [دائرة المعارف الإسلامية] الطبعة العربية الثانية ـ القاهرة ـ دار الشعب .
حسن البنا : [مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا] طبعة دار الشهاب . القاهرة .
د . حسن حنفى : [التراث والتجديد] طبعة القاهرة سنة ١٩٨٠م
حسين أحمد أمين : [حول الدعوة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية] طبعة بيروت . سنة ١٩٨٥م .
: [الاجتهاد فى الإسلام : حق هو أم واجب؟] طبعة القاهرة سنة١٩٩٣م .
دائرة المعارف البريطانية : «مادة : تنوير» .
ديورانت : [قصة الحضارة] الطبعة العربية . القاهرة .
روزنتال (م) ـ إشراف ـ : [الموسوعة الفلسفية] ـ السوفيتية ـ ترجمة : سمير كرم . طبعة بيروت سنة ١٩٧٤م .
زامباور : [معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى] طبعة القاهرة سنة ١٩٥١م .
د . زكى نجيب محمود ـ إشراف ـ : [الموسوعة الفلسفية المختصرة] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٣م .
سانتيلانا : [القانون والمجتمع] ـ بحث ـ ضمن كتاب [تراث الإسلام] ترجمة : جرجيس فتح الله طبعة بيروت سنة ١٩٧٢م .
سركيس ـ يوسف إليان ـ : [معجم المطبوعات العربية والمعربة] طبعة القاهرة سنة ١٩٢٨م .
سلامة موسى : [اليوم والغد] طبعة القاهرة سنة ١٩٢٨م .
د . طه حسين : [الفتنة الكبرى] طبعة القاهرة سنة ١٩٨٤م .
: [مستقبل الثقافة فى مصر] طبعة القاهرة سنة ١٩٣٨م .

: [فى الشعر الجاهلى] طبعة القاهرة سنة ١٩٢٦م .
: [من الشاطئ الآخر] ترجمة : عبد الرشيد الصادق المحمودى - طبعة بيروت سنة ١٩٩٠م .
: [لجنة مشروع الدستور] - محضر اجتماع - طبعة وزارة الإرشاد القومى - القاهرة .

الطهطاوى - رفاعة رافع - : [الأعمال الكاملة] دراسة وتحقيق : د. محمد عمارة . طبعة بيروت ١٩٧٣ - ١٩٨١م .

د. عبد الله خورشيد البرى : [القرآن وعلومه فى مصر] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠م .

على عبد الرازق (الشيخ) : [الإسلام وأصول الحكم] طبعة القاهرة سنة ١٩٢٥م .

د. على عقلة عرسان : [الفصحى والعامية والحوار] طبعة الرياض . سنة ١٩٩٠م .

الغزالى - أبو حامد - : [الاقتصاد فى الاعتقاد] طبعة صبيح - القاهرة - بدون تاريخ .
: [فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة] طبعة القاهرة سنة ١٩٠٧م .

فرح أنطون : [ابن رشد وفلسفتة] طبعة الإسكندرية سنة ١٩٠٣م .

د. لويس عوض : [تاريخ الفكر المصرى الحديث] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٩م .

محمد بخيت المطيعى (الشيخ) : [حقيقة الإسلام وأصول الحكم] طبعة القاهرة سنة ١٣٤٤هـ .

محمد حميد الله الحيدرآبادى - تحقيق - : [مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة] طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦م .

د. محمد الدسوقى : [طه حسين يتحدث عن أعلام عصره] طبعة القاهرة سنة ١٩٩٢م .

د. محمد رجب بيومى : [كتاب الإسلام وأصول الحكم فى الميزان] طبعة القاهرة . سنة١٩٩٣م .

محمد رشيد رضا (الشيخ) : [تاريخ الأستاذ الإمام] طبعة القاهرة . سنة١٩٣١م .

د. محمد ضياء الدين الريس : [الإسلام والخلافة فى العصر الحديث] طبعة القاهرة . سنة١٩٧٧م .
: [النظريات السياسية الإسلامية] طبعة القاهرة . سنة

١٩٦٠م.

د. محمد عابد الجابرى : [يقظة الوعى العروبى فى المغرب] ـ ضمن كتاب [تطور الوعى القومى فى المغرب العربى] طبعة بيروت سنة ١٩٨٦م.

محمد عبده (الأستاذ الإمام) : [الأعمال الكاملة] دراسة وتحقيق : د. محمد عمارة. طبعة بيروت سنة ١٩٧٢م. والقاهرة سنة ١٩٩٣م.

: [الإسلام والرد على منتقديه] ـ مع آخرين ـ طبعة القاهرة سنة١٩٢٨م.

: [الإسلام بين العلم والمدنية] طبعة القاهرة سنة ١٩٩٣م.

د. محمد عمارة : [الغزو الفكرى وهم أم حقيقة؟] طبعة القاهرة سنة ١٩٨٩م.

: [إسلامية المعرفة] طبعة القاهرة سنة ١٩٩١م.

: [معركة الإسلام وأصول الحكم] طبعة القاهرة سنة ١٩٨٩م.

: [الإسلام وفلسفة الحكم] طبعة القاهرة سنة ١٩٨٩م.

: [الدولة الإسلامية بين العلمانية والسلطة الدينية] طبعة القاهرة سنة ١٩٨٨م.

: [العلمانية ونهضتنا الحديثة] طبعة القاهرة سنة ١٩٨٦م.

: [الإسلام والسياسة : الرد على شبهات العلمانيين] طبعة القاهرة سنة ١٩٩٢م.

: [قاموس المصطلحات الاقتصادية فى الحضارة الإسلامية] طبعة القاهرة سنة ١٩٩٣م.

: [جمال الدين الأفغانى المفترى عليه] طبعة القاهرة سنة ١٩٨٤م.

: [الجامعة الإسلامية والفكرة القومية عند مصطفى كامل] طبعة دمشق سنة ١٩٨٩م.

: [الإسلام وحقوق الإنسان] طبعة القاهرة سنة ١٩٨٩م.

: [مسلمون ثوار] طبعة القاهرة سنة ١٩٨٨م.

محمد فؤاد عبد الباقى : [المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم] طبعة دار الشعب. القاهرة.

محمد مختار المصرى (باشا) : [التوفيقات الإلهامية فى مقارنة التواريخ] دراسة وتحقيق :

د. محمد عمارة. طبعة بيروت سنة ١٩٨٠م.
مجمع اللغة العربية ـ القاهرة ـ : [المعجم الفلسفى] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٩ م.
ميشيل عفلق : [الكتابات السياسية الكاملة] طبعة بغداد. ١٩٨٧ ـ ١٩٨٨م.
نجيب العقيقى : [المستشرقون] طبعة القاهرة. سنة ١٩٦٤م.
نيكسون (ريتشارد) : [الفرصة السانحة] ترجمة: أحمد صدقى مراد. طبعة القاهرة سنة ١٩٩٢م.
وينسنك (أ. ى) : [المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى الشريف] طبعة ليدن ١٩٣٦ ـ ١٩٦٩م.
يوسف المغربى : [دفع الإصر عن كلام أهل مصر] تحقيق: عبد السلام أحمد عواد. طبعة موسكو سنة ١٩٦٨م.

● **دوريات:**

[الحياة] ـ لندن ـ .
[المصور] ـ القاهرة ـ .
[الأهرام] ـ القاهرة ـ .
[رسالة الإسلام] ـ القاهرة ـ .
[السياسة] ـ القاهرة ـ.
[الجمهورية] ـ القاهرة ـ .
[الوفد] ـ القاهرة ـ .
[العربى] ـ الكويت ـ.
[الوحدة] ـ المغرب ـ .

الفهـــرس

صفحة

للمؤلف

أ ـ تأليف :

١ ـ معالم المنهج الإسلامى ـ دار الشروق ـ القاهرة ـ ١٩٩١م .
٢ ـ الإسلام وفلسفة الحكم ـ دار الشروق ـ القاهرة ـ سنة ١٩٨٩م .
٣ ـ الإسلام وأصول الحكم ـ دراسة ووثائق ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت سنة ١٩٨٥م .
٤ ـ معركة الإسلام وأصول الحكم ـ دار الشروق ـ القاهرة ـ سنة ١٩٨٩م .
٥ ـ الإسلام والسياسة ـ الرد على شبهات العلمانيين ـ دار التوزيع والنشر الإسلامية ـ القاهرة سنة ١٩٩٢م .
٦ ـ الإسلام والفنون الجميلة ـ دار الشروق ـ القاهرة ـ سنة ١٩٩١م .
٧ ـ الإسلام والمستقبل ـ دار الشروق ـ القاهرة ـ سنة ١٩٨٦م .
٨ ـ الإسلام وحقوق الإنسان ـ ضرورات لا حقوق ـ دار الشروق ـ القاهرة ـ سنة ١٩٨٩م .
٩ ـ الإسلام والثورة ـ دار الشروق ـ القاهرة ـ سنة ١٩٨٨م .
١٠ ـ الإسلام والعروبة ـ دار الشروق ـ القاهرة ـ سنة ١٩٨٨م .
١١ إسلامية المعرفة ـ دار الشرق الأوسط ـ القاهرة ـ سنة ١٩٩٢م .
١٢ ـ الدين والدولة ـ الهيئة العامة للكتاب ـ القاهرة ـ سنة ١٩٨٦م .
١٣ ـ الإسلام وقضايا العصر ـ دار الوحدة ـ بيروت ـ سنة ١٩٨٤م .
١٤ ـ الإسلام والوحدة القومية ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت ـ سنة ١٩٧٩م .
١٥ ـ الإسلام والسلطة الدينية ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت .
١٦ ـ الإسلام والحرب الدينية ـ دار الوحدة ـ بيروت ـ سنة ١٩٨٢م .
١٧ ـ الإسلام والعروبة والعلمانية ـ دار الوحدة ـ بيروت ـ سنة ١٩٨١م .
١٨ الإسلام بين العلمانية والسلطة الدينية ـ دار ثابت ـ القاهرة ـ سنة ١٩٨٢م .
١٩ ـ الدولة الإسلامية بين العلمانية والسلطة الدينية ـ دارالشروق ـ القاهرة ـ سنة ١٩٨٨م .
٢٠ ـ هل الإسلام هو الحل؟ لماذا . . وكيف ـ دارالشروق ـ القاهرة ـ سنة ١٩٩٥م .
٢١ ـ تهافت الغلو العلمانى ـ دار الشروق ـ القاهرة ـ سنة ١٩٩٥م .

٢٢ ـ العلمانية ونهضتنا الحديثة ـ دار الشروق ـ القاهرة ـ ١٩٨٦م .

٢٣ ـ أزمة الفكر الإسلامى المعاصر ـ دار الشرق الأوسط ـ القاهرة ـ سنة ١٩٩٠م .

٢٤ ـ الغزو الفكرى : وهم أم حقيقة؟ ـ دار الشروق ـ القاهرة ـ سنة ١٩٨٨م .

٢٥ ـ الاستقلال الحضارى ـ الهيئة العامة للكتاب ـ القاهرة ـ سنة ١٩٩٣م .

٢٦ ـ الطريق إلى اليقظة الإسلامية ـ دار الشروق ـ القاهرة ـ ١٩٩٠م .

٢٧ ـ تيارات الفكر الإسلامى ـ دار الشروق ـ القاهرة ـ سنة ١٩٩١م .

٢٨ ـ الصحوة الإسلامية والتحدى الحضارى ـ دار الشروق ـ القاهرة ـ سنة١٩٩١م .

٢٩ ـ المعتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية ـ دار الشروق ـ القاهرة ـ ١٩٨٨م .

٣٠ ـ المادية والمثالية فى فلسفة ابن رشد ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ سنة ١٩٨٣م .

٣١ ـ عندما أصبحت مصر عربية ـ دار قتيبة ـ دمشق ـ سنة ١٩٨٩م .

٣٢ ـ معارك العرب ضد الغزاة ـ المركز العربى للنشر ـ القاهرة ـ سنة ١٩٩١م .

٣٣ ـ العرب والتحدى ـ دارالشروق ـ القاهرة ـ سنة ١٩٩١م .

٣٤ ـ مسلمون ثوار ـ دار الشروق ـ القاهرة ـ سنة ١٩٨٨م .

٣٥ ـ نصر أبو زيد والتفسير الماركسى للإسلام . دار الشروق ـ القاهرة سنة ١٩٩٥م .

٣٦ ـ فكر التنوير بين العلمانيين والإسلاميين ـ دار الصحوة ـ القاهرة ـ سنة ١٩٩٥م .

٣٧ ـ سلامة موسى : اجتهادخاطئ أم عمالة حضارية؟ ـ دار الصحوة ـ القاهرة ـ سنة ١٩٩٥م .

٣٨ ـ رؤية إسلامية لمشروع مؤتمر السكان ـ مركز التوثيق ـ سنة ١٩٩٤م .

٣٩ ـ الفريضة الغائبة : عرض وحوار وتقييم ـ دار الوحدة ـ بيروت ـ سنة ١٩٨٣م .

٤٠ ـ الجامعة الإسلامية والفكرة القومية ـ دار الشروق ـ القاهرة ـ سنة ١٩٩٤م .

٤١ ـ إستراتيجية التنصير فى العالم الإسلامى ـ مركز دراسات العالم الإسلامى ـ مالطا ـ سنة ١٩٩٢م .

٤٢ ـ قاموس المصطلحات الاقتصادية فى الحضارة الإسلامية ـ دار الشروق ـ القاهرة ـ سنة ١٩٩٣م .

٤٣ ـ إسرائيل : هل هى سامية؟ ـ دار الكاتب العربى ـ القاهرة ـ سنة ١٩٦٨م .

٤٤ ـ ظاهرة القومية فى الحضارة العربية ـ الكويت ـ رابطة الأدب ـ سنة ١٩٨٣م .

٤٥ ـ رحلة فى عالم الدكتور محمد عمارة ـ دار الكتاب الحديث ـ بيروت ـ سنة ١٩٨٩م .

٤٦ ـ نظرية الخلافة الإسلامية ـ دار الثقافة الجديدة ـ القاهرة ـ سنة ١٩٨٠م .

٤٧ ـ الإسلام بين التنوير والتزوير ـ دار الشروق ـ القاهرة ـ سنة ١٩٩٥م .

٤٨ ـ أزمة العقل العربى ـ مناظرة ـ دار الآفاق الدولية ـ القاهرة ـ سنة ١٩٩٣م .

٤٩ ـ المواجهة بين الإسلام والعلمانية ـ مناظرة ـ دار الآفاق الدولية ـ القاهرة ـ سنة ١٤١٣هـ .

٥٠ ـ تهافت العلمانية ـ مناظرة دار الآفاق الدولية ـ القاهرة ـ سنة ١٤١٣هـ

٥١ ـ الحركة الإسلامية ـ رؤية مستقبلية ـ بالإشتراك مع آخرين ـ الكويت ـ سنة ١٩٨٩ م .
٥٢ ـ العدل الاجتماعى لعمر بن الخطاب ـ دارالثقافة الجديدة ـ القاهرة ـ سنة ١٩٧٨ م .
٥٣ ـ الفكر الاجتماعى لعلى بن أبى طالب ـ دار الثقافة الجديدة ـ القاهرة ـ سنة ١٩٧٨ م .
٥٤ ـ عمر بن عبد العزيز ـ دار الشروق ـ القاهرة ـ سنة ١٩٨٨ م .
٥٥ ـ جمال الدين الأفغانى : موقظ الشرق ـ دار الشروق ـ القاهرة ـ سنة ١٩٨٨ م .
٥٦ ـ جمال الدين الأفغانى المفترى عليه ـ دار الشروق ـ القاهرة ـ سنة ١٩٨٨ م .
٥٧ ـ محمد عبده : تجديد الدنيا بتجديد الدين ـ دار الشروق ـ القاهرة ـ سنة ١٩٨٨ م .
٥٨ ـ محمد عبده : سيرته وأعماله ـ دار القدس ـ بيروت ـ سنة ١٩٧٨ م .
٥٩ ـ عبد الرحمن الكواكبى ـ دار الشروق ـ القاهرة ـ سنة ١٩٨٨ م .
٦٠ ـ أبو الأعلى المودودى ـ دار الشروق ـ القاهرة ـ سنة ١٩٨٧ م .
٦١ ـ رفاعة الطهطاوى ـ دار الشروق ـ القاهرة ـ سنة ١٩٨٨ م .
٦٢ ـ على مبارك ـ دار الشروق ـ القاهرة ـ سنة ١٩٨٨ م .
٦٣ ـ قاسم أمين ـ دار الشروق ـ القاهرة ـ سنة ١٩٨٨ م .
٦٤ ـ الشيخ محمد الغزالى : الموقع الفكرى والمعارك الفكرية ـ الهيئة العامة للكتاب ـ القاهرة ـ سنة ١٩٩٢م .
٦٥ ـ نظرة جديدة إلى التراث ـ دار قتيبة ـ دمشق ـ سنة ١٩٨٨ م .
٦٦ ـ التراث فى ضوء العقل ـ دار الوحدة ـ بيروت ـ سنة ١٩٨٤ م .
٦٧ ـ القومية العربية ـ دار الفكر ـ القاهرة ـ سنة ١٩٥٨ م .
٦٨ ـ فجر اليقظة القومية ـ دار الوحدة ـ بيروت ـ سنة ١٩٨٤ م .
٦٩ ـ العروبة فى العصر الحديث ـ دار الوحدة ـ بيروت ـ سنة ١٩٨٤ م .
٧٠ ـ الأمة العربية وقضية الوحدة ـ دار الوحدة ـ بيروت ـ سنة ١٩٨٤ م .
٧١ ـ ثورة الزنج ـ دار الوحدة ـ بيروت ـ سنة ١٩٨٠ م .
٧٢ ـ دراسات فى الوعى بالتاريخ ـ دار الوحدة ـ بيروت ـ سنة ١٩٨٤ م .
٧٣ ـ الفكر القائد للثورة الإيرانية ـ دار ثابت ـ القاهرة ـ سنة ١٩٨٢ م .

ب ـ دراسة وتحقيق :

٧٤ ـ الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت سنة ١٩٧٩م .
٧٥ ـ الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده ـ دار الشروق ـ القاهرة ـ سنة ١٩٩٣م .
٧٦ ـ الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبى ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت ـ سنة ١٩٧٥م .

٧٧ ـ الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوى ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت ـ سنة ١٩٧٣م .

٧٨ ـ الأعمال الكاملة لعلى مبارك ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت ـ سنة ١٩٧٩م .

٧٩ ـ الأعمال الكاملة لقاسم أمين ـ دار الشروق ـ القاهرة ـ سنة ١٩٨٩م .

٨٠ ـ رسائل العدل والتوحيد ـ دار الشروق ـ القاهرة ـ سنة ١٩٨٧م .

٨١ ـ كتاب الأموال ـ لأبى عبيد القاسم بن سلام ـ دار الشروق ـ القاهرة ـ سنة ١٩٨٩م .

٨٢ ـ فصل المقال ـ لابن رشد ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ سنة ١٩٨٥م .

٨٣ ـ رسالة التوحيد ـ للإمام محمد عبده ـ دار الشروق ـ القاهرة ـ سنة ١٩٩٣م .

٨٤ ـ الإسلام والمرأة ـ للإمام محمد عبده ـ دار المستقبل العربى ـ القاهرة ـ سنة ١٩٨٥م .

٨٥ ـ التوفيقات الإلهامية فى مقارنة التواريخ ـ لمحمد مختار المصرى ـ المؤسسة العربية ـ بيروت ـ سنة ١٩٨٠م .

جـ ـ بالاشتراك مع آخرين :

٨٦ ـ القرآن ـ المؤسسة العربية ـ بيروت ـ سنة ١٩٧٢م .

٨٧ ـ محمد ﷺ ـ المؤسسة العربية ـ بيروت ـ سنة ١٩٧٢م .

٨٨ ـ عمر بن الخطاب ـ المؤسسة العربية ـ بيروت ـ سنة ١٩٧٣م .

٨٩ ـ على بن أبى طالب ـ المؤسسة العربية ـ بيروت ـ سنة ١٩٧٤م .

د ـ تحت الطبع :

٩٠ ـ الأمن الاجتماعى ـ من منظور إسلامى .

٩١ ـ معالم المشروع الحضارى الإسلامى .

٩٢ ـ الحوار فريضة إسلامية .

٩٣ ـ الإسلام فى عيون غربية .

٩٤ ـ تراثنا : كيف نحييه ؟

٩٥ ـ العلمانية بين الغرب والإسلام ـ دار الصحوة ـ القاهرة .

٩٦ ـ الجديد فى المخطط الغربى تجاه المسلمين ـ دار الصحوة ـ القاهرة .

٩٧ ـ العالم الإسلامى والمتغيرات الدولية الراهنة ـ دار الصحوة ـ القاهرة .

٩٨ ـ عالمنا : حضارة ؟ أم حضارات ؟ ـ دار الصحوة ـ القاهرة .

٩٩ ـ الثوابت والمتغيرات فى فكر اليقظة الإسلامية الحديثة .

١٠٠ ـ التعددية .

١٠١ ـ الغرب والإسلام .

١٠٢ ـ التحرير الإسلامى للمرأة .
١٠٣ ـ الصحوة الإسلامية فى عيون غربية .
١٠٤ ـ كيف نتعامل مع التراث؟
١٠٥ ـ الإبداع الفكرى وخصوصية الحضارة الإسلامية .
١٠٦ ـ التيار القومى والإسلام .
١٠٧ ـ ثقافتنا : النموذج . . والانتماء .

رقم الايداع : ٢٨٨٥ / ٩٦

I.S.B.N. 977 - 09 - 0321 - 3

مطابع الشروق

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسنى ـ هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ ـ فاكس : ٣٩٣٤٨١٤

بيروت : ص ب : ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣



الإسلام
بين التنوير والتزوير

فى هذا الكتاب ينبهنا الدكتور محمد عمارة إلى أننا قد أصبحنا أمام درجة من الاستقطاب فى حياتنا الفكرية والثقافية، تقترب من الطائفية الثقافية، ومن الغلو الذى تقطع أطرافه كل الحبال مع الآخر، وهو ما يهددنا جميعًا بنزيف داخلى شديد الإنهاك وطويل المدى، يحرسه الخارج، الذى لا يرى إلا مصالحه وهيمنته . ولايقنع بأقل من التبعية له والذوبان فيه!! . وهو ما يستدعى وقفة مع الذات.. أى مع كل التيارات الفكرية المنتسبة حقا إلى هذه الذات الوطنية.. والقومية.. والإسلامية.. وقفة تستهدف حوارا وطنيا وقوميا وإسلاميا لاكتشاف معالم عقد الاستقلال الوطنى والقومى والحضارى.. فلابد من الاتفاق على تحقيق استقلال الوطن أولا، ليتمكن، بعد ذلك، كل صاحب أيديولوجية من التبشير بأيديولوجيته فى هذا الوطن المستقل.

وإذا كان السبيل إلى هذه الغاية حوارا فكريا نعالج به هذا الانقسام الفكرى غير المسبوق فى تاريخنا، فإن شرطا من شروط نجاح هذا الحوار هو تحرير المفاهيم والمضامين للمصطلحات المتداولة بين الفكرية، ليتحقق للمتحاورين الحديث بلغة واحدة!!. لحوارنا المنشود من المصير البائس حوار الطرشان!!..

وهذه الدراسة تضع عقول مختلف الفرقاء أمام مضمون «التنوير»، تكتشف حقيقته، وحقيقة «الأرض المشتركة» ب «المتصارعين» باسمه وحوله!! وتبين حجم « الخداع المناهي يسببه استخدام «المصطلح» الواحد بمفاهيم وخلفيات مختلفة. بل ومتباينة، وأحيانا متناقضة.

تلك هى مهمة الدراسة، التى ندعو الله أن يجعلها إسهاما فى الدعوة بالتى هى أحسن إلى كلمة سواء.